د. محمد عثمان الخشت

نحو تأسيس عصر ديني جديد





نحو تأسيس

عصر ديني جديد

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

الخشت، محمد عثمان
نحو تأسيس عصر ديني جديد/ د. محمد عثمان الخشت. - القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/ ط٢/ القاهرة: ٢٠١٨م.
٢٢٢ص؛ ١٤×٢١سم
تدمـــــك: ٩-٢٩-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٥٩٠٨
١- الإسلام - حركات الإحياء والإصلاح والتجديد
٢- الإسلام والإصلاح الدينى
أ- العنوان ٢١٩

دار النشر: نيو بوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: نحو تأسيس عصر ديني جديد
الكاتب: أ. د. محمد عثمان الخشت
رقم الطبعة: الثانية
تاريخ الطبع: ٢٠١٨



نيو بوك
٦ عمارات الدفاع الوطنى – حدائق القبة – القاهرة
ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

نحو تأسيس

عصر ديني جديد

أ. د. محمد عثمان الخشت

أستاذ فلسفة الدين والمذاهب الحديثة والمعاصرة

رئيس جامعة القاهرة



2018



فهرست عام

مقدمة

لا يمكن أن يقنعني أحد بأن الإسلام السائد في عصرنا هو الإسلام الأول الخالص والنقي، حتى عند أكثر الجماعات ادعاءً للالتزام الحرفي بالإسلام؛ فأنا أقيس صواب كل فكرة أو نسق فكري بالنتائج المترتبة عليه؛ فالفكرة الصواب هي التي تعمل بنجاح في الواقع وتنفع الناس. والإسلام الأول كانت نتائجه مبهرة في تغيير الواقع والتاريخ، أما الإسلام الذي نعيشه اليوم فهو خارج التاريخ ومنفصل عن واقع حركة التقدم. ولذلك باتت من الضرورات الملحة اليوم العودة إلى «الإسلام المنسي»، لا الإسلام المزيف الذي نعيشه اليوم. ولا يمكن هذا إلا بتخليص الإسلام من «الموروثات الاجتماعية» و«قاع التراث»، و«الرؤية الأحادية للإسلام»، فالنظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة وضيقة تزيف الإسلام؛ ولذا من الفرائض الواجبة توجيه النقد الشامل لكل التيارات أحادية النظرة، سواء كانت إرهابية أو غير إرهابية.

إن المشكلة ليست في الإسلام، بل في عقول المسلمين وحالة الجمود الفقهي والفكري التي يعيشون فيها منذ أكثر من سبعة قرون. لقد اختلط المقدس والبشري في التراث الإسلامي، واضطربت المرجعيات وأساليب الاستدلال؛ ولذا من غير الممكن «تأسيس عصر ديني جديد» دون تفكيك العقل

الديني التقليدي وتحليله للتمييز بين المقدس والبشري في الإسلام، فهذه مقدمة من بين مقدمات عديدة من أجل تكوين خطاب ديني جديد يتراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذي كان يحتكر فيه المتعصبون الحقيقة الواحدة والنهائية.

إن كل ما جاء في التاريخ بعد لحظة اكتمال الدين التي أعلنها القرآن، جهد بشري قابل للمراجعة، وهو في بعض الأحيان اجتهاد علمي في معرفة الحقيقة، وفي أحيان أخرى آراء سياسية تلون النصوص بأغراضها المصلحية المنحازة. وفي كل الأحوال - سواء كانت موضوعية أم مغرضة - ليست هذه الآراء وحيًا مقدسًا، بل آراء قابلة للنقد العلمي.

ويقتضي الدخول إلى عصر ديني جديد مجموعة من المهام العاجلة، مثل: تفكيك الخطاب الديني، وتفكيك العقل المغلق، ونقد العقل النقلي، وفك جمود الفكر الإنساني الديني المتصلب والمتقنع بأقنعة دينية؛ حتى يمكن كشفه أمام نفسه وأمام العالم. وليس هذا التفكيك للدين نفسه وإنما للبنية العقلية المغلقة والفكر الإنساني الديني الذي نشأ حول «الدين الإلهي الخالص».

وعملية «التفكيك» يجب أن تمر بمجموعة من المراحل، هي:

المرحلة الأولى: «الشك المنهجي».

المرحلة الثانية: التمييز بين المقدس والبشري في الإسلام.

المرحلة الثالثة: إزاحة كل «المرجعيات الوهمية» التي تكونت في «قاع التراث».

وبعد التفكيك يأتي التأسيس، وأهم أركانه:

الركن الأول: تغيير طرق تفكير المسلمين.

الركـن الثـاني: تعليـم جديـد منتـج لعقـول مفتوحـة وأسـلوب حيـاة وطريقـة عمـل جديـدة.

الركن الثالث: تغيير رؤية العالم.. تجديد المسلمين.

الركن الرابع: تأسيس مرجعيات جديدة.

الركن الخامس: العودة إلى الإسلام الحر «الإسلام المنسي».

الركن السادس: نظام حكم يستوعب سنن التاريخ.

ولـن يتحقـق كل هـذا دون توظيـف مجموعـة مـن الآليـات لتحقيـق «حلـول قصـيرة ومتوسـطة المـدى» تشـمل: التعليـم، والإعـلام، والثقافـة، والاقتصـاد، والاجتـماع، والسياسـة؛ وذلـك لـ«صناعـة عقـول» مفتوحـة عـلى الإنسـانية في ضـوء العـودة إلى المنابـع الصافيـة: القـرآن والسـنة الصحيحـة، وتغيـير المرجعيـات التقليديـة، وتأسـيس فقـه جديـد، وتفسـير جديـد، وعلـم حديـث جديـد، وإزاحـة كل «المرجعيـات الوهميـة» التـي تكونـت في «قـاع تـراثٍ» صُنـع لغـير عصرنـا.

ومـن دون هـذا لـن نسـتطيع صناعـة تاريـخ جديـد نخـرج فيـه مـن هـذه الدائـرة المقيتـة لكهنـوت صنعـه بـشر بعـد اكتـمال الديـن، وتلقفـه مقلـدون أصحـاب عقـول مغلقـة ونفـوس ضيقـة لا تسـتوعب رحابـة العـالم ولا رحابـة الديـن.

عزيـزي القـارئ لقـد كان هـذا الكتـاب في الأصـل مجموعـة مـن المقـالات الفكريـة تـم نشرهـا في جريـدة الوطـن في الفـترة بـين (2013 - 2015م) بـكل مـا فيهـا مـن سـيولة ومنعطفـات حادة، وتـم اسـتعادتها في هـذا الكتاب وفـق تصنيف مختلـف يتـلاءم مـع طبيعـة مفهـوم الكتـاب. وأرجـو أن يفتـح النقـاش حـول الأفـكار المطروحـة هنـا المجـال لمزيـد مـن الأفـكار الجديـدة التـي نتجـاوز فيهـا

«عصر الجمود الديني» الذي طال أكثر من اللازم في تاريخ أمتنا؛ من أجل تأسيس عصر ديني جديد، وتكوين خطاب ديني من نوع مختلف، وليس تجديد الخطاب الديني التقليدي؛ لأن تجديد الخطاب الديني عملية أشبه ما تكون بترميم بناء قديم، والأجدى هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة إذا أردنا أن نقرع أبواب عصر ديني جديد.

والله هو المقصد والمنتهى..

د. محمد عثمان الخشت

أستاذ فلسفة الدين والمذاهب الحديثة والمعاصرة

نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون التعليم والطلاب

الفصل الأول

الشك المنهجي وتأسيس عصر ديني جديد

1. نقطة البدء في افتتاح عصر ديني جديد.
2. الذات المفكرة.
3. الأفكار القديمة تحت مجهر التفكير المنهجي.
4. الشك المنهجي للخروج من دوامة التضليل لا من أجل فوضى الأفكار.
5. طرق الخروج من حالة الشك المنهجي.
6. من إحكام قيادة العقل إلى إحكام رؤية العالم.
7. الحقيقة وحدها لا تكفي.

الفصل الأول

الشك المنهجي
وتأسيس عصر ديني جديد

1- نقطة البدء في افتتاح عصر ديني جديد

«الشك المنهجي» هو سنة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ولولاه لما وصل إلى الحقيقة، عندما شك في عقائد قومه في الأوثان والكواكب والنجوم، وفق مراحل في «الاستدلال العقلي» ذكرتها سورة الأنعام: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ {6/76} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {6/77} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ {6/78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {6/79}) [الأنعام: 76 - 79].

هذا «الشك المنهجي» الذي يتخذ من الشك العقلي منهجًا للوصول إلى «الحقائق الواضحة والمتميزة»، هو ما قامت عليه الفلسفة الديكارتية التي افتتحت مع فلسفات وحركات علمية وفنية أخرى العصر الحديث الذي ودعت فيه أوروبا عالم العصور الوسطى.

فالمشكلة التي واجهها أبو الأنبياء في عصره كانت مشكلة التقليد والاتباع الأعمى للآباء وكبار القوم؛ ومنهجهم القائم على اليقين المطلق بصحة أقوال السابقين وسدنة الدين والتاريخ. والمشكلة التي واجهها ديكارت وعصره هي أيضًا سيادة أقوال الكهنة وتفسيرهم الأحادي للكتاب المقدس.

هنا رفض إبراهيم عليه السلام إسكات عقله، وهناك رفض ديكارت ورفاق عصره إسكات عقولهم. مع إبراهيم بدأ دين جديد يرفض التقليد، ومع ديكارت ورفاق عصره تم الشروع في تأسيس عصر جديد وخطاب ديني جديد تراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذي كان يحتكر فيه رجال الدين في أوروبا الحقيقة الواحدة والنهائية.

قام قوم إبراهيم عليه السلام بحرقه لكنه نجا بمعجزة، وقام كهنة العصور الوسطى بإقامة محاكم التفتيش حيث كل وسائل القتل والتعذيب. وعلى الرغم من هذا العنف الشامل والشرس مع إبراهيم ومع طلائع الحداثة في أوروبا، فقد انتصرت دعوة العقل والتوحيد مع إبراهيم، وانتصرت أفكار الحداثة في أوروبا.

لكن لماذا نركز الضوء على إبراهيم عليه السلام ونقارن بينه وبين ديكارت؟ وهل هذه تسوية في القيمة والمنزلة بينهما؟ نركز الضوء على إبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء، وهو نبي الحنفية السمحة تلك الملة التي نؤمن بها (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {2/135}) [البقرة: 135]، وهي ملة العقل والتوحيد ضد التعصب والتقليد وإشراك بشر أو أوثان مع الله، ونحن أولى بإبراهيم ذلك النبي الذي حدثنا عنه القرآن الكريم: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {16/120} شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ

إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {16/121} وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {16/122} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {16/123}) [النحل: 120 - 123].

لقد استخدم أبو الأنبياء عقله، فمر بمرحلة شك ضرورية امتدحها القرآن الكريم، ومنها وصل إلى رفض القديم، فالشك المنهجي ضروري للإيمان المنضبط، والشك المنهجي ضروري للعلم، والشك المنهجي ضروري لتأسيس خطاب ديني جديد في كل العصور. وليست وظيفة الفكر الخروج من الشك إلى اليقين فقط، ولكن أسمى وظائفه هي التفكر والتدبر وإخضاع كل شيء للفحص العقلي، إن الدعوة للتفكر وإعمال العقل دعوة قرآنية أصيلة في مقابل العقل الجامد الحاضن لنصوص القدماء والمفسر لها تفسيرًا حرفيًّا بعيدًا عن الواقع المتجدد، وبعيدًا عن النظر في الآفاق وفي الأنفس وفي الكتاب. ونحن لا نسوي بين أبي الأنبياء وبين أبي الفلسفة الحديثة، بحكم الإيمان، وبحكم الفرق بين حجم أثر الأول وأثر الثاني، وبحكم الفرق بين نبي وفيلسوف، والمسألة لا تعدو فقط محاولة الإجابة عن سؤال الأسئلة:

كيف يتم افتتاح عصر جديد؟

وهذه الإجابة نحتاجها اليوم، ليس فقط لدحر التطرف، ولكن لأننا فعلًا في أمسّ الحاجة لافتتاح عصر حداثة جديد في الشرق. وربما يتساءل القارئ أيضًا: لماذا نستحضر ديكارت، ولا نستحضر هنا كل طلائع الحداثة من المفكرين والعلماء ومجددي الفكر الديني؟ هل نرد ظاهرة الحداثة إلى علة واحدة؟ بطبيعة الحال لا. وربما نستعرض جهود أهم مفكري أوروبا في الانتقال من خطاب العصور الوسطى النقلي إلى خطاب العصور الحديثة

العقـلي، في كتابـات قادمـة، لا لنقلـد أوروبـا، فنناقـض أنفسـنا في نبـذ التقليـد سـواء لآبائنـا أو آبـاء غيرنـا، ولكـن لنتأمـل (سُـنَّةَ اللـهِ فِي الَّذِيـنَ خَلَـوْا مِـن قَبْـلُ) [الأحـزاب: 38] كـما يقـول القـرآن، وَنأخـذ - أيضًـا كـما يقـول القـران - (مَّثَـلُ الَّذِيـنَ خَلَـوْاْ مِـن قَبْلِكُم)[البقـرة: 214]. وهـذا ليـس فقـط إعـمالًا لعقولنـا، ولكنـه أيضًـا تنفيـذ لدعـوة القـرآن في التعقـل والسـير في الأرض - بأقدامنـا أو بعقلنـا - لـنرى مـا النتيجـة التـي وصـل إليهـا غيرنـا، يقـول تعـالى: (أَفَلَـمْ يَسِـيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُـرواْ كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِـمْ وَلَـدَارُ الآخِـرَةِ خَـيْرٌ لِّلَّذِيـنَ اتَّقَـواْ أَفَـلاَ تَعْقِلُـونَ {12/109}) [يوسـف: 109].

إن الحداثـة نتـاج جهـود ضخمـة ومتعـددة في الغـرب كلـه، لكـن ميـزة ديـكارت أنـه اختـزل كل التيـارات الصاعـدة والفلسـفات الجديـدة في عبـارة واحـدة أعطـت مفتاحًـا جديـدًا لعـصر جديـد هـو عـصر العقـل، هـل تعلـم - عزيـزي القـارئ - مـا هـذه العبـارة التـي لخصـت الفكـرة الافتتاحيـة التأسيسـية للعـصر الجديـد في الغـرب؟

2- الذات المفكرة

إن افتتـاح عـصر جديـد هـو نتـاج جهـود ضخمـة ومتعـددة في الغـرب كلـه كـما انتهينـا في الموضـوع السـابق، لكـن ميـزة ديـكارت أنـه اختـزل كل التيـارات الصاعـدة والأفـكار الجديـدة في عبـارة واحـدة أعطـت مفتاحًـا جديـدًا لعـصر جديـد هـو عـصر العقـل.

والعبـارة التـي لخصـت الفكـرة الافتتاحيـة للعـصر الجديـد في الغـرب، هـي: «أنـا أفكـر، إذن أنـا موجـود». ونحـن بحاجـة لهـذه العبـارة لا لنزيـن بهـا كلماتنـا

وخطبنـا، ولكـن لتكـون مفتاحًـا لخطـاب جديـد يسـتعيد دعـوةَ إبراهيـم عليـه السـلام والأمـرَ القـرآني الراسـخ لإعـمال العقـل في كل مـا حولنـا (ملكـوت السـموات والأرض)؛ والسـموات هنـا ليسـت ذلـك الفضـاء بمجراتـه ونجومـه وأقـماره فقـط، بـل أيضًـا السـموات بوصفهـا مقدسًـا ورمـزًا لـكل مـا هـو إلهـي، والأرض هنـا ليسـت ذلـك الكوكـب الـذي يـدور حـول الشـمس فقـط، بـل أيضًـا الأرض التـي هـي رمـز للحيـاة الدنيـا. ومـن دون إعـادة النظـر في هـذا الملكـوت السـماوي الأرضي لا يمكـن لنـا أن نصـل إلى خطـاب دينـي جديـد نفتتـح بـه عـصر حداثتنـا الـذي لم يـأتِ بعـدُ. ومـن ثَـمَّ فالتجديـد لا يـأتي إلا بالنظـر في العـالم (ملكـوت السـموات والأرض)، وليـس بإعـادة اجـترار مـوروث يعـبر عـن عصـور لم نعشْـها ولم نُخلَـق لهـا.

إن هـذه الفكـرة المفتاحيـة «أنـا أفكـر» هـي مـا يسـميه مؤرخـو الأفـكار «الكوجيتـو الديـكارتي»، ويوحـي هـذا الكوجيتـو بـأن «الفكـر» لـه الأسـبقية المنطقيـة في الخـروج مـن الشـك والوهـم إلى المعرفـة الصحيحـة والمنضبطـة. إنهـا كـما يقـول ديـكارت: «أهـم وأوثـق معرفـة تعـرض لمـن يديـر أفـكاره بترتيـب» (ديـكارت، مبـادئ الفلسـفة: ص 56). إن المعرفـة المنضبطـة لا بـد أن تكـون نتيجـةً طبيعيـةً لـكل مـن يُعمـل عقلـه بمنهـج دقيـق طبقًـا لمعايـير موزونـة.

وكان الشـك المنهجـي هـو الأسـاس الركـين الـذي توصـل منـه ديـكارت إلى «الذاتيـة الإنسـانية الفرديـة العاقلـة» التـي صـارت أسـاس كل تجديـد، ونقطـة جوهريـة في إعـادة بنـاء عـصر جديـد، تلـك الـذات التـي تأسسـت عـلى «أنـا أفكـر»، والتـي اختـصرت مطلـع العـصر كلـه واختـصرت منهـج ديـكارت، وتلخـص أسـاس تحمـل الإنسـان للمسـئولية والتكليـف في الإسـلام. ولا أريـد هنـا

أن أقـف عنـد مذهـب ديـكارت في مـا بعـد الطبيعـة، فهـذا المذهـب - ويـا للمفارقـة - لاهـوتي عـلى العكـس مـن منهجـه العقـلي، وقـد سـبق في كتـابي «أقنعة ديـكارت العقلانيـة تتسـاقط» أن أوضحـت لاهوتيـة ديـكارت في المذهـب، وكيـف أن عقلانيتـه في كتابـه «المقـال في المنهـج» تحولـت في «المذهـب» إلى أقنعـة يـداري بهـا اتجاهاتـه اللاهوتيـة التـي ظهـرت في كتبـه الأخـرى مثـل «مبـادئ الفلسـفة». ويجـب أن نميـز بـين منهـج ديـكارت العقـلاني، وبـين مذهبـه غـير العقـلاني في جوانـب كثـيرة، والمنهـج هـو «خطـوات التفكـير الصحيحـة مـن أجـل الوصـول إلى الحقيقـة»، أمـا المذهـب فهـو «مجموعـة الآراء والأفـكار التـي يقدمهـا المفكـر عـن العـالم والإنسـان واللـه». والمنهـج الـذي اقترحـه ديـكارت لا شـك أنـه منهـج عقـلاني، لكنـه في الواقـع الفعـلي لم يطبِّـق هـذا المنهـج بشـكل كامـل عـلى مذهبـه. فهنـاك جوانـب في آرائـه عـن اللـه والعـالم والإنسـان تشـتمل عـلى عنـاصر غـير عقلانيـة.

ومـع هـذا النقـد الشـديد الـذي وجهتـه إلى ديـكارت في المذهـب، فـلا يمكـن إنـكار ريادتـه في «المنهـج» وفضلـه عـلى العـصر الحديـث. كـما أن الأقنعـة العقليـة التـي تقنّـع بهـا في المذهـب، كان لهـا أثـر إيجـابي للغايـة في التأثـير عـلى الخطـاب الدينـي عـلى الرغـم مـن أنهـا مجـرد أقنعـة؛ حيـث كان مـن حسـن حـظ الحداثـة أنهـا فهمـت القنـاع عـلى أنـه الوجـه الحقيقـي؛ ومـن ثـم أخـذت تُمعـن في اسـتخدام العقـل! لكـن لنكـن نحـن أكـثر جذريـة، ونعـول عـلى عقلانيـة المنهـج، ونـدع المذهـب وشـأنه فقـد أشـبعناه نقـدًا في كتابنـا «أقنعـة ديـكارت»، في الوقـت الـذي انتصرنـا فيـه للمنهـج. فديـكارت يصيـب ويخطـئ مثـل أي بـشر، لكـن يظـل المنهـج مـن أهـم منجزاتـه ذات الأثـر في العـصر الحديـث.

إن هـذا المنهـج هـو مـا بقـي مـن ديـكارت حتـى اليـوم، وهـو مـا نحتـاج إلى إعمالـه في حياتنـا، أقـول هـذا عـلى الرغـم مـن أني أعـي أن العقلانيـة الآن أصبحـت أكـثر نضجًـا وتطـورًا، وقـد تجـاوزت مناهجهـا ديـكارت في كثـير مـن الجوانـب. ومـن أسـف نحـن ترجمنـا ديـكارت إلى لغتنـا لكننـا لم نسـتفد مـن عقلانيتـه إلا النـذر اليسـير، ولم نفتـح نوافذنـا لضـوء كافٍ مـن أضـواء العقلانيـة الحديثـة.

والمبـدأ «أنـا أفكـر، إذن أنـا موجـود»، لم يصـل إليـه ديـكارت اعتباطًـا، بـل هـو نتيجـة تجربـة «الشـك المنهجـي» التـي مـر بهـا. وحتـى تكـون الصـورة أكـثر اتضاحًـا أمـام القـارئ، فـإن ديـكارت شـك، واسـتنبط مـن هـذا الشـك أنـه يفكـر؛ لأن الشـك يعنـي أن هنـاك كائنًـا يفكـر، وهـذا يعنـي بالـضرورة أنـه موجـود، وهـذه أول حقيقـة يصـل إليهـا ديـكارت ومنهـا يسـتنبط سـائر الحقائـق: «وجـود اللـه»، ثـم «وجـود العـالم» (حسـب ظاهـر منهجـه لا حسـب مذهبـه الـذي كشـفنا عـن لاهوتيتـه الباطنـة في كتـاب أكاديمـي).

ومـا يعنينـا هنـا هـو منهجـه فقـط الـذي يقـوم عـلى «الشـك المنهجـي»؛ لأنـه أكـبر خطـوة عـلى طريـق الحداثـة عـلى الرغـم مـن أن ديـكارت نفسـه لم يسـتثمره لا في الديـن ولا في السياسـة، لكنـه كان خطـوة ضروريـة جـاء بعدهـا مـن المفكريـن مـن وظفـوه في تكويـن خطـاب دينـي جديـد، وأيضًـا مـن وظفـوه في تجديـد الخطـاب السـياسي.

3- الأفكار القديمة تحت مجهر التفكير المنهجي

ميـزة أبي الأنبيـاء إبراهيـم عليـه السـلام أنـه - قبـل أن يأتيـه الوحـي الإلهـي - مـارس التفكـير المنهجـي، ورفـض الواقـع القديـم بنـاءً عـلى هـذا التفكـير، لكنـه

لم يكتفِ بهذا مثل التفكيكين والشكاك الجذريين وطائفة من الثوريين الذين لا يملكون سوى الثورة على واقع موجود لا تأسيس واقع جديد، ولا يستطيعون إلا الرفض والهدم، لكنهم غير قادرين على بناء واقع بديل، فيكون ضررهم أكثر من نفعهم، بل انطلق عليه السلام بعد الشك المنهجي وهدم القديم، إلى اليقين وبناء واقع جديد.

وكانت الصعوبة كبيرة في المرحلتين: مرحلة الثورة على الواقع القديم، ومرحلة بناء واقع جديد.

والواقع القديم كان صعبًا في زمن إبراهيم، وكان معقدًا في زمن ديكارت. وفي حالة ديكارت نجده درس العلوم الموروثة، ووجد تنازعًا كبيرًا وتناقضات لا حصر لها، وهناك كهنوت وعقائد كنسية مسيطرة، وفرق تعيش في أجواء العصور الوسطى المظلمة، وتيارات متصارعة، وعدد كبير من الفلسفات المختلفة بعدد الفلاسفة، واختلاط بين الأوهام والعقائد والمعارف العلمية.

ووجد ديكارت صعوبة التمييز، فأراد أن يخرج من هذه الحالة المضطربة، وأن يحل التناقض، ويصل إلى المعارف الواضحة والمتميزة من بين هذا الركام الضخم المتلاطم من الأفكار والعقائد في عقله، وهنا سأل نفسه: ماذا لو لدينا «سلة تفاح» مليئة بالتفاح السليم والفاسد؟ أليست تفاحة واحدة فاسدة تستطيع إفساد سلة التفاح كاملة؟ أليست أفضل طريقة للتخلص من التفاح الفاسد هو إخراج كل التفاح من السلة، ثم فحص كل التفاح - تفاحةً تلو الأخرى - ولا نعيد أية تفاحة منها مرة أخرى إلى السلة إلا إذا تيقنّا من أنها سليمة تمامًا؟

وكانت الإجابة: نعم. ومن هنا كان لا بد من طرح كل الأفكار القديمة التي تحشو عقلنا خارج هذا العقل، ثم اختبار وفحص كل فكرة من البداية إلى النهاية حتى نتأكد من سلامة كل فكرة .. الواحدة بعد الأخرى. ولا نقبل بعد ذلك إلا الأفكار الواضحة والمتميزة التي قام البرهان على سلامتها كليةً.

ومما ساعد ديكارت على الشك في كل الأفكار هو افتراض أنه قد يوجد شيطان خبيث ذو قدرة يخدع البشر بتعمد وبشكل منتظم، ونتيجةً لذلك قد لا نفْهَم الكون وأجزاءَه بصورة واضحة، ولا يمكن لنا أن نكون على يقين من المعارف التي نتوصل لها. يقول ديكارت: «سوف أفترض عندئذٍ - ولا أقصد هنا الله الذي هو الخير الأسمى وينبوع الحقيقة - وجودَ شيطان خبيث يتمتع بالنفوذ والخداع قد حشد كل طاقاته لخداعي» (ديكارت، تأملات في الفلسفة الأولى).

وإذا كان ديكارت افترض وجود شيطان يتلاعب بعقله، فهو يعني ذلك «الكائن الغيبي المخادع المضلل»، أما في عصرنا فربما يكون هذا الشيطان هو «إنسان يزعم امتلاك الحقيقة المطلقة» ويستطيع أن يخدع ويتلاعب بالعقول بما يملك من «كاريزما» أو أدوات «سحر العقول»، لا سيما مع عقول تربت على الحفظ والتلقين، والعلم عندها هو حفظ المعلومات وليس إنتاج العلم، والحكم على الناس عندها بالظاهر و«الخَنفة» والتشدق بالألفاظ، وهي عقول رسخت فيها أفكار غير قابلة للحذف أو التعديل بسبب «ماكينة التفكير» التي لم تعرف يومًا طرق التفكير الدقيق! وربما يكون ذلك الشيطان الخبيث الذي يتمتع بالنفوذ والخداع ويحشد كل طاقاته لخداعنا في عصرنا هو الآلة الإعلامية الضخمة التي يتحكم فيها المال الأجنبي فيُمكنها أن تسقط شعوبًا

ودولًا! ومـن هنـا فيجـب ألا نصـدق كل مـا نسـمع أو حتـى نشـاهد؛ فالتلاعـب الشـيطاني لا يمارسـه إبليـس فقـط، بـل انضمـت إليـه جوقـة طويلـة.

وقـد طـرح «ديـكارت» افتراضـه عـن وجـود شـيطان ماكـر بعـد مناقشـاته الثـلاث الأخـرى المهمـة حـول شـك البـشر في معتقداتهـم (أي غيـاب الثقـة، وإمكانيـة الحلـم، وإمكانيـة وقـوع الخطـأ عنـد اسـتخدام التفكـير الريـاضي)، ووصـل بالشـك المنهجـي إلى أبعـد الحـدود. ويشـير ديـكارت في نظريتـه الجذريـة إلى ضرورة «الشـك في كل مـا يمكـن الشـك فيـه»، كـما يـرى أن المعتقـد الوحيـد الـذي ينجـو مـن مكـر الشـيطان هـو وعـي الإنسـان بوجـوده الحـالي، وهنـا قـال قولتـه الشـهيرة: «أنـا أشـك، إذن أنـا أفكـر، إذن أنـا موجـود (cogito ergo sum)»، والتـي تُعَـدّ نقطـة البدايـة لثبـوت المعرفـة.

فهـل يمكـن أن نخـرج كل التفـاح (=الأفـكار) مـن السـلة (=العقـل)، ثـم نعيـد فحـص الفكـرة الواحـدة تلـو الأخـرى؟ ولا نعيـد أيـة فكـرة منهـا مـرة أخـرى إلى عقلنـا إلا تلـك التـي قـام البرهـان عـلى سـلامتها كليـةً؟

أليـس إعـمال العقـل النقـدي دعـوة قرآنيـة أصيلـة في مقابـل العقـل الجامـد الحاضـن لنصـوص القدمـاء والمفـسر لهـا حرفيًـا بعيـدًا عـن الواقـع المتجـدد وبعيدًا عـن النظـر في الآفـاق وفي الأنفـس وفي الكتـاب؟

هل يمكن أن نقوم لله مثنى وفرادى ثم نتفكر؟

هـل يمكـن أن يكـون التفكـير المنهجـي فـرض عـين عـلى كل فـرد بذاتـه في اسـتجابة سريعـة وفوريـة لقولـه تعـالى: (قُـلْ إِنَّمَـا أَعِظُكُـم بِوَاحِـدَةٍ أَن تَقُومُـوا للـهِ مَثْنَـى وَفُـرَادَى ثُـمَّ تَتَفَكَّـرُوا) [سـبأ: 46]؟

أزعم أنه من دون ذلك لا يمكن أن نبدأ عصرًا دينيًا جديدًا.

4- الشك المنهجي للخروج من دوامة التضليل لا من أجل فوضى الأفكار

إن التفكير المنهجي الذي يتبعه ديكارت هو من أجل الهروب من دوامة الخداع والتضليل أيًّا كان احتمال مصدرها، وهو يشك في القديم ليبحث عن يقين جديد، ولذا فإن الشك المنهجي ليس شكًّا مطلقًا من أجل التشكيك المغرِض، واللاأدرية المعرفية، وفوضى الأفكار، وفوضى الواقع، بل كل ما يطلبه هو الدليل الرصين الحاسم ضد منظومة فكرية راسخة في بنية تضليلية متكاملة الأركان! ومن هنا فهو ليس شكًّا مَرضيًّا، ولا شكًّا فوضويًّا، وليس ترددًا بين نقيضين لا ترجيح لأحدهما على الآخر. إنه فحسب خطوة على «طريق» نحو الحقيقة القائمة على الأفكار الواضحة والمتميزة لا على أقوال القدماء ولا سلطة قياس الحاضر على الماضي.

ويجب عدم الخَلْط بين الشك المنهجي والإلحاد؛ فالإلحاد خاص بإنكار العقيدة الدينية، وموقف الملحد هو موقف المنكر بيقين لا موقف المتشكك الباحث عن البرهان المبين. ومن المعروف أن الشك على أنواع؛ أشهرها الشك المذهبي أو المطلق، وهو شك عقيم مرفوض قال به المذهب الشَّكِّي Skepticism، ويتخذ أنصاره الشك منهجًا في التفكير ومذهبًا فلسفيًّا في الحياة؛ فهم يؤكدون عدم إمكانية معرفة حقيقة الأشياء كلها؛ ويؤكدون عجز العقل الإنساني عن معرفة أي أمْرٍ مهما صَغُر معرفة يقينية؛ لأن الحواس عاجزة ولا تقدم لنا الحقيقة، بل المظهر فقط، والحواس غير متفقة فيما بينها في الحكم على الأشياء، وفي أحيان كثيرة تقدم لنا الكبير على أنه صغير مثل الشمس والقمر.

ويختلف الشك المنهجي بوصفه خطوة علمية عن الشك المطلق؛ فالأول مؤقت وهو وسيلة لا غاية؛ لأنه ربما يعقبه التوصل إلى الحقائق، والثاني دائم وتام ودائرة مغلقة. وقديمًا استخدم سقراط وأرسطو - من أجل الوصول إلى المعرفة - نوعًا قريبًا منه في دَحْض شبهات السوفسطائيين القائلة بالنسبية المطلقة.

واستخدم الشك المنهجي كبار المفكرين الدينيين، مثل القديس أوغسطين (ت 430م) الذي مر بمرحلة شكية قبل أن يصل إلى منظومة دينية جديدة بمقاييس عصره.

ويُعد «أبو حامد الغزالي» نموذج الشك المنهجي في الحضارة الإسلامية في كتابه«المنقذ من الضلال»؛ لأنه حدد معالمه، وعايش تجربته كاملة معايشة واقعية، على نحو مؤقت، ثم وصل إلى اليقين على طريقته. وقد سبقت مرحلةُ «الشك المنهجي» عند الغزالي مرحلةَ «إحياء علوم الدين»، وكأن الشك المنهجي مرحلة ضرورية تسبق الوصول إلى مرحلة التجديد، وكأن عنوان هذا الفصل يطل من جديد في متنه (الشك المنهجي وتأسيس عصر ديني جديد).

وفي عصر النهضة الأوروبية كان من أبرز دعاة الشك: الفيلسوف الفرنسي «مونتاني» Montaigne (1533 - 1592م)، وكان له دور في زعزعة اللاهوت والكهنوت. وفي القرن السابع عشر، جاء ديكارت، والشك عنده منهجي وليس مذهبيًا، والشك المنهجي الديكارتي على مستوى المنهج كان شاملًا، لكنه على مستوى المذهب استثنى ما يشاء (الدين المسيحي، الأخلاق، النظام السياسي)، وهنا إحدى نقاط ضعف مذهب ديكارت. ومن قبل الفلاسفة جميعًا استخدمه أبو الأنبياء ضد عقائد قومه حتى تظهر معالم عصر ديني جديد.

ويمكن القول: إن الشك المنهجي موقف علمي رصين، بينما الشك المطلق

موقف متهافت هش يعجز عن تكوين معرفة علمية، ويعكس حالة من التدهور العامة في التفكير. ويمكن بيان تهافُت حُجَج الشكية الجذرية بكل سهولة، لكن يكفي في هذا السياق بيان التناقض الجوهري في أساس موقفها العام؛ ومن ثَم فإن إظهار هذا التناقض يهدم كل الحجج الشَّكِّية المبنية عليه، ومن ثَم تنهار الفلسفة الشَّكِّية كلها. ويتمثل هذا التناقض الجوهري في أن الشكاك الجذريين «موقنون» من أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى علم يقيني. والتناقض هنا «أنهم موقنون» من سلامة موقفهم الشكي من إنكار المعارف اليقينية؛ مع أن موقفهم هذا ينطوي على معرفة يقينية بعدم يقينية المعرفة! فهم يعتبرون موقفهم الشكي «يقينيًّا» على الرغم من أنهم ينكرون المعرفة اليقينية! (أزعم أن هذه حجة جديدة ضد الشكية الجذرية).

وليس معنى هذا النقد في تصوري أن القرآن يرفض الشك بكل أنواعه ومستوياته، إنه يرفض فقط الشك بصفته مذهبًا شاملًا ومتكاملًا وجذريًّا، لكنه يدعو إلى الشك المنهجي بصفته مرحلة من مراحل التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة. ويتجلَّى هذا بوضوح في عرض القرآن الكريم لقصة إبراهيم عليه السلام.

إذن لا يوجد في الشك المنهجي أي تثريب في القرآن الكريم على مَن يفعله، بل هو موضع تبجيل وتقدير شديدين باعتبار ذلك خطوة على طريق موصل إلى الحقائق؛ حتى لا يظل الإنسان مغفلًا أو غافلًا. ولست بحاجة إلى أن أذهب بعيدًا؛ فالقرآن واضح جدًّا ومباشر في هذا الأمر، أليس هو كتابًا جاء بِلِسَان عَرَبِيّ مُبِين؟ ألم يقل الله عنه: (قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ {5/15})[المائدة: 15]؟

فما هو إذن هذا الموقف المبين الذي أوضحه القرآن الكريم من التفكير

المنهجي. ولماذا يعد الشك في القديم إحدى خطواته الضرورية التي تسبق الخطاب الديني الجديد؟

5- طرق الخروج من حالة الشك المنهجي

في التفكير الديني المنضبط الذي يلح عليه القرآن الكريم، وأيضًا في التفكير العلمي الدقيق الذي تقدمه لنا مناهج البحث العلمي، يكون الخروج من حالة الشك المنهجي، بدليل عقلي برهاني أو بدليل استدلالي تجريبي أو سلطان حسي مبين، وليس بقول «ولي» أو «داعية» أو «أمير جماعة».

مرة أخرى نجد أمامنا تجربة أبي الأنبياء إبراهيم في رفض وصاية البشر وفي عدم الاحتجاج إلا بدليل عقلي برهاني أو بدليل استدلالي تجريبي أو بسلطان مبين من الوحي أو الحس، فعندما أراد كبار القوم والكهنة فرض وصايتهم عليه، شككه عقله في معتقداتهم المستقرة، ورفض ذهنه رؤيتهم للعالم التي تنسب العلل إلى غير مصدرها، ولم يستطع أن يهضم فكرة الأصنام أو تأليه مظاهر الطبيعة أو تأليه البشر أو الحاكم.

لكنه لم يقف عند هذا الشك على أنه أمر نهائي، مثل أتباع مذهب الشك في العصر الهيلينستي، وإنما واصل السَّعْي نحو الحقيقة، وبالفِعْل وصل إليها حينما أدرك أن هناك إلهًا واحدًا لا شريك له، منزهًّا عن كل ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه.

فالتفكير المنهجي في القرآن الكريم فرض عين، والخطأ يظهر زيفه بإعمال العقل والاستناد إلى دليل يقيني من الوحي أو الواقع الخارجي، وليس بسلطة الماضي ولا سلطة الكهنة ولا الظواهر الصوتية التي تنعق ليل نهار.

انظر كيف يتحدث القرآن ولا تزد عليه شيئًا من عندك أو من عند الكهنة:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ {6/74} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {6/75} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ {6/76} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ {6/77} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ {6/78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {6/79} وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ {6/80} وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {6/81} الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ {6/82} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {6/83}) [الأنعام: 74 - 83].

لاحظ هنا ديالكتيك العقل والاستدلال التجريبي وهداية الوحي، ولا تدخل في جدال عقيم مثل ذلك الجدال الذي صنعه بعض علماء الدين وبعض فلاسفة العصور الوسطى: مَن قبل مَن: الوحي أم العقل؟ الفرخة أم البيضة؟!

إنه ديالكتيك متفاعل متبادل (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ {29/69}) [العنكبوت: 69]، (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء

فَلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)[البقرة: 144]. وفي الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» (حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وغيرهما مع اختلاف في اللفظ).

المهم أن إبراهيم عليه السلام شك في عقائد قومه، وتوصل إلى عقيدة التوحيد الإلهي، ومن معاني التوحيد عدم إشراك أحد مع الله في علاقتي به، فعلاقتي به مباشرة دون وسيط من بشر أو كهنوت أو غيرهما، وهو وحده الذي يملك الحقيقة المطلقة، وهو وحده الذي يفصل بين عباده. ومن هذه العقيدة التوحيدية الخالصة يخرج تصور كامل للعالم، بعيدًا عن الرؤية السحرية أو الخرافية أو الشركية بكل أنواعها، فليس الشرك فقط هو عبادة غير الله من أصنام أو أوثان أو بشر أو ظواهر طبيعية، بل الشرك أيضًا أن أضع الكهنة وسطاء بيني وبين الله تعالى، أو بيني وبين الحق والحقيقة؛ فالله هو الحق وكتابه هو الحقيقة.

وتحرير الإيمان من الشرك يستلزم رفض الوسطاء، وهنا يكمن أحد أهم مداخل تكوين خطاب ديني جديد. فلقد رفض إبراهيم سلطة الكهنة والمتحدثين باسم الألوهية، وهنا وجد الحقيقة الإلهية وجهًا لوجه. وبعد أن وصل إلى حقيقة "وجود" الله عن طريق ديالكتيك التفكير المنهجي، والهداية الإلهية، والشك في عقائد قومه ورؤيتهم للعالم، ونظره في الوقائع الخارجية التجريبية، بقيت عنده مسألة قدرة هذا الإله سبحانه، يقص القرآن ذلك بوضوح:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن

لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {2/260}) [البقرة: 260].

انظر كيف يريد إبراهيم عليه السلام أن يؤسس إيمانه على يقين تجريبي، وانظر إلى أتباع دعاة الضلال والتضليل الآن: كيف يأخذون من زعمائهم أخذ التسليم المطلق دون تمحيص ودون مناقشة؛ فالمسألة عندهم مسألة ثقة عمياء، ومسألة عصبية فكرية، فالعصبية تحولت معهم من عصبية الدم والقبيلة إلى عصبية الأيديولوجية والجماعة!.

6- من إحكام قيادة العقل إلى إحكام رؤية العالم

لا تكمن عظمة دعوة إبراهيم فقط في «العقائد» التي آمنت بها ودعت إليها، وإنما أيضًا في «طريقة البحث» عن الحقيقة، ومن دون «منهج» إحكام قيادة العقل الذي اتبعه عليه السلام لم يكن ممكنًا الوصول إلى تلك «الرؤية للعالم».

كيف؟

من أكثر الأمور الجاذبة لي في إبراهيم عليه السلام أنه صاحب عقل منضبط، لا يؤمن إلا بدليل من الوقائع الخارجية التجريبية، مثل حالة: (قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) [البقرة: 260]، أو بدليل من الاستدلال العقلي المسنود بالتدبر في الظواهر الكونية: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ {6/75}) [الأنعام: 75]، أو بحجة عقلية خالصة:

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ {21/66} أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {21/67}) [الأنبياء: 66 - 67].

أضف إلى ذلك قدرته على إبطال مغالطات أصحاب العقول العنكبوتية (ومثلهم كثير في عصرنا)، من أقصر طريق وفي كلمات قليلة. وهذا نجده، علاوة على ما سبق من حججه ضد قومه، في ذلك النقاش الذي دار بينه وبين ذلك الملك الواهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {2/258}) [البقرة: 258].

انظر مرة أخرى إلى الفرق بين طرق الحجاج التي يوظفها إبراهيم ضد المغالطين، وطرق الحجاج التي ينتهجها المتحدثون زورًا باسم الحقيقة الإلهية في عصرنا، انظر كيف يُعمل إبراهيم أدوات ومناهج الاستدلال العقلي والتجريبي، وكيف يُعمل الواهمون في عصرنا أدوات ومناهج النقل غير الدقيق والحفظ والتسليم المطلق بأقوال السادة قادة «الحقيقة المطلقة»!

لقد رفض إبراهيم النقل والتقليد وهو في ريعان الشباب، وحاج قومه حجاجًا عقليًّا خالصًا، بينما ردوا عليه بحجاج نقلي موروث، إبراهيم يستند إلى البرهان العقلي وهم يستندون إلى البرهان النقلي، انظر قصته مرة أخرى من «كادر» مختلف يلتقطه القصص القرآني: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ {21/52} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ {21/53} قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {21/54} قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ {21/55} قَالَ

بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ {21/56} وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ {21/57} فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ {21/58} قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ {21/59} قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ {21/60} قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ {21/61} قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ {21/62} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ {21/63} فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ {21/64} ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ {21/65} قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ {21/66} أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ {21/67}) [الأنبياء: 52 - 67].

وهكذا فإن «منهج» أبي الأنبياء منهج منضبط. ومن أسف فإن الكثيرين يخلطون بين المنهج والمذهب، أو بين المنهج والعقيدة، ويقع في هذا عدد غير قليل من العلماء والمفكرين أنفسهم! ولذا لا بد أن نحدد المعنى الذي نقصده بالمنهج Method. المنهج عبارة عن «مجموعة من القواعد والفرضيات والإجراءات والأمثلة لتحديد مدى وحدود الموضوع وإنشاء طرق مقبولة للعمل ضمن هذه الحدود للوصول إلى الحقيقة truth»، أو بعبارة أبسط: «المنهج هو الطريقة التي نسير عليها وفق قواعد ومعايير للانتقال من المجهول إلى المعلوم ومن الشك إلى المعرفة». يقول ديكارت: «ما أقصده بكلمة (المنهج) هو تلك القواعد التي يُعَوَّل عليها ويسهل تطبيقها، وأنه في حال اتباع هذه القواعد بواسطة الفرد على نحو صحيح، فإن الفرد لن يقبل ما هو زائف على أنه صحيح، ولن يبدد جهوده الذهنية، بل سينجح في زيادة معارفه تدريجيًّا وباستمرار حتى يصل إلى فهم صحيح لكل شيء في نطاق قدرته».

فالمنهج ببساطة هو الوسيلة، هو الطريقة، هو الخطوات التي يجب أن يتبعها التفكير، هو القواعد التي يجب اتباعها للوصول إلى نتيجة صحيحة. إنه أسلوب الاستدلال، هو السنارة وليس السمكة، بل هو أكثر من السنارة؛ إنه الفن أو الطريقة التي تستخدم بها السنارة. ليس الطعام الجاهز الذي تأكله، ولا المواد التي صنع منها الطعام، ولكنه «طريقة» الصنع نفسها. ليس السيارة، ولكنه فن القيادة. معك سيارة رائعة ومع صديقك سيارة رائعة أيضًا، أنت تقود بفن وقواعد وخريطة سليمة للطريق في ذهنك فتصل إلى هدفك، وصديقك يقود برعونة أو بخريطة أو قواعد خاطئة فيضل الطريق.

والخلاصة: إذا أردنا أن نوصّف «منهج» أبي الأنبياء نجده قائمًا على شك منهجي في البداية، ثم استدلال عقلي محكم مستند إلى ظواهر كونية تارةً، ومستند إلى دليل من (وقائع تجريبية) تارةً أخرى، ومستند إلى حجة عقلية برهانية تارةً ثالثة، والوحي في كل مرة حاضر مثل الضوء الذي ينير الطريق أمام العقل والحواس والبصيرة.

لكل هذا لن ندخل عصرًا دينيًّا جديدًا من دون إصلاح مناهج التفكير لإحكام قيادة العقل نحو الصواب.

7- الحقيقة وحدها لا تكفي!

إن مشكلة اضطراب «الإدراك العام» عند جماعات التطرف غير منفصلة عن مشكلة الإدراك الديني، وغير منفصلة أيضًا عن مشكلة الإدراك السياسي، كلها محكومة بعقل «منفصل» عن الواقع! وفي أحيان كثيرة تحمل

عقلًا منفصلًا عن التاريخ وتجاربه، ولا تتدبره حتى في «الوحي الإلهي العظيم» الذين يزعمون اتباعه!.

وإذا أردنا تجديدًا دينيًا يحل «مشكلة الإدراك العام» ويرفع «العدسات المضللة» التي يرى العقل من خلالها، لا بد من تغيير «ماكينة التفكير» أولًا! لا بد من تعليم الناس ليس المعلومات الصحيحة فقط، ولكن أيضًا تعليمهم طريقة التفكير السليمة، وتدريس مناهج التفكير.

ومن الضرورة بمكان إعادة بناء المواد العلمية المختلفة: الرياضات، الفيزياء، الكيمياء، الأحياء... إلخ، على أساس: «كيف تم التوصل إلى الحقائق والنظريات؟»، وعلى أساس الشك العلمي المنهجي، وليس على أساس تلقين الطلاب الحقائق «جاهزة ومعلبة»! والأمر في تعليم العلم الرياضي والطبيعي هو نفسه الأمر في تعليم الدين والعلوم الشرعية؛ فالقرآن الكريم لم يعطنا الحقائق جاهزة، بل عللها، وحثنا على تعقلها وفق قواعد التفكير المنضبط، بل حثنا على اكتشافها بأنفسنا سواء في النفس أو في الأرض أو في الآفاق.

ومن نماذج الإيمان الدالة على هذا المعنى التي قدمها القرآن الكريم نموذج إبراهيم خليل الرحمن، فما من حقيقة كبرى في دعوته إلا ومعها «طرق التوصل إليها»!

فالحقيقة وحدها لا تكفي، بل لا بد من معرفة المنهج الذي أوصل إليها. والعلم ليس سوى المعلومات عند أهل الحفظ، أما أهل العلم فالعلم عندهم ليس المعلومات فقط، وإنما العلم هو المنهج، هو الطريقة، فالمنهج هو ما يصنع العلم وهو ما يصنع العلماء، وهذا هو ما نحتاجه ليس فقط لتأسيس عصر ديني جديد، بل كذلك لتأسيس عصر علمي جديد. ولذا تُدرس مناهج

التفكير الدقيق في كل مراحل التعليم في مقررات الدول المتقدمة، سواء بكونها جزءًا من كل علم، أو بكونها مقررًا منفصلًا.

ومع أن ديكارت صار قديمًا تجاوزته المناهج المعاصرة، لكن قواعد منهجه لا تزال عاملة كقواعد عامة ضمنية، فلا يزال التحليل خطوة لا يمكن للعلم أن يقفز عليها، وقل مثل ذلك في إعادة التركيب والمراجعة والإحصاء، وقبل ذلك كله ألا يقبل العقل إلا ما كان واضحًا ومتميزًا. وأيضًا على الرغم من أن دعوة إبراهيم موغلة في القدم، لكن الإسلام تضمنها وترجمها ترجمة صحيحة في العقول، فظهرت معه لتكون دعوة للتوحيد والتفكير والانضباط العقلي وإلوهية تَسَعُ العالَمينَ. أما الجناح الآخر من نسل إبراهيم فقد ترجمها ترجمة خاطئة فتحولت معه إلى ديانة قبيلة بني إسرائيل، وعقيدة شعب الله المختار، وفي العصور الحديثة تحولت إلى صهيونية بغيضة.

إن المنهج عند ديكارت، ليس تجريبيًّا، لكن ميزته أنه يرفض التسليم - على الأقل في حدود المنهج وليس المذهب - بأقوال السابقين غير المبرهنة، مثله في ذلك مثل إبراهيم، ولا يقبل إلا ما كان واضحًا ومتميزًا، مثله في ذلك أيضًا مثل إبراهيم، ويقوم بتحليل الفكرة أو الأفكار، ويسير من البسيط إلى المركب، ثم يراجع كل ما قام به من خطوات سابقة حتى يتأكد أنه لم يخطئ وأنه لم يغفل شيئًا. ففي كتابه «مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم» يضع أربع قواعد يجب مراعاتها في كل منهج يبحث عن الحقيقة، وتكفي هذه القواعد، إذا ما تم اتباعها بدقة، للوصول إلى اليقين. وتُعرف هذه القواعد على التوالي باسم: البداهة، التحليل، التركيب، الإحصاء والمراجعة. ويحدد ديكارت مضمون هذه القواعد الأربع بقوله:

«الأول: ألّا أقبل شيئًا ما على أنه حق، ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك.

الثاني: أن أقسم كل موضوع من الموضوعات التي سأختبرها، إلى أجزاء على قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه.

الثالث: أن أسير أفكاري بنظام، بادئًا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة؛ كي أتدرج قليلًا حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيبًا، بل وأن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع.

والأخير: أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أني لم أغفل شيئًا».

إن هذا المنهج أو القواعد العقلية لليقين يمكن تعريفها بوصفها أساسًا للتطور والحداثة وإنتاج معرفة علمية أدت إلى زعزعة عرش المعرفة اللاهوتية والكهنوت والأسرار التي يحتكرها سدنة الفكر الديني المزيف.

فالغرب لم يدخل العصور الحديثة إلا بعد أن تغيرت «ماكينة التفكير» التي يفكر بها البشر، أي تغيير المنهج، أي تغيير الطريقة والقواعد التي يعمل بواسطتها العقل ليس في المعامل فقط، ولكن أيضًا في الشارع والمؤسسات، من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل.

وليس هذا تراثًا غربيًّا خالصًا، بل هو تراث إنساني عام، وهو أيضًا تراث ديني تم رصده في دعوة أبي الأنبياء خليل الرحمن، واستمر مع محمد ﷺ.

الفصل الثاني

تفكيك الخطاب الديني التقليدي

1. تفكيك من أجل «تطوير» علوم الدين لا «إحياء» علوم الدين.
2. تفكيك الخطاب الديني .. بأي معنى؟
3. نقد تفكيكية ما بعد الحداثة.
4. تفكيك المرجعيات المغلقة للوصول إلى الدين في حالته البسيطة الأولى.
5. تفكيك المعاني المزيفة والأسطورية للنص المركزي.
6. ضياع المعنى والعقل في التيارات الدينية المغلقة وحركات ما بعد الحداثة.

الفصل الثاني

تفكيك الخطاب الديني التقليدي

1- تفكيك من أجل «تطوير» علوم الدين لا «إحياء» علوم الدين.

من أسف أن حركة الإصلاح الديني التي ظهرت مع مطلع العصور العربية الحديثة، لم تنتج علومًا جديدة ولا واقعًا جديدًا، بل استعادت عصور الشقاق وحرب الفرق العقائدية والسياسية التي ضربت الأمة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه. ولن أدخلك عزيزي القارئ في جدال نظري عقيم حول الفشل الذريع الذي أنجزته حركة الإصلاح المدعاة، لكن سأقول لك شيئًا واحدًا، هو «من ثمارهم تعرفونهم»، وهنا أسألك ما ثمار دعاة ورواد تلك الحركة بعد مرور ما يقرب من قرن ونصف على ظهور طلائعهم الأولى؟

ثمارهم كما ترى أمة تتكالب عليها الأمم، والجديد مع حركة الإصلاح الديني الحديثة منذ القرن التاسع عشر أنها أنتجت أجيالًا وجماعات وفرقًا من المسلمين تتكالب من الداخل على أمتها ووطنها، وهم شركاء أصليون في حالة الضعف التي تعيشها، وهم فاعلون بامتياز في بذل الوسع في هدم المعبد على كل من فيه من خصومهم ومن أنفسهم!.

وربما يكون من أهم أسباب ذلك غياب العقلانية النقدية، على الرغم من أن العقلانية النقدية في جوهرها هي التي قامت عليها دعوتنا منذ إبراهيم عليه السلام، وهي العقلانية التي دعا إليها القرآن الكريم وقام عليها الشرع، والقارئ ليس بحاجة إلى أن أُعَدِّد له آيات القرآن وأقوال النبي الصحيحة التي دعت إلى استخدام العقل والتي قامت عليها حضارتنا قبل أن تتحول إلى عصور المتون والشروح والحواشي.

لكن مع الأسف مجددًا تصور المتأخرون العقل على أنه «العقل النقلي» لا «العقلي النقدي»! وهنا ظهر التطرف، وتجمد الخطاب الديني كما توقف الاجتهاد في علوم الدين، حيث المعالجة النقلية للعلوم، وحيث المعالجة الإنشائية المفرطة في الخطاب الشفهي والمكتوب. وظن المتأخرون أن هذه العلوم إلهية مقدسة، لا يكون التعامل معها إلا بالحفظ، وأن تصبح عالمًا هو أن تحفظ المتون وتقرأ الحواشي!.

إن العلوم التي نشأت حول الدين علوم إنسانية تقصد إلى فهم الوحي الإلهي، فالقرآن إلهي لكن علوم التفسير والفقه وأصول الفقه وعلوم مصطلح الحديث وعلم الرجال أو علم الجرح والتعديل... إلخ، علوم إنسانية أنشأها بشر، وهي قابلة للاجتهاد والتطوير والتطور، وهذه مسألة واضحة وليست اكتشافًا، لكن المتعصبين الذين تجمد معهم كل شيء، رفضوا الاجتهاد وتمترسوا خلف التقليد. وهم لا يعرفون - ولا يريدون أن يعرفوا - أن من المنطق الفاسد والخطل الزعم بأن أية علوم بشرية هي مبادئ وقواعد يقينية مطلقة تصلح لكل زمان ومكان. فالبشر ذوو عقول نسبية متغيرة، والحقيقة تتكشف تدريجيًّا ولا تأتي دفعة واحدة إلا من خلال «وحي»، بل إن الوحي

نفسه جاء منجمًا عبر ثلاث وعشرين سنة، وترك مساحة للجهد البشري في اكتشاف الحقائق والوقائع .. (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [العنكبوت: 20]، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) [العنكبوت: 69]، والآيات ليست في الكتاب المقروء فقط، بل في الآفاق والأنفس أيضًا (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[فصلت: 53]، والآيات ليست «كلمات» و«ألفاظ» تُتلى فحسب بل «وقائع» و«قوانين» يُبحث عنها وتُكتشف في الأرض والأنفس (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ {51/20} وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ {51/21}) [الذاريات: 20 - 21]، كما أن الآيات «سنن» و«عبر» تُكتشف في التاريخ (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ) [الروم: 42].

إن الوحي الإلهي بالنسبة إلينا نجده في الكتاب. وهذا الكتاب هو الكتاب الإلهي بالمعنى الواسع (الكتاب المقروء «القرآن» مُبَيَّنًا بالسنة الصحيحة، وهو أيضًا الكتاب المشاهد «السموات» و«الأرض»، وهو أيضًا «التاريخ» و«الأنفس»)؛ فكلها تشتمل على آيات إلهية كما نص القرآن الكريم. ومن ثم فإن على الإنسان أن يسعى لمعرفة الحقيقة بالبحث في الكتاب، والكون، وفي التاريخ والنفس، مستخدمًا مناهج البحث العلمي سواء في العلوم الطبيعية والرياضيات أو العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهي علوم - مرة أخرى - متغيرة ومتطورة بتطور الجهد والاجتهاد البشري.

ولذا فإن تجمد العلوم التي نشأت حول النص الديني بَعُدت عن مقاصد هذا النص، وحولته من نص «ديناميكي» يواكب الحياة المتجددة إلى نص «إستاتيكي» يواكب زمنًا مضى وانتهى! واستمر الوضع هكذا على الرغم من

التغيرات الجذرية التي حدثت في الواقع وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية. وعندما ظهر دعاة الإصلاح لم يقم أي منهم بمحاولة «تطوير علوم الدين»، بل قاموا «بإحياء علوم الدين» كما تشكلت في الماضي، ولم يقوموا بالعودة إلى الكتاب في نقائه الأول، بل عادوا إلى المنظومة التفسيرية التي أنتجتها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية لعصور غير عصورنا، ومن هنا استعادوا كل المعارك القديمة: معارك التكفير، ومعارك الهوية، ومعارك فقه الحيض والجنس والجسد، ومعارك التمييز بين الجنسين. ولم يدخلوا المعارك الجديدة: معارك التنمية، ومعارك إنتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية، ومعارك الفساد، ومعارك الحرية، ومعارك الفقر والجهل والأمية، ومعارك الدفاع عن الدولة الوطنية.

ومن هنا فإن تفكيك الخطاب التقليدي والبنية العقلية التي ترقد وراءه، بات ضرورة ملحة، لا من أجل «إحياء» علوم الدين؛ بل من أجل «تطوير» علوم الدين.

لكن التفكيك بأي معنى؟

2- تفكيك الخطاب الديني .. بأي معنى؟

إن الدين نفسه لا يتجمد، لكن الذي يتجمد هو عقول فسرت النصوص القرآنية والنبوية الواضحة والمباشرة، بأيديولوجيات عقيمة تجمدت معها المنظومة العقائدية والتشريعية في كهنوت بشري يتخفى في ثوب إلهي!

وهنا لا بد من تفكيك الفكر الإنساني المتصلب والمتقنع بأقنعة دينية؛ حتى يمكن كشفه أمام نفسه وأمام العالم. وهذا التفكيك ليس للدين نفسه

وإنما للفكر الإنساني الديني الذي نشأ حول «الدين الإلهي»، وصنع أنساقًا ومذاهب متضخمة مثل قصور من الخرسانة لكنها تقف على الرمال، وتنتظر من يحرك تلك الرمال حتى ينهار ما فوقها.

وعملية الانصهار أو التفكيك التي نتحدث عنها ليست على طريقة التفكيكيين الجذريين، مثل جاك دريدا، وإنما هي عملية تفكيك من أجل إعادة البناء على أرض نظيفة. فالتفكيك المرفوض هو الذي لا يعيد البناء؛ وهو التفكيك من أجل التفكيك، ونتيجته لا محالة هي الفوضى التي يريدها أعداء الإسلام والوطن سواء من الخارج أو من الداخل.

إن رفع الأنقاض ليس غاية، ولكنه وسيلة. ومأساة التفكيكيين الغربيين، ومن تبعهم من التفكيكيين العرب، أنهم يتخذون من عملية التفكيك نفسها منهجًا وغايةً! وهذا هو الفرق بين التفكيك المنهجي الذي ندعو إليه من أجل إعادة البناء وتجديد «أمر الدين» والتفكيك المذهبي المطلق الذي لا يدرك أنه يساهم في استمرار الفوضى الذهنية التي تسيطر على الساحة الفكرية والدينية والسياسية.

ومن دون التفكيك المنهجي لا يمكن الخروج من تلك الحالة من التجمد التي تسيطر على الخطاب الديني التقليدي منذ قرون طوال، ليس فقط فوق منابر الإعلام والوعظ، وإنما أيضًا فوق منصات تدريس العلم والبحث في العلوم الشرعية والإنسانية.

فما حدث في تاريخنا المتأخر أن تلك العلوم تجمدت؛ حيث كان جهد المتأخرين هو الشرح والتلخيص والمتون والحواشي، أما تطوير العلوم الشرعية فقد أصبح بدعةً وضلالًا، وهذا معناه التوقف عن الاكتشاف

والاستنباط والاجتهاد وإعادة الاجتهاد، ومعناه النقوص عن الأوامر الإلهية، ومعناه توقف التاريخ، ومعناه وأد مقاصد الوحي!

والسؤال: هل يمكن أن تستفيد عملية التفكيك العقلي للمنظومات الفكرية المتجمدة من عمليات شبيهة في الفيزياء؟ وهل يمكن أن يتجدد الخطاب الديني وتتطور العلوم الشرعية وهي في الوضع الذي هي عليه من التجمد؟

بطبيعة الحال أن معالجة التجمد في الفكر العلمي أو الديني لا يختلف كثيرًا عن معالجة التجمد في الطبيعة؛ فالمادة الصلبة أو المتجمدة عصية على إعادة التشكيل وغير قابلة للتطور دون تحويلها إلى مادة سائلة. والتجمد مصطلح فيزيائي يطلق على الحالة الصلبة للمادة عندما تتحول من حالة سائلة إلى حالة صلبة، وحالة مثل هذه أصابت الفكر الديني، لا بسبب من الدين نفسه، ولكن بسبب العقول التي تجمدت عند حدود التقليد؛ فالتقليد هو درجة الحرارة المنخفضة التي يتحول معها الفكر من «حالة مرنة ديناميكية» تأخذ شكل الواقع المتجدد إلى «حالة صلبة متجمدة» تأخذ شكل الواقع القديم المنتهي وتعاند الواقع الجديد والمتجدد، مثل الماء الذي تحوله البرودة إلى ثلج متجمد يناسب الإناء الذي تجمد فيه ولا يناسب إناءً جديدًا له أبعاد مختلفة. ومن الواضح أنه لا يمكن له أن يناسب هذا الإناء الجديد دون إعادة تفكيكه أو انصهاره أو تذويبه وتحويله إلى سائل مرة أخرى. فالسائل هو الذي يأخذ شكل الإناء، ولأنه سائل فإنه يتشكل بشكل جديد إذا وضع في إناء آخر.

والدين مثل الماء، الماء سبب للحياة المادية، والدين سبب للحياة الروحية، درجة الحرارة المنخفضة تحول الماء إلى مادة صلبة، والتقليد يحول

الفكر الديني إلى قصر من الخرسانة المتجمدة لكنه يقف على أقدام فخارية، الماء لا يمكن أن يُشرب ويرتوي منه الجسد دون أن يتحول إلى سائل مرن، والدين لا يحيي روح الإنسان ويُصلح الواقع المتجدد دون أن يكون الفهم الإنساني له متجددًا دومًا.

ومع أن التجمد حالة تحفظ الطعام من الفساد وتحميه من تكاثر الفطريات والبكتريا وتوقف التفاعلات الكيميائية مثل الأكسدة والتحلل والإرجاع، لكن التجمد في الفكر الديني أمر مختلف، فهو يؤدي إلى أكسدة الحياة وتحلل المجتمع بحكم زيادة الفطريات والبكتريا العقلية التي تضرب كل شيء! فربما يحمي التجمد الطعام أو المادة، لكنه في الفكر ينتج آثارًا سلبيةً تفسد كل شيء. وفي حالة مثل هذه لا يمكن أن يتجدد الخطاب الديني، كما لا يمكن أن تتطور علومه.

فالتجمد إذا كان مفيدًا في الطبيعة في بعض الأحوال، لكنه ضار بالدين والفكر في كل الأحوال. والحل هو أن نقوم بحالة تشبه ما نفعله مع «المادة الصلبة» في الفيزياء، فنحن لا يمكن أن نحول الماء المتجمد إلى الحالة السائلة التي ينتفع بها الجسد دون أن نلجأ إلى عملية «الانصهار»، إن الفكر الديني الذي تجمد بحاجة لعملية مثل هذه، وهو ما يطلق عليه عملية التفكيك.

3- تفكيك ينقد البشري ولا يتنكر للإلهي

إنك لا تستطيع أن تبني بناءً جديدًا على بناء قديم. هذه مسألة بديهية، ومع ذلك لا أدري لماذا يتجاهلها أغلب دعاة التجديد؟! إن الأمر يبدو واضحًا: لا بد قبل الشروع في تكوين وبناء خطاب ديني جديد، أن نقوم

أولًا بعملية تفكيك علمي للخطاب الديني القديم الذي أوصل أمتنا إلى ما وصلت إليه من خلل في التصورات والرؤى الحاكمة، ليس للوجود والعالم فقط، وإنما للواقع المعيش وحركة التاريخ ومنطق التقدم، وما ترتب على ذلك من اضطراب القيم الحاكمة للسلوك في الحياة اليومية والحياة العامة.

فعملية التفكيك لا بد أن تسبق عملية إعادة البناء، لكنه - مرة أخرى - ليس تفكيكًا على شاكلة المشككين الذين يساهمون في استمرار عملية السيولة التي تهدد الأوطان، وليس تفكيكًا عدميًّا مثل ذلك التفكيك المروع الذي حدث مع جاك دريدا ورفاقه في مرحلة ما بعد الحداثة التي تنكرت لكل مرجع، وألغت كل جوهر، ودعمت اللامركزية والتشظي.

بينما التفكيك الذي ندعو إليه هو النقد والتحليل العقلاني الذي يتمركز حول العقل المعياري، ولا ينكر الحقيقة الموضوعية، بل يدعو إلى اكتشافها، ولا ينكر وجود قيم مطلقة، بل يتحرى في الوصول إليها بمعايير علمية صارمة. ولا يتنكر للإلهي، بل يقصد إليه شعوريًّا في عملية توحيد خالية من الشرك ليس في العقيدة والعبادة فقط، بل في المعاملات والحياة أيضًا، ومن ثم تمييز «الإلهي» عن «البشري» في الفكر والعلوم، ونزع القداسة الإلهية عن المرجعيات البشرية التي تنتحل الصوت الإلهي وتتحدث باسم الحقيقة المطلقة. ومن دون هذه العملية لن يمكن إعادة فتح باب الاجتهاد والتجديد الحقيقيين.

إن النزعة التفكيكية الجذرية، مثل النزعة العدمية، تزعزع أسس العلم والفكر العقلاني الذي يقوم على مفهوم «المركز الثابت للفكر» مثل (المعنى) أو (الذات) أو (الحقيقة) أو (فكرة السببية).

ولهذا، فإن التفكيكية الجذرية خطر، ليس على الدين فحسب، بل على العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية والاجتماعية؛ فالعقل الإنساني لا يمكن أن يصنع «علمًا» دون أن يكون له مركز أو فكرة حاكمة.

وهذا ما تنبه إليه «كانط» فيلسوف الإيمان العقلاني وكبير الفلاسفة الحداثيين، والذي شق طريقًا ثالثًا بين التجريبية الحسية والعقلانية الصورية، وأنقذ العلم كما أنقذ الإيمان، بمبدأ واحد هو «فكرة الله» اعتبار ذاك مركزًا للعقل؛ فهي تساعد على تجميع وتنظيم عمليات الفكر في نظام واحد له مرجعية كبرى توحده توحيدًا أكبر، وهذه المرجعية الكبرى هي علة نهائية لامشروطة، أي ليست معلومة لغيرها، أي الله. وهذه العلة اللامعلولة (أي لا علة لها) تقوم بتنظيم أفكارنا في نظام واحد، لأنها تقدم لرجل العلم خلفية من المعقولية والوحدة لا بد أن يكون عليها «العالَم» إذا ما أردنا تكوين قوانين ونظريات علمية عنه ذات طابع شامل متكامل موحد.

وكما تقوم «فكرة الألوهية» بدور معرفي تنظيمي توحيدي ضروري للعلم، فكذلك شأن «فكرة النفس» و«فكرة العالَم»؛ ففكرة «النفس» تبدو على أنها «الموضوع المشترك» الذي تستند إليه في النهاية الظواهر الباطنة؛ إذ لا بد معرفيًّا من افتراض «ذات» تقف خلف جميع «الأحوال الشعورية»، كما أن فكرة «العالَم» تبدو على أنها مجموع الظواهر؛ إذ لا بد معرفيًّا كذلك من افتراض أن هناك «كُلًّا غير محدود» ترتد إليه الظواهر الجزئية. يقول كانط: «لا يوجد للأفكار المفارقة أي استخدام بنائي على الإطلاق .. لكنْ لها من جهة أخرى استخدام تنظيمي جيد وضروري لا يمكن الاستغناء عنه، وهو إرشاد الفهم إلى غاية محددة، وحتى تتجمع الخطط الموجهة لكل قواعد الفهم في نقطة

واحـدة صالحـة أو مناسـبة لإمـداد تصـورات الفهـم بأكـبر وحـدة وأكـبر اتسـاع ممكـن»، وهـي نقطـة بـؤرة مركزيـة توجـد خـارج حـدود التجربـة الممكنـة تمامًـا. وهـي بـؤرة لا يمكـن الاسـتغناء عنـه حينـما نريـد أن نـرى الموضوعـات البعيـدة وراء ظهورنـا بالإضافـة إلى الموضوعـات القريبـة مـن بصرنـا. ومـا يسـعى العقـل إلى تحقيقـه هـو تنظيـم المعرفـة؛ أي ترابطهـا طبقًـا لمبـدأ تنظيمـي للعقـل يعطـي وحـدة أكـبر مـن تلـك التـي يصـل إليهـا بالفعـل الاسـتخدام التجريبـي للفهـم.

إذن فحاجـة العقـل إلى «مركـز» ليسـت مجـرد حاجـة إيمانيـة، بـل حاجـة علميـة لتنظيـم المعرفـة حـول مبـدأ يعطـي لهـا وحـدة لا يمكـن أن تقدمهـا التجربـة وحدهـا.

مـن الواضـح هنـا أننـا دخلنـا في هـذا الاسـتطراد؛ حتـى نبـين زيـف التفكيكيـة الجذريـة عندمـا ترفـض مفهـوم «المركـز الثابـت للفكـر»؛ فالعقـل الإنسـاني بـلا مركـز لا يصـل إلى وحـدة تنظيميـة لمعارفـه، ومـن دون هـذه الوحـدة لا يمكـن أن يقـوم العلـم بقوانينـه ونظرياتـه؛ فالقانـون هـو «وحـدة وتوحيـد» لظواهـر جزئيـة مشـتتة، وكل قانـون يفـترض قانونًـا آخـر أعـلى وأشـمل منـه. وأتصـور أن هـذا هـو المبـدأ نفسـه الـذي يقـوم عليـه الإيمـان مـن رد الكـثرة إلى الوحـدة.

4- تفكيك المرجعيات المغلقة للوصول إلى الدين في حالته الطبيعية الأولى

إن التفكيـك الـذي يحتاجـه الخطـاب الدينـي، ليـس تفكيـكًا يتنكـر لـكل «مركـز» مثـل التفكيـك الجـذري في مرحلـة «مـا بعـد الحداثـة»، وإنمـا هـو تفكيـك يريـد العـودة للمراكـز الأولى للعلـم والفكـر والديـن، وبهـذه العـودة سـوف يتـم

الالتقـاء مبـاشرة مـع الديـن الأول الخالـص في نقائـه وخصوبتـه الأولى، وبالتـالي سـوف تنهـار كل المذاهـب المغلقـة والمراكـز المزيفـة التـي اصطنعهـا التطـرف والاسـتبداد، كـما سـوف تنهـار كل التأويـلات البشريـة التـي اصطنعهـا فقهـاء السـلطان وفقهـاء البحـث عـن السـلطان! وهنـا تصبـح الأرض ممهـدة لتأويـل جديـد يأخـذ بأسـباب الاجتهـاد ويأخـذ بأسـباب العـصر.

إن حالـة الجمـود المطلـق عـلى المنظومـات القديمـة ليسـت مجـرد جاهليـة جديـدة تعجـز عـن مواكبـة العـصر، بـل خـروج عـن حركـة التاريـخ. وهـذا مـا نعيشـه الآن عـلى الرغـم مـن كل مظاهـر الحداثـة الزائفـة التـي نسـتوردها ونسـتهلكها حتـى الإدمـان، فأفكارنـا تحلـق في جاهليـة جديـدة متقنعـة بأقنعـة الحداثـة، وعقولنـا تعجـز عـن التفـوق عـلى الـشرق، مثلـما تعجـز عـن منافسـة الغـرب. هـذه حقيقتنـا دون شـعارات جوفـاء ودون بطولات ومعجـزات مصطنعة!.

وحالـة الجمـود المطلـق لا تقـل سـوءًا عـن حالـة التفكيـك المطلـق التـي يريـد البعـض أن يُوقعنـا بهـا في رمـال متحركـة يسـتحيل معهـا وجـود حـد أدنى ثابـت للمعنـى أو القيـم أو الغايـة القصـوى. وهـما حالتـان نقيضتـان نعـاني منهـما معًـا؛ فالتفكيكيـة الجذريـة التـي تشـكك في كل شيء، وتهـدم كل المرجعيـات بـلا اسـتثناء، في تصـوري أنهـا تفكيكيـة مفرطـة تنتـج في المقابـل رد فعـل بالـغ التطرف، فـكل إفـراط يطـرح نقيضـه مـن التطـرف المقابـل؛ ولذلـك نحـن لا نـزال نعـاني صراع المتطرفـين: متطرفـين في أقـصى اليمـين يتصارعـون مـع متطرفـين في أقـصى اليسـار، ليـس فقـط في سـاحة الخطـاب الدينـي، وإنمـا أيضًـا في سـاحة «الـصراع الاجتماعـي» الـذي غابـت منـه الطبقـة الوسـطى مثلـما غـاب «الوسـط الذهبـي» مـن الخطـاب الدينـي.

وهكذا فإن الساحات كلها تعاني حالة «المرايا المتقابلة». ومشكلة المتطرفين أنهم عقول مغلقة تعود للإسلام ظاهرًا، والجاهلية روحًا ومقاصد، ومشكلة التفكيكين العرب أنهم يسيرون حذو النعل بالنعل مع التفكيكية الغربية التي جاءت تمردًا على أنساق الحداثة. وكلا الطرفين يقدم فلسفة للتشظي والهدم والإقصاء؛ وكلاهما يشترك في رفض الحداثة!

إن الوعي الأوروبي المعاصر سقط في حالة من الصورية والشكلانية مع البنيوية، ثم كان سقوطه الثاني في التفكيك الشامل؛ فالتفكيكية الغربية مدرسة تقويض ونقد شامل دون أية محاولة لإعادة البناء، وهي تنكر وجود أية قيمة مطلقة، وتقوض فكرة الحقيقة الموضوعية، وتحطم التمركز حول العقل Logocentricity. فالتفكيكيون الجذريون ينكرون الوجود الموضوعي للعالم الخارجي؛ ويعتبرون الأديان والعلوم مجرد تشكيلات وبنيات ثقافية اجتماعية ليس لها حقيقة موضوعية، والأشياء مشتتة لا يوجد نظام موحد يجمعها.

وتنسى التفكيكية الجذرية أن الإنسان لا يستطيع غالبًا أن يعيش الحياة من دون «مركز»، مثله في ذلك مثل الكواكب، والأقمار، والإلكترونات، في الطبيعة. وكثير من الناس - رغم مفاسدهم الأخلاقية - لا يمكنهم أن يواصلوا الحياة دون وجود وشائج بينهم وبين «مراكز» المعنى المطلق لحياة الإنسان الروحية: الله، الروح، إمكان العدالة المطلقة في لحظة ما في المستقبل. فلولا وجود تلك «المراكز» للحياة الواقعية لكان كل شيء مباحًا، ولانهارت منظومة القيم، ولانعدم معنى الحياة نفسها. ومن ثم فالتفكيكية الجذرية تخالف الموقف الإنساني الطبيعي؛ فالإنسان غالبًا لا يستطيع أن يعيش من دون اعتقاد (بالمعنى الواسع).

ولم تقدم التفكيكية الجذرية بديلًا مذهبيًّا يمكن الارتكان إليه، بل قدمت عدم اليقين، ودعت إلى الفردية المطلقة والنسبية المفرطة، وقلب نظام القيم والأخلاق، وفقدان الثقة في العقلانية وكل نظام أخلاقي يدور على مركز أو محور ثابت مثل الضمير أو الله أو الواجب... إلخ! فهي فلسفة هشة، وموقف يضيع معه الإنسان في هاوية لا قرار لها. وينسحب على التفكيكية الجذرية كل نقد تم توجيهه للفلسفات السوفسطائية والشكية واللاأدرية، فهي تحطيم للتمركز حول العقل، وقضاء على القانون والنظام، وتكريس لضياع الفعل الغائي، وسيادة للامعقول.

وفي المقابل فإن التفكيك الذي ندعو إليه لننجو من «الجاهلية الجديدة» و«التفكيكية الجذرية» معًا، هو - في إحدى معانيه - رد المُركَّب إلى عناصره البسيطة التي يتكون منها، وهو بهذا المعنى قريب من «التحليل» الذي يستخدمه الأطباء ليتعرفوا على المرض، ويستطيعوا أن يشخصوا الدواء حسب الخلل أو نوع الفيروس أو البكتريا... إلخ. ويحمل تفكيك الخطاب الديني شيئًا من هذا المعنى الطبي؛ فلا بد من تفكيك التراث ورده إلى العناصر البسيطة التي يتكون منها، حتى يمكن التمييز بين العناصر الحية والعناصر الميتة؛ ومن ثم يسهل استبعاد العناصر الميتة منه وإبقاء العناصر الحية ثم تنميتها وتطويرها وإضافة عناصر جديدة لها حتى تصير كائنًا حيًّا معاصرًا يحقق مقاصد الوحي ومصالح الناس ويقيم أسباب العمران.

وبالتأكيد إن هذا النوع من التفكيك سوف يرد الدين إلى حالة الوضوح الأولى التي كان عليها؛ بحيث يكون «النص الأصلي» هو المركز الحقيقي

للمعنـى، وليسـت المذاهـب المغلقـة ولا المرجعيـات البشريـة التـي كانـت تفكـر لعصرهـا هـي وليـس لعصرنـا نحـن.

5- تفكيك المعاني المزيفة والأسطورية للنص المركزي

لا مفر عند تكويـن خطـاب دينـي جديـد مـن تفكيـك كل التأويـلات المغرضـة والجهولـة بطبيعـة النـص، والتـي حولـت القـرآن عـن معنـاه الأصـلي إلى أداة سياسـية أحيانًـا وإلى غطـاء للأسـاطير أحيانًـا أخـرى، وهـذه التأويـلات - سـواء كانـت مغرضـة أو جهولـة - في «بعـض» كتـب التفسـير الذائعـة تجدهـا مسـتندة إلى إسرائيليـات ومرويـات موضوعـة أو ضعيفـة.

وفي هــذا السـياق لا بــد مــن التأكيـد عـلى أن علـماء التفسـير والفقــه وغيرهـم ليسـوا كلهـم في كفـة واحـدة نحكـم عليهـم بالسـلب أو الإيجـاب؛ فمنهـم مـن هـو راسـخ العلـم والفهـم، ومنهـم مـن يحمـل نصـف علـم وهـذا خطـر، ومنهـم مـن لديـه المعلومـات لكـن عقليتـه غـير منضبطـة ويفكـر خـارج الزمـن والتاريـخ، وهـذا هـو الأخطـر. ومجـددًا أؤكـد أن مـن الخطـأ التعميـم. ومـن أسـف فـإن بعـض ناقـلي الآراء يُحمِّلونهـا مـن المعـاني مـا ليـس فيهـا، إمـا لأن هنـاك مشـكلة في طريقتهـم للفهـم، وإمـا لأنهـم يقصـدون إلى الإثـارة الإعلاميـة.

والـتراث العـربي - مثلـه مثـل أي تـراث آخـر في الـشرق أو الغـرب - مـليء بمثـل هـذه التأويـلات المغرضـة أو الجهولـة، لكـن الـتراث العـربي قـدم أيضًـا لنـا كثـيرًا مـن التفاسـير التـي كشـفت الزيـف عـن التأويـلات المغرضـة والجهولـة، وفككـت المعـاني المزيفـة والأسـطورية التـي قدمهـا بعـض المفسريـن الذيـن

يعتمدون على المرويات الموضوعة والضعيفة دون إعمال التفكير ودون التدبر في معاني الوحي وفق قواعد القراءة المنضبطة.

ومن نماذج التفاسير التي قدت نموذجًا من أفضل ما يكون في فهم الكتاب في ضوء الكتاب نفسه وروحه ومقاصده، تفسير الفخر الرازي «مفاتيح الغيب» المعروف بالتفسير الكبير. لكنه للأسف غير منتشر بين الناس على الرغم من أنه مطبوع أكثر من مرة. ويمكن القول: إن كثيرًا من الدعاة لا يقوون على قراءته. وفي المقابل يلجأون إلى تفاسير سهلة لكنها مشتملة على إسرائيليات، ومن أسف فإنها هي الشائعة بين الناس وبأرخص الأسعار، والعجيب أن كثيرًا من الدعاة والشيوخ ربما يعرفون هذه الحقيقة، لكنهم يستسهلون، ويريدون الاستشهاد بـ«حكايات» يدغدغون بها مشاعر العامة، ومرويات تقص العجائب والمفارقات، أما «الأفكار» فلا أحد منهم قادر على متابعتها أو إجبار ذهنه على فهمها ونقلها للناس! والدعاة الناجحون هم الذين يقصون القصص غير الحق، لكنه قصص مسلٍّ مثل الأفلام الهندية!

وأتذكر أنني التقيت أحد الإخوة الأفاضل المسؤولين عن قناة دينية فضائية شهيرة، وقلت له لا بد من التحول من مرحلة «الوعظ والإدهاش» إلى مرحلة «الفكر والتفكّر»؛ لأن الوعظ بهذه الطريقة ليست له أية نتائج إيجابية، فشعبنا «المتدين بطبعه» سلوكياته يعرفها الجميع! وهذا يعني أنه توجد مشاكل في طرق التفكير المحركة للناس، وتوجد إشكاليات في طريقة فهمهم لروح الإسلام ومقاصده وما يريده من الناس، ولا بد من قيادة الجمهور نحو إعمال الفكر والعقل في كل قضايانا. وكان اللافت للنظر

أن رأيـي عجبـه، لكـن عندمـا رجـع إلى المحـرك الحقيقـي للقنـاة ضرب بالـكلام عـرض الحائـط، وحجتـه أنـه يريـد مشـاهدة عاليـة وإعلانـات، أي أنـه يفكـر في الديـن مثلـما يفكـر المنتـج السـينمائي في «شـباك التذاكـر»!

ومـن هنـا فتفكيـك تلـك الذهنيـات العتيقـة والمنظومـات الأسـطورية التـي أفرزتهـا والتـي سـارت بحضارتنـا إلى هـذا المنحـدر التاريخـي الـذي نعيشـه، بـات ضرورة قصـوى مـن أجـل العـودة إلى المنابـع الأولى الصافيـة.

وهنـا أيضًـا تظهـر أهميـة عمليـة التفكيـك مـن أجـل فضـح معـاني وتأويـلات الكهنـة والساسـة المتقنعـين بالديـن. وربمـا يقـول قائـل: «إن النـص حـمّال للمعـاني، ومـن العسـير الوصـول إلى معنـى موضوعـي».

نعـم .. إن النـص حـمّال أوجـه، لكـن المعـاني ليسـت مفتوحـة بـلا قيـد ولا شرط، ومرونـة النـص في كثـير مـن مواضعـه لا تعنـي أنـه لا تُوجـد معـانٍ مُحْكَمـة وموضوعيـة، ولا تعنـي النسـبية المطلقـة للمعنـى، ولا تسـتلزم ضيـاع الدلالـة وسـيولة المقاصـد والأحـكام، بـل تعنـي أن النـص «حـي وديناميـكي»، وليـس ميتًا أو إسـتاتيكيًّا. وتوجـد قواعـد وشروط لاسـتخراج المعنـى، كـما توجـد مناهـج علميـة لطريقـة إنزالـه عـلى الوقائـع المتغـيرة.

فكلـمات النـص واضحـة ومبـاشرة في الآيـات المحكـمات، أمـا الآيـات المتشـابهات فهـي التـي تجعـل النـص متجـددًا لملاءمـة تغـير الزمـان والمـكان، وهنـا دور الراسـخين في العلـم الذيـن يملكـون شروط الاجتهـاد واسـتنباط الأحـكام. لكـن كهنـة الأديـان الذيـن تجمـدت معهـم علـوم الديـن عهدناهـم يسـتغلون «تعـدد الـدلالات» ليسـقطوا أوهامهـم عـلى النـص ويأخـذوا منـه مـبررًا لـكل هـوى حتـى لـو كان إهـدارًا للدمـاء وهتـكًا للأعـراض وتدمـيرًا لمـوارد الحيـاة

والحضارة والتمدن. وعلى مستوى آخر يحولون «المُحْكَم الواضح» إلى «مغلق غامض» يحتاج تفسيرًا، و«المباشر» إلى «غير مباشر» يحتاج وسيطًا؛ حتى يكونوا هم الوسطاء في الفهم؛ وَيَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ ليعطونه معانيَ ليست فيه؛ وغالبًا تجدهم لا يفهمون الكلام على «قَدّ» الكلام، بل يلونون معانيه بأفكارهم ويزيدون معانيَ من عندهم، حتى يؤسسوا وصايتهم على الدين وعلى الناس! ولذلك فهم يرفضون التعقل النقدي والتفكير المنهجي اللذينِ ألح القرآن عليهما في تأسيس الإيمان وفي فهم نص الكتاب؛ فالعقلانية «انحراف» على الرغم من أن الكتاب نفسه اشتمل عليها، والتفكير «هَمّ» و«ضلال» على الرغم من أنه فريضة قرآنية!

6- ضياع المعنى والعقل في التيارات الدينية المغلقة وحركات ما بعد الحداثة معاً

من أهم تجليات الخطاب الديني التقليدي في التعامل مع النص أن أتباعه يعطون له معانيَ لا تعكس مقاصده، ولا تبالي بسياق آياته، ولا تفسر الكتاب بالكتاب، ولا تراعي قواعد اللغة والأساليب العلمية لفهمها واستنباط الأحكام منها.

إنهم يختزلون النص في مجموعة من آياته معزولة عن مجموع النص، ويأخذون حرفيًّا بالحدود والغنائم، عازلين السياق التاريخي والثقافي، ضاربين بالمقاصد العامة للنص عرض الحائط.

وكانت النتيجة هي تخريج كائنات لا تعرف إلا الجنس والدم والانتقام، كائنات تطبق فلسفة مكيافيلي بغباء تاريخي منقطع النظير إلا في عصور

الجاهليـة الأولى! فهـم يفـسرون النـص في ضـوء ثقافـة رجعيـة تكونـت عقولهـم في رحمهـا، وأصبحـوا سـجناء لمذاهـب مغلقـة لا يسـتطيعون تجاوزهـا إلى أيـة حقيقـة أو واقعـة مـا خـارج عقلهـم الجامـد المتخشـب خـارج حركـة التاريـخ، مهـما كانـت تلـك الحقيقـة ظاهـرة وعينيـة في الواقـع الخارجـي.

ولأن كل فعـل لـه رد فعـل، فـإن ضيـاع معـاني النـص الموضوعيـة مـع تيـارات التشـدد السـجينة في ثقافـة رجعيـة، أعطـى للتفكيكيـين الجذريين المتشـددين مبررًا لرفـض النـص وإنـكار موضوعيـة أي «معنـى» لـه؛ والنظـر إلى «النـص» باعتبـاره ممـزق المعنـى ومفـكك الدلالـة، فليـس لـه وحـدة معنـى وليـس لـه مركـز ثابـت. أمـا العقـل الإنسـاني فقـد ذهـب هبـاءً؛ فـلا منطـق لـه، ولا قواعـد تلـم شـتاته! ومـا حـدث مـع معنـى «النـص» حـدث مـع معنـى «الوطـن»، فصـار بـلا معنـى، وأرضـه صـارت مجـرد تـراب.

وتتجـلى النزعـة التفكيكيـة الجذريـة في «مـا بعـد الحداثـة» في تأكيدهـا عـلى عجـز اللغـة عـن أداء المعنـى، ووجـود تفسـيرات غـير محـدودة ممكنـة للنـص، مـع غيـاب القـدرة عـلى الترجيـح بـين المعـاني؛ ومـن ثـم ضيـاع النـص؛ يقـول جـاك دريـدا: «لا يكـون نـصٌّ نصًّـا إن لم يُخْـفِ عـلى النظـرة الأولى، وعـلى القـادم الأول، قانـونَ تأليفـه وقاعـدة لعبـه. ثـم إن نصًّـا ليظـل يُمعـن في الخفـاء أبـدًا. وليـس معنـى هـذا أن قاعدتـه وقانونـه يحتميـان في امتنـاع السـر المطـوي، بـل أنهـما، وببسـاطة، لا يُسـلمان أبـدًا نفسـيهما في الحـاضر لأي شيء مـما تمكـن دعوتـه بكامل الدقـة إدراكًا. وذلـك بالمجازفـة دائمًـا (أي مـن لـدن النـص)، وبفعـل جوهره نفسـه، بالضيـاع عـلى هـذه الشـاكلة نهائيًّـا. مـن سيفطن لمثـل هـذا الاختفـاء أبـدًا؟ يمكـن لخفـاء النسـج بأيـة حـال أن يسـتغرق، في حـل نسـيجه، قرونًـا».

ومن هنا، فكل قراءة عند جاك دريدا، ليست موضوعية، وكل تأويل هو نسبي، وكل محاولة لإدراك النص ليست نهائية؛ فالنص يظل يُمعن في الخفاء أبدًا! والإنسان «سجين اللغة»، ولا يستطيع عبورها إلى الواقع، بل إن اللغة هي مرآة غير دقيقة للواقع الذي نعرفه من خلالها، والإنسان لا يستطيع تجاوز ذاته إلى حقيقة ما خارج الذهن، فالموضوعية غير ممكنة؛ ولا شك أن في هذا عودًا من جهة للذاتية المفرطة المنكرة لوجود المعنى الموضوعي، وعودًا من جهة أخرى للاأدرية التي نعتبرها أيضًا أحد جذور النزعة العدمية.

ومن وجهة نظرنا إن هناك بالفعل جانبًا غامضًا في اللغة، يترك مساحة لتأويلات عديدة، لكن لا شك أيضًا أن هناك جانبًا يحمل معنى محددًا، ولولا هذا الجانب لما استطاع البشر التواصل، ولولاه لما استطاع دريدا أن يعبر عن أفكاره هو شخصيًّا! ولولاه - أيضًا - لما استطعنا فهم دريدا نفسه! ولو لم يكن للكلام أي معنى دلالي لما فهمنا معنى أي خطاب، ولما أمكنا فهم التفكيكية ذاتها، ولما استطعنا قراءة أعمال أنصارها وفهمها، ولشككنا في دلالة النصوص، ومنها نصوص دريدا شخصيًّا!.

وسؤالي إلى دريدا: إذا كنت متأكدًا من ضياع المعنى فلِمَ تكتب؟! أليس «فعل الكتابة» يستلزم أنك تقصد إيصال «معنى ما» إلى القارئ؟!

ومثلما عجزت «ما بعد الحداثة» عن القضاء على سجن «الأنساق المغلقة» عند ديكارت وليبنتز وهيجل، وإنقاذ الذات العقلانية من المذهبية الضيقة، عجز التفكيكيون العرب عن القضاء على سجن المذاهب الفقهية والعقائدية المغلقة.

ولم تضع العقلانية النقدية مع المتشددين والمتطرفين الدينيين فقط، بل

ضاعـت أيضًـا مـع حـركات مـا بعـد الحداثـة؛ فكلاهـما شريـك في اللاعقلانيـة، وكلاهـما شريـك في ضيـاع المعنـى، وكلاهـما أضـاع الإنسـان. وبـدلًا مـن أن يقفـا ضـد بعـض شـطحات العقـل الحـداثي وانحرافاتـه عـن مبادئـه الأوليـة وتهـوره، عـن طريـق العقلانيـة النقدية مثلـما فعـل كانـط في «نقـد العقـل»، أقـول بـدلًا مـن ذلـك تحالفـت تيـارات التجمـد وخصومهـا مـن تيـارات التفكيـك الـ«مـا بعـد حداثيـة» عـلى نقـد العقـل وتفكيكـه ثـم إعدامـه.

وهـذه هـي الخطـوة الأخـيرة لضيـاع «النـص» وضيـاع «المعنـى»، وهـذه هـي الخطـوة قبـل الأخـيرة لضيـاع «الوطـن»!

هنـا يظهـر أن تفكيـك الخطـاب الدينـي التقليـدي، لا بـد أن يصاحبـه تفكيـك مناظـر لمـا بعـد الحداثـة؛ فكلاهـما انحـراف عـن العقلانيـة النقديـة والعقـل المعيـاري ومنهجيـة التأويـل العلمـي.

الفصل الثالث

العقل المغلق

1. بروفايل العقل المغلق.
2. القرآن وغريزة القطيع.
3. الرؤية الأحادية للإسلام.
4. دوجماطيقية الخطاب الديني وصراع الإخوة الأعداء.
5. الأقدام الفخارية للتجمد الديني (1).
6. الأقدام الفخارية للتجمد الديني (2).
7. اللاعقلانية ولعبة الموت.
8. الكراهية وظاهرة العنف.
9. قابيل وهابيل.. يعودان من جديد.
10. إعادة تصدير الإرهاب.

الفصل الثالث

العقل المغلق

1- بروفايل: العقل المغلق

العقـل المغلـق مثـل الحجـرة المظلمـة التـي لا نوافـذ لهـا .. إنهـا لا تـرى النـور، ولا يمكـن لمـن بداخلهـا أن يـرى شـيئًا سـواء في الداخـل أو الخـارج .. ولا يتنفـس إلا هـواءً قديمًـا، أمـا أكسـجين الحيـاة فـلا يمكـن أن يصـل إليـه!

إن صاحـب العقـل المغلـق أشـبه بالطفـل في رحـم الأم، كل عالمـه هـو هـذا الرحـم، وهـو غـير متصـل مـع العـالم الخارجـي، ولا يمكـن لأحـد أن يحـاوره، ولا يمكـن أن يخـرج مـن هـذا العـالم المغلـق بإرادتـه، إنـه يظـن أن الخـروج مـن هـذا العـالم مهلكـة، وهـو يـصرخ بأعـلى صوتـه ويتلـوى ويرفـس عنـد إخراجـه قـسرًا!

ولـذا لا يسـتطيع صاحـب العقـل المغلـق أن يتجـاوز ذاتـه أو عالمـه الخـاص. ومـن المسـتحيل أن يـرى أي شيء خـارج عقلـه، ولا يسـتطيع أن يتجـاوز أفـكاره المظلمـة ولا يمكنـه أن يـرى غـير أفـكاره هـو، ويعدهـا يقينيـة قطعيـة لا تقبـل المناقشـة، بـل يصـل بـه الحـد إلى الاعتقـاد بأنهـا ذات طابـع إلهـي .. وأن اللـه تعـالى معـه! بـل إنـه ممثـل اللـه عـلى الأرض. واللـه ليـس رب العالمـين، بـل ربـه هـو فقـط.

وعندما يدخل في صراع مع أحد، فالبديل الوحيد عنده هو إعلان الحرب المقدسة؛ فهو وحده على طريق الحق والخير، وغيره كافر، أو عَلماني، أو ضال، أو شرير أو فاسد.

وهكذا يتحول معه العالم إلى: أبيض وأسود، ملائكة وشياطين، دار السلام ودار الحرب.

وهذه الحالة من الانغلاق العقلي التي يعيشها تجعله منفصلًا تمامًا عن الواقع؛ أسير أوهام يعتبرها مقدسة ومنزهة!

وليس بوسع أحد أن يفرض على العقل المغلق - الذي ينطلق من موقف عقائدي مغلق - قواعدَ وقوانين من خارج مفاهيمه وحقائقه هو؛ لأنه هو الذي يحددها ويختارها ويلتزم بها بمقدار ما تخدم قضيته، وبما تتناسب مع الظروف التي يكافح فيها.

ومن هنا فإن قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» مستخدمة عنده على أوسع نطاق لتحقيق مصالحه الخاصة وأهوائه، والضرورة عنده ليست هي الخط الفاصل بين الحياة والموت مثلما قال الفقهاء، بل هي الخط الفاصل بين مصالحه الشخصية والمبادئ الأخلاقية العامة، وعندما تتعارض مصالحه مع الدين أو مع الأخلاق أو مع المصالح العامة، يقوم على الفور بإعادة تفسيرها أو بالقفز عليها؛ فإذا كانت الخمر محرمة في الشريعة، فهي مباحة عنده، يسمح ببيعها وأخذ الضرائب عليها .. وينسى أن الخمر مباحة فقط عند عدم وجود الماء والشروع في الموت عطشًا، وهذه هي الضرورة في الشريعة.. أما عنده هو فالضرورة تتسع لمجرد تحصيل الضرائب!

وإذا كانت إسرائيل عدوًّا لدودًا يطالب بمحوها من على وجه الأرض

مـن أجـل المزايـدة السياسـية، فـإن الـضرورة (المنبعجـة) التـي يؤمـن بهـا مـن أجـل تحقيـق مصالحـه تدفعـه في ظـروف أخـرى لاعتبارهـا صديقًـا حميـمًا!.

لاحـظ معـي أن العقـل المغلـق ينتقـل مـن الموقـف لنقيضـه تبعًـا لأوهامـه التـي تتخـذ نقطـة ارتـكاز مخادعـة، ونقطـة الارتـكاز ليسـت هـي الديـن أو الوطـن أو المصالـح العامـة، إنهـا فقـط أهـواؤه ومصالحـه الشـخصية الموقتـة. وهـي نقطـة مخادعـة لأنـه يوهـم نفسـه ويوهـم الآخريـن في كل مـرة أنهـا نقطـة ارتـكاز الديـن أو الوطـن، بينـما هـي في الحقيقـة نقطـة ارتـكاز مصالحـه الشـخصية!

وحتـى لا أطيـل عـلى القـارئ، ألخـص لـه مجموعـة السـمات التي يتسـم بهـا صاحـب العقـل المغلـق، وهـي:

1. الاستئثار بالحقيقة، أي يزعم أنه وحده الذي يعرف الحقيقة.
2. عدم الرغبة في فتح قنوات للحوار مع الآخر.
3. إذا اضطر لفتح الحوار لا يقدم أي تنازلات.
4. لا يدخـل في عهـد إلا إذا كان ضعيفًـا ومضطـرًا، وعندمـا يقـوى يقـوم بنقضـه عـلى الفور.
5. التقية هي سلاحه الذهبي في خداع الآخرين.
6. إذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا خاصم فجر.
7. لا يبحث عن الأرضية المشتركة مع التيارات الأخرى.
8. ينغلق على نظام قيم معين بصورة جامدة.

9. ثقافة التسلط، حيث الرغبة في التحكم التام في الآخرين وفرض أفكاره ورغباته وطريقة حياته عليهم.

10. نفي الآخر، أي يعتبر المخالفين له على الباطل المطلق أو كفرة.

ومن غير الخفي أن العقل المغلق ليس فقط طابعًا يميز بعض التيارات الدينية الأصولية، بل هو طابع بعض الحركات الشيوعية والعلمانية أيضًا التي تعتقد أنها تملك الحقيقة المطلقة.

ويظهر العقل المغلق بوصفه سمة أيضًا وبوضوح في بعض المواقف الغربية التي تتخذ موقفًا معاديًا من الحضارات الأخرى وتزعم أن نموذجها الحضاري هو النموذج الأمثل بشكل مطلق! ولذا فهي تعمل جاهدة على تعميم هذا النموذج من خلال العولمة وترسيخ مفهوم صراع الحضارات، التي تنظر فيه إلى حضارتها كممثلة للمدنية أما الحضارات الأخرى فهي بدائية.

وهنا فالقوى الغربية لا تعمل إلا لتحقيق مصالحها الخاصة، بل تعمل على تدمير الآخر، مرة بالحرب المباشرة، ومرة بإستراتيجية «فرق تسد»، ومرة بذرع بذور الفتنة الأهلية بين أبناء الوطن الواحد، وفي كل هذه الإستراتيجات ترفع شعار الديمقراطية، والحوار، وحقوق الإنسان!.

لقد كان الغرب حاضرًا في كل مرة: الحروب الصليبية على الشرق، فلسطين الحديثة، أفغانستان، باكستان، العراق، تونس، ليبيا، سوريا، والوجهة هذه المرة هي مصر. لكن بإستراتيجية جديدة هي «التحالف مع الأصوليات»!

2- القرآن وغريزة القطيع!

يرفض القرآن بحسم «غريزة القطيع» التي تجعل المجموع ينساقون وراء قادتهم بلا تفكير أو تروٍّ أو مراجعة! كما يستنكر القرآن بوضوح ما ينشأ عن هذه الغريزة، مثل منهج السمع والطاعة، ويسخر من التسليم بأقوال القادة أو الآباء دون الاستناد إلى براهين عقلية، فقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ {2/170})[البقرة: 170]. وفي الوقت نفسه يرفض القرآن موقف الذين لا يستخدمون عقولهم ويشبههم بالبهائم.

ومن هنا نبذ القرآن الطريقة المتعصبة في التفكير التي تقوم على اليقين الساذج الذي نلْتقي به عند المتطرف، فالمتطرف ذو عقل مغلق ومتعصب لآرائه إلى أبعد الحدود، لا يقبل أن يناقش آراءه ومعتقداته أحد، يعتقد في ذكائه المفرط وقدرته الخارقة على معالجة الأمور. كما يعتقد في سلطة الآباء أو العلماء أو غيرهم من أصحاب النفوذ الديني أو الفكري. وهذه هي طريقة الذين يقولون «إن الحق يعرف بالرجال!» الذين حذر منهم الإمام علي، أي الذين يعتبرون القول حقًّا لمجرد أن فُلانًا أو عِلّانًا قاله، وهؤلاء هم الذين يسيرون على منهج السمع والطاعة، لا برهان لهم ولا رأي؛ فالذين يملكون الحقيقة هم أسيادهم فقط!

ولذلك هم منفصلون تمامًا عن الواقع كما يقول علماء النفس.

والسمع والطاعة أمر مستهجن وضد مبادئ العقل المنطقي وضد البداهة؛ لأن المعتقدات ينبغي أن تؤسس على براهين من الواقع وليس من الحجج

النظرية الجوفاء التي تقوم على المصالح الخاصة للجماعة بصرف النظر عن مصالح الوطن.

ولذا حذرنا الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون من الذين يتبعون زعماءَهم مثلما يَتْبع القطيعُ الراعيَ! وأطلق بيكون على آراء أمثال هولاء اسم «أوهام المسرح»، وهي الأوهام التي تنشأ عن الاعتقاد في صحة كل ما يقوله قادة الجماعات أو الآباء أو الشيوخ أو غيرهم من أصحاب النفوذ؛ حيث يعتقد بعض الناس أن كلامهم كله صحيح لمجرد أنه صدر عن فقيه كبير من الفقهاء أو قائد جماعة دينية أو سياسية من ذوي الأسماء الكبيرة. ويرى بيكون أنه لا بد من النظر إلى أقوال هؤلاء ومذاهبهم على أنها تشبه المسرحيات!

والأصل الأول لكل تعصب هو غريزة القطيع التي ليس لها بوصلة سوى اليقين المطلق الذي تتسم به بعض معتقداتهم اعتمادًا على التسليم الكامل للقادة.

وفي ظني يكمن المنشأ الفلسفي لغريزة القطيع في طبيعة منهج التفكير، فالعقل المتعصب المتطرف عقل مغلق على نفسه، ومن ثم فهو مظلم، مثل الحجرة المغلقة التي لا نوافذ لها .. إنها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئًا سواء في الداخل أو الخارج .. إنه لا يستطيع أن يتجاوز ذاته. ومن هنا فإن صاحب العقل المغلق من المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، لا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، ومؤكدة بشكل نهائي! ويرجع هذا بدوره إلى حالة الانغلاق العقلي التي يعيشها، ومن ثم الطابع التعصبي التطرفي الذي يميز منهجية التفكير التي يستخدمها.

ولـذا تجـد المتعصـب شـخصًا غـير عقـلاني، يعتقـد اعتقـادًا جازمًـا أنـه عـلى صـواب تـام والآخريـن عـلى خطـأ تـام، إمـا لأنـه لا يسـتخدم عقلـه مطلقًـا، أو لأنـه يسـتخدمه بطريقـة خاطئـة. فليسـت «اللاعقلانيـة» هـي عـدم اسـتخدام العقـل فقـط، ولكنهـا أيضًـا اسـتخدامه بطريقـة خاطئـة.

إن التعصـب حيلـة فكريـة مخادعـة؛ لأن المتعصبـين يتحدثـون كـما لـو كان موقفهـم قائمًـا عـلى براهـين محكمـة ونهائيـة! أي إنهـم يخدعـون غيرهـم، بـل ويخدعـون أنفسـهم دون أن يشـعروا، بأنهـم أصحـاب براهـين محكمـة مـع أن براهينهـم مليئـة بجوانـب الخلـل.

ومـا هـذا إلا لأن التعصـب لا يسـتطيع أن يخـرج وراء ذاتـه فـيرى عيـوب تفكيرهـا.

ويؤكـد القـرآن عـلى إمكانيـة المعرفـة اليقينيـة ووجود معايـير لماهيـة الحقيقة، لكـن مـن جهـة أخـرى يرفـض اليقـين المطلـق الـذي يزعـم بعضهـم امتلاكـه دون براهـين محكمـة؛ حيـث ينتقـد الأسـاليب الزائفـة غـير البرهانيـة، ويدعـو للمعرفـة التجريبيـة المبنيـة عـلى النظـر في الكـون والآفـاق والنفـس، وغـير ذلـك مـن الأسـاليب التـي توصـل للمعرفـة المضبوطـة أو العلـم الدقيـق بالعـالم الخارجـي أو النـص المكتـوب.

والعلـم اليقيني يحصل عليه الإنسـان بوسـائل متعددة: الواقـع، أو التجريب، أو الاسـتدلال العلمـي، أو القـراءة الفاحصـة، قال تعالى: (قُـلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنـي الآيَـاتُ وَالنُّـذُرُ عَـن قَـوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُـونَ {10/101}) [يونـس: 101]، (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {96/4} عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {96/5}) [العلق: 4 - 5].

ودعـا القـرآن الكريـم إلى اسـتخدام البرهـان للوصـول للمعرفـة اليقينيـة:

(قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ) [البقرة: 111]؛ فحجية العقل المنطقي سند للتمييز بين اليقين والوهم.

كما أن العلم بالدين والواقع المعيش وعدم الانفصال عنه، شرط لاستخدام العقل، قال تعالى: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ {29/43}) [العنكبوت: 43]، والعالمون هم الذين يملكون أدوات البحث العلمي في الواقع الخارجي أو النص المكتوب ويعرفون طرق البرهان والاستدلال، وما هي الطريقة المنضبطة التي يتوصل بها العقل إلى المعارف، فالعقل المنضبط بمعايير البرهنة والاستدلال العلمي له دور لا يُنكر في عملية المعرفة بالواقع أو الكتاب.

لكل هذا لا بد من نَبْذِ الجمود الديني النظري الذي تتسم به التيارات المتعصبة التي تعارض تجديد أمر الدين أو تطور العلوم الإنسانية والطبيعية.

وهنا تكمن مأساة التيارات المتطرفة التي تعتقد أنها وحدها تملك الحقيقة المطلقة. ومن هنا أيضًا ينبع الاستئثار بالسلطة وإقصاء الآخرين عند الوصول إلى الحكم.

وعندما يضيع الحكم يؤدي وهم امتلاك الحقيقة المطلقة إلى الإرهاب!

3- الرؤية الأحادية للإسلام

مع مرور أكثر من 14 قرنًا على ظهور الإسلام، لا تزال الفجوة واسعة بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام (قرآنًا ورسولًا) يقدم نموذجًا إنسانيًّا عالميًّا للدين الذي يلائم الطبيعة الإنسانية، ويعترف بالتنوع الكوني والإنساني، ويعتبر

التعددية سنة إلهية، ويميز بوضوح بين البشري والإلهي، وهو في الأساس جاء رحمة للعالمين وليس لبعض المسلمين فقط، ومن مقاصده الكبرى تحقيق العدالة الاجتماعية والحفاظ على الأوطان ومصالح الناس .. كل الناس: حياتهم، عقولهم، دينهم، أموالهم، أعراضهم. وهذه الأمور الخمسة تسمى بالضروريات الخمس، وبمقاصد الشريعة، وهي الأمور التي تظهر من جميع أحكامه.

وبعض أو أكثر المسلمين منذ لحظة الانحدار الحضاري وحتى الآن يفسرون هذه المقاصد على أنها خاصة بهم أو بفصيلهم، أما باقي التيارات فليس لها إلا التكفير الديني أو السياسي وكلها في النار.

ولهذا أسباب كثيرة، أكتفي منها هنا بـ «النظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة وضيقة»، هي زاوية القراءة الضيقة والحرفية لنصوص الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ، والأخذ ببعض الكِتاب وترك البعض الآخر، غافلين عن روح الإسلام وأدلته الكلية.

مثل هؤلاء مثل العميان الذين دخلوا غرفة مظلمة فيها «فيل عملاق»، ووضع بعضهم أيديهم على ذيله، وظنوا بل اعتقدوا أن «الفيل كله» عبارة عن «ذيل»، بينما فريق آخر وضعوا أيديهم على «رجل» الفيل وتصوروا الفيل كأنه عمود طويل مستدير، أما الذين وضعوا أيديهم على «ظهر» الفيل فتصوروا أنه هضبة عالية، والذين وضعوا أيديهم على «أنيابه» ظنوا أنه كائن شرس فتاك! وهكذا الحال مع سائر الأجزاء... ثم دخل الجميع في جدال مميت حول ماهية الفيل، وأخذ كل فريق يصف الفيل «كله» بمواصفات هذا «الجزء» الذي يمسك به والذي يعلمه علم اليقين!

وعمى بعض المسلمين في عصرنا ليس عمى عين وإنما عمى ثقافة، وعمى الزاوية الواحدة التي ينظرون منها، وهي زاوية الموروثات الاجتماعية وزاوية المصدر الواحد للمعرفة؛ فهم يخلطون بين موروثاتهم الاجتماعية والتصور الإسلامي النقي والشامل. ولذا تجدهم يعتقدون أنهم يحتكرون الفهم الصحيح والأوحد للإسلام، ويبدون تعصبهم مع المختلفين معهم.

مثل البدو الذين يُضْفون على الإسلام الطابع البدوي، فلا يرون فيه إلا سلطة الرجال وعزل المرأة، ودين الخشونة، والمعاداة للفن والحضارة.

أما العلمانيون فهو عندهم علاقة فقط بين العبد وربه، ولا شأن له بصلاح الحياة العامة ولا دخل له بأي شأن من شؤونها.

والجماعات الماسونية والباطنية والسرية تضفي طابعها الخاص عليه؛ فتراه دين العمل السري، والتقية، والعمل من وراء ستار، والرغبة في السيطرة والهيمنة.

أما الجهاديون، فالإسلام عندهم هو دين الفتك، والعنف، والقوة، وتكفير الآخر. وهو دار السلام في مقابل دار الحرب.

والصوفيون يرون فيه دين الزهد والتقشف والذكر والاعتزال عن الكفاح في الحياة.

أما الكتلة الصامتة فالإسلام عندها هو دين المناسبات: رمضان، العيد، رجب، شعبان، المولد النبوي، الحج.

وبعض الفنانين يتصورون الله تعالى رب قلوب فقط وليس رب أعمال أيضًا، والمهم القلب، و«طالما قلبك سليم تقدر تعمل أي حاجة»!

وعلى عكسهم - لكنه يقع أيضًا في الخطأ نفسه - بعض المتشددين الذين يفهمون تعاليم الله على أنها تعاليم شكلية حرفية تتعلق بالظواهر أكثر مما تتعلق بالبواطن؛ ويحصرون أنفسهم في جانب ضيق: المظهر والملابس والشكليات، نصف الجسد الأسفل، الجنس، الزوجات، الطقوس .. ومن ثم حوّلوها من تعاليم للروح والجسد معًا إلى تعاليم للجسد فقط!

أما الفاسدون والنصابون من كل فصيل، فهم يخلطون بين العبادة الحقة والعبادة المزيفة، فلا يزال الكثيرون يقيمون علاقتهم مع الله من خلال الطقوس فقط، وليس من خلال الالتزام والمسؤولية، فسبيل الخلاص عندهم في الالتزام بالعبادات فقط، وليس في ممارسة العمل البناء في تنمية العالم، وهم يخلطون بين العبادة الحقة في الدين والتي تقيم علاقة فعالة بين الإنسان والله فتمده بدافع شخصي متجدد لممارسة دوره في إعادة بناء العالم وتنميته، وبين العبادة المزيفة التي يمارسها المراءون، أو التي يمارسها الذين يخدعون أنفسهم ويظنون أنهم يسترضون الله تعالى بأداء بعض العبادات ثم يسعون في الأرض فسادًا؛ فيرتشون ويغشون ويكتمون الشهادة ويشيع بينهم عادة النفاق والإهمال والغدر وعدم الالتزام بالوعود!

كما يخلط كثير من المسلمين بين معتقدهم الديني ومواقفهم السياسية ذات الطابع الإنساني المتغير. إن الإسلام يشتمل على أصول الحكم السياسي العادل. هذا شيء لا شك فيه، لكن الكارثة تكمن في أن يعتبر أي شخص أن مواقفه السياسية المتغيرة والمرتبطة بالمصالح والطبقة والجماعة التي ينتمي إليها هي تعبير عن الإسلام الخالد نفسه!

أما بعض رجال الدين الذين يتخذون الإسلام مهنة وليس رسالة؛ فقد

حولوا الدين الأصلي إلى مؤسسات ذات سلطة ومرجعية تحتكر الحقيقة وتركز على الشعائر والمناسبات أكثر مما تركز على نقاء الضمير واتساق القول والفعل، وتركز على الشكل والحرف أكثر مما تركز على الجوهر والعقل والإنسان، وتبرر للحكام قراراتهم ومصالحهم؛ فالدين عندهم «سبوبة»!

وهكذا نجد أن كل هؤلاء لا تزال تسيطر عليهم الرؤية الأحادية للإسلام، بينما رؤية الإسلام أوسع من ذلك بكثير: الكون، الإنسانية، الحضارة، التاريخ، العدالة الاجتماعية، الإنصاف، الخير والرحمة للعالمين.

لكل هذا يجب عدم الخلط بين الإسلام الذي هو دين في حد ذاته، والإسلام كما يفهمه ويمارسه بعض المسلمين في ضوء ثقافتهم المحدودة وعقائدهم الجامدة ومصالحهم الخاصة.

وينتج من ذلك حتمية عدم اتهام الإسلام - دينًا - بأية صفة سلبية نتيجة الفهم القاصر الذي تقع فيه كل هذه الطوائف الممسكة بـ «ذيل» الفيل أو «رجله» أو «ظهره» أو «أنيابه»، فكل شائنة تشين هؤلاء، هم وحدهم الذين يتحملونها، مثل تحمل التلاميذ الفاشلين لمسؤولية عدم فهمهم للمقررات الدراسية (الجيدة طبعًا) التي يدرسونها، ومثل الأرض البور التي لا تنتج أي ثمار على الرغم من أن «الماء النقي» يرويها ليل نهار!

4- دوجماطيقية الخطاب الديني وصراع الإخوة الأعداء

تكمن إحدى جوانب مأساتنا الفكرية المعاصرة، في أننا جميعًا أصبحنا نعاني من مرض التطرف الذي أصاب الجميع سواء كانوا متطرفين في التدين أو متطرفين في العلمانية، وأصبح أبناء الأمة الواحدة يعانون حالة انفصام

الإخـوة الأعـداء! وإزاء هـذا الوضـع العـدائي البغيـض والـذي نشـأ مـن موقفـين كليهـما «متطـرف»، تجـد المسـلمين المعاصريـن يشـبهون جمهـور كـرة القـدم المتعصـب الـذي لا يـرى غـير فريقـه. إن ظاهـرة «الألـتراس» ليسـت سـوى تعبـير ريـاضي فـج عـما نعانيـه في الفكـر والثقافـة والإعـلام؛ فالعصبيـة السـائدة في كـرة القـدم هـي نفسـها عصبيـة الأيديولوجيـة والجماعـة والقطيـع الفكـري في الخطـاب الدينـي والخطـاب الدنيـوي.

وفي حالـة كهـذه لا يمكـن تكويـن خطـاب دينـي جديـد ولا خطـاب دنيـوي جديـد دون تبـين المنشـأ العقـلي للتطـرف عامـة سـواء أكان تطرفًـا دينيًّـا أم دنيويًّـا. وفي تصـوري إن المَنشَـأ العقـلي للتطـرف يكمـن في طبيعـة «منهـج التفكـير اللاعقـلاني» الـذي يميـز العقـول المغلقـة. وتسـتلزم عمليـة التجديـد أولًا «فضـح» هـذا المنهـج، ووضـع النـاس أمـام حقيقـة أنفسـهم وحقيقـة عقولهـم؛ فالعقـول مريضـة، ولـذا لا يمكـن أن تحـل تناقضـات الواقـع ولا حتـى تناقضـات النفـس، ولا يمكـن أن تنتـج علـما ولا فكـرًا ولا حلـولًا لإشـكاليات العـصر.

إن نقـد منهـج التفكـير اللاعقـلاني الـذي يحكـم تفكـير النخبـة وعمـوم النـاس معًـا، بـات ضرورة مطلقـة قبـل الـشروع في التجديـد، وهـو بمثابـة تشـخيص مـرض عضـال، وهـو أيضًـا بمثابـة العـلاج؛ فالوعـي بالـداء جـزء مـن العـلاج.

ومـن وجهـة نظـري المتواضعـة أن المـرض الأكـبر الـذي يعـاني منـه منهجنـا في التفكـير هـو «الدوجماطيقيـة»!

لكن ما الدوجماطيقية؟

ببسـاطة هـي التعصـب المطلـق لـكل مـا تؤمـن بـه الجماعـة، إنهـا الاعتقـاد

بامتلاك الحقيقة كلها. وهي تعريب لكلمة Dogmatism، ولها ترجمات عديدة، مثل: يقينية، وثوقية، قطعية، توكيدية. وأي متطرف في الدين أو الفكر أو السياسة هو متعصب أو دوجماطيقي بلغة الفلسفة. والدوجماطيقي هو شخص غير عقلاني، يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه على صواب تام والآخرين على خطأ تام، إما لأنه لا يستخدم عقله مطلقًا، أو لأنه يستخدمه بطريقة خاطئة. فليست «اللاعقلانية» هي عدم استخدام العقل فقط، ولكنها أيضًا استخدامه بطريقة خاطئة!.

وليست الدوجماطيقية تيارًا فلسفيًا أو دينيًا محددًا، وإنما هي - في أكثر معانيها انتشارًا - صفة تتصف بها كل فرقة أو مذهب أو جماعة تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة بشكل شامل، ولا تقر بأنها قد تحتمل شيئًا من الخطأ أو النقص، وتقطع بأن ما تحوزه من معارف ومعتقدات لا يقبل النقاش ولا التعديل ولا التطوير، حتى وإن تغيرت الظروف التاريخية، فهي مقدسة ومنزهة عن أي نقد، على الرغم من أن هذه المعتقدات والآراء غير مبرهن عليها ببراهين قاطعة من العقل أو الواقع أو الوحي يقيني الثبوت ويقيني الدلالة، وعلى الرغم من عدم التمهيد لهذه المعتقدات بفحص نقدي تحليلي للأسس التي تقوم عليها، ودون بحث في حدود وقدرات العقل المعرفية، فضلًا عن عدم تمحيص الطرق التي توصل إلى المعرفة الصحيحة. وأية فرقة أو جماعة أو تيار أو فلسفة تعتقد أنها تملك الحقيقة المطلقة، فهي متعصبة أو دوجماطيقية؛ لأنها تتعصب تعصبًا مطلقًا لكل ما تؤمن به، ولا تتسامح مع آراء أو معتقدات الآخرين!

ولم يعد لمعظم الفلسفات الدوجماطيقية من وجود إلا في بطون الكتب

والدراسـات، وبعضهـا لـه جمعيـات علميـة بحثيـة في أوروبـا والولايـات المتحـدة الأمريكيــة، ولهــذه الجمعيــات نشــاط نظــري ملحــوظ لا ســيما عــلى شــبكة الإنترنــت. غــير أن الأصوليــات الدوجماطيقيــة، ســواء الدينيــة أو السياســية أو الثقافيـة، لا تـزال موجـودة نظريًـا وعمليًـا وسياسـيًا في معظـم بلـدان العـالم إن لم يكـن كلهـا بدرجـة أو بأخـرى. ومـن غـير الخفـي أن الدوجماطيقيـة موقـف وسـمة يتحـلى بهـا كثـير مـن المذاهـب الأيديولوجيـة والفلسـفية والدينيـة الموجـودة عـلى السـاحة في كل بلـدان العـالم وليـس العـالم الإسـلامي فقـط، وهـي ليسـت صفـة للتطـرف الدينـي فقـط، بـل أيضًـا صفـة للتطـرف العلـماني.

هــذا مــا نجــده في التطــرف الدينــي والتطــرف العلــماني عــلى حــد ســواء، فموقفهــما ينطــوي عــلى تعصــب؛ لأن كلًّا منهــما ينحــاز إلى آرائــه بشــكل مطلـق، وينفـي الآخـر، ولا يقبـل مناقشـة أفـكاره. وهـذا مـا يمكـن أن نلمسـه في موقفهـما مـن الديـن. ومـع أهميـة الديـن القصـوى، فـإن الخطـاب الدينـي يبـدو في وضـع يتميـز بالخلـط والالتبـاس، نتيجـة صراع الإخـوة الأعـداء؛ حيـث يجـد المسـلم نفسـه بـين تياريـن متعصبـين أصبـح لهـما السـيادة في الجـدل الجـاري عـلى مختلـف السـاحات، أعنـي تيـار التطـرف العلـماني وتيـار التطـرف الدينـي؛ إذ يتـصرف التيـار الأول وكأن اللـه غـير موجـود! بينـما يتـصرف التيـار الثـاني وكأن الإنسـان غـير موجـود! بمعنـى أنـه ينـزع مـن الإنسـان كل فاعلياتـه ومسـئولياته ومواهبـه. التيـار الأول جعـل إلهـه المـال والرفاهيـة والتحـرر، والتيـار الثـاني يفهـم تعاليـم اللـه عـلى أنهـا تعاليـم شـكلية حرفيـة تتعلـق بالعقـاب والقهـر والتسـلط ولا تتعلـق بالضمـير والـروح والعمـل والتنميـة.

وكلا التياريــن - عــلى الرغــم مــن تعارضهــما - يشــترك دون أن يعــيَ ذلــك في

مجموعة من الصفات التي تجعل الصراع بينهما صراعًا عقيمًا، وأهم صفة مشتركة بينهما هي «وهم امتلاك الحقيقة المطلقة»، فكلاهما يزعم أنه وحده الذي يعرف الحقيقة ويمتلك مفاتيح الخلاص. ولذلك فكلاهما متعصب، وكلاهما دوجماطيقي، وكلاهما يجرنا إلى حافة الهاوية!

5- الأقدام الفخارية للتجمد الديني (1)

إن التجمد الديني الذي تعيشه أمتنا يرجع لأسباب كثيرة لا تعدو أن تكون أقدامًا فخارية لقصور من الرمال، ولا تخرج عن كونها الأساطير المؤسسة للأوهام التي نحياها. ولعل أهم هذه الأقدام الفخارية هي التقليد المطلق للآراء والمذاهب والجماعات؛ فالتقليد عقبة كبرى أمام التجديد الديني؛ وهو السبب في بناء قصور من الوهم التي تعيق النظر والتواصل مع الواقع الحي، والمقلد لا يرى الفكر الديني إلا بناءً حديديًّا غير قابل للتطور والتحديث، وغير قابل لإعادة الفهم وفق ظروف الزمان والمكان وما يستجد من أحوال أو يتبدل من متغيرات!

ولا ينسحب هذا النقد فقط على العلوم الإنسانية والمذاهب الفقهية التي نشأت لفهم الدين، وإنما ينسحب أيضًا على المذاهب اللادينية التي تفشل فشلًا ذريعًا عندما تتجمد ويصبح التقليد منهجها، والتفسير الحرفي المطلق وسيلتها، متجاهلة طبيعة التفكير العلمي وسنن الواقع. وعلى سبيل المثال فإن الماركسيين التقليديين يزعمون أن تعاليم ماركس وإنجلز ولينين إنما هي مبادئ وقواعد مطلقة تصلح لكل زمان ومكان! وقد اتهم الماركسيون الحرفيون المقلدون الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي عندما كان لا يزال

ماركسيًّا، بالتحريفية لما حاول تجديد الماركسية واتهموه بالمروق عنها (يمكن الرجوع لكتابنا عن جارودي «نصف قرن من البحث عن الحقيقة»)؛ فالمقلدون حتى لو كانوا «لادينيين» يحملون عقولًا تشبه في طريقة عملها عقول المقلدين في الدين! ولا يزال مقلدو الماركسية يعيشون في أوهامهم على الرغم من أن التجارب أثبتت فشل الماركسية الأصولية الذريع حتى في مواءمة ظروف العصر الذي نشأت فيه: النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين. وذلك في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، بل وفي بعض البلدان العربية. فما بالنا بالفشل الذي ستمنى به لو طُبقت في عصور أخرى دون أن يطرأ عليها تطوير جذري!

إن الرجال الذين تربوا على رؤية «الإسلام الأول» للعالم، وما انبثق عنها من نظريات في المعرفة والبحث عن الحقيقة، أدركوا أن الجهد البشري «نسبي» في إدراك الحقائق، وأنه لا أحد يملك الحقيقة كلها. وأدركوا أن الحق يُعرف بذاته لا بالتقليد، قال ابن عبد البر: «إنه لا خلاف بين أئمة أهل الأمصار في فساد التقليد». وذكر ابن القيم عن أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما قالا: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه»، وهذا تصريح بمنع التقليد؛ لأن من طلب الدليل فهو مجتهد يأخذ بالحجة وليس بالقول وحده، أما المقلد فهو الذي يقبل القول ولا يطالب بحجة.

إن القرآن ضد فكرة التقليد بحجة التقليد في حد ذاتها دون برهان حاسم، فالحق مقياس نفسه، وفق معايير الواقع والعقل البرهاني والوحي المبين، واليقين المستند إلى التقليد مرفوض وضد نصوص القرآن الذي يرفض بوضوح تقليد السابقين دون الاستناد إلى براهين محكمة تحمل الحق في ذاتها،

فقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {31/ 20} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ {31/ 21}) [لقمان:20 - 21]، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ {2/170} وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ {2/171}) [البقرة: 170 - 171]. وانتقد القرآن الكريم بحسم الذين: (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {26/74}) [الشعراء: 74].

إن المرجعية النهائية في الدين ليست لأية سلطة سوى كلمة الله التي اكتملت باكتمال نزول القرآن الكريم، وسنة النبي التي جاءت بوحي إلهي، وثبتت نسبتها إليه، دون الضعيف والمرسل والمنقطع والموقوف والموضوع... إلخ.

والمصيبة كلها نشأت عند ظهور الصراع السياسي على السلطة ونشأة الخوارج. لكن الصحابة والأئمة على موقف واحد في نبذ طريقة المقلدين والخوارج في كل العصور الذين يؤكدون معتقداتهم وآراءَهم عن طريق دعمها بسلطة أمراء الجماعات أو الآباء أو الأجداد أو المفكرين أو العلماء أو غيرهم من أصحاب السلطة، وهذا ما أسماه الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون «أوهام المسرح»، وهي الأوهام التي تنشأ عن الاعتقاد في صحة كل ما يقوله القدماء؛ حيث يعتقد بعض الناس أن القديم كله صحيح لمجرد أنه صدر عن فقيه كبير من الفقهاء أو فيلسوف كبير من ذوي الأسماء الكبيرة في تاريخ الإنسانية. والناس يخطئون عندما يتلقون آراء القدماء دون تمحيص ونقد. ويرى بيكون أنه لا بد من النظر إلى نظريات القدماء

ومذاهبهم على أنها تشبه المسرحيات؛ فكلاهما مخترع ولا علاقة له بالواقع الفعلي (The Philosophical Works of Francis Bacon).

هكذا تلتقي كلمة العقل مع كلمة الوحي مؤكدة أن الماضي «ليس بذاته وفي ذاته حجة»، وكل المقلدين يخطئون عندما يقفون عند حجة الماضي المتهافتة، ومنطقهم الأعوج ينطق ببطلانه: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ {43/23} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ) [الزخرف: 23 - 25].

6- الأقدام الفخارية للتجمد الديني (2)

فشلت كل محاولات مرتدي ثوب العقلانية في عالمنا العربي في الوصول إلى الجماهير وإيجاد صحوة ثقافية، وأغلب العقلانيين العرب أنفسهم ما هم إلا متعصبون أيضًا؛ لأن عقلانيتهم غير محكومة بمعايير العقل النقدي، ومن ثَمَّ شاركوا في حالة «التجمد الفكري» التي نحياها؛ فهم يقفون على الأقدام الفخارية نفسها التي يقف عليها «التجمد الديني»، مثل: التقليد، والتعصب، والعقل المغلق، والاستئثار بالحقيقة، ونفي الآخر، وثقافة التسلط، وثقافة التآمر، والانغلاق على نظام قيم معين بصورة جامدة، وثقافة التبرير، وعدم الرغبة في فتح قنوات للحوار والبحث عن أرضية مشتركة راسخة تقوم على الحقائق البديهية التي يلتقي عندها جميع الإخوة الأعداء.

إن عقلانيتهم عقلانية تقليد وليست عقلانية نقدية، لأنها إما تقليد حرفي للمعتزلة المغرقة في النظريات العقائدية بلا طائل، أو تقليد سطحي للعقلانية الغربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر التي انتهى زمانها.

إن العقلانية السائدة اليوم ليست عقلانية حقيقية، إنها عقلانية مصطنعة تحلق خارج التاريخ، ومنعزلة عن الوعي بالواقع المعيش. إن عقلانيتهم تزعم امتلاك الحقيقة كلها وتنفي الآخر؛ ولذا تقع في فخ التعصب لقدرة العقل المطلقة مثل التيارات النقلية الحرفية المتعصبة للنصوص دون فهم أو تمييز!

ولا تقع المسؤولية عن حالة التجمد الديني على رجال الدين فقط، بل تقع أيضًا على المفكرين والأكاديميين والمثقفين والإعلاميين؛ فالجميع شركاء في المسؤولية عن حالة العقل العربي التي دخلت في حالة «تجمد» منذ قرون ولم نستطع الخروج منها حتى الآن؛ بسبب الفشل في إسقاط الأقدام الفخارية للتجمد الفكري العام، والتجمد الديني خاصة. وبالتالي فإن النقد يجب ألا يوجه فقط للتيارات الدينية المتعصبة، وإنما يوجه بالمثل لإخوانهم الأعداء من المفرطين في العقلانية والمتعصبين لأفكارهم إلى أبعد مدى، مع أن الأصل في العقلانية هو العقل التواصلي والانفتاح والحوار والنسبية.

إن التعصب - أكرر - ليس وقفًا على بعض التيارات الدينية التي تعاند العقل النقدي المنضبط بحدود الواقع، وإنما يطال خصومهم من المتعصبين تعصبًا كليًّا لقدرة العقل المطلقة؛ فالعقلانيون تيارات متنوعة، وليسوا كتلةً واحدةً أو فريقًا واحدًا، بل إن منهم المتعصب الذي يبني قصورًا من الرمال عندما ينساق وراء العقل وحده بعيدًا عن الواقع الحي، مؤمنًا إيمانًا مطلقًا بقدرة العقل دون شرط أو قيد، وهنا يقع المفرط في العقلانية في شباك الدوجماطيقية التي أشرنا إليها مرارًا؛ حيث «يذهب إلى إثبات قيمة العقل وقدرته على المعرفة وإمكان الوصول إلى اليقين، وإذا كان مذهب الشك يوصي بالامتناع عن إثبات الحقائق أو نفيها، فإن العقلانية الدوجماطيقية ترى أن العلم الإنساني

لا يقف عند حد، وتؤكد قدرة العقل على المعرفة والتوصل إلى اليقين دون أية مساندة من التجربة. وقد سارت هذه النزعة في فلسفة بعض العقليين إبّان القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ونحا نحوها التجريبيون الذين أكدوا إمكان المعرفة عن طريق التجربة» (مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي). ولذا بحسب وجهة نظرنا فإن الملحدين والمنكرين للعقائد الدينية متعصبون كذلك؛ لأن موقفهم العقلي غير منضبط ويستند إلى يقين مطلق وثقة كاملة في صحة موقفهم وتصوراتهم وفي جزمهم بعدم وجود الله، على الرغم من أنهم لم يحيطوا علمًا بالكون ولا بأنفسهم! يا لها من سذاجة!

ونجد هذا التعصب الدوجماطيقي نفسه - لكن باعتباره طرفًا نقيضًا - عند بعض التيارات في علم الكلام وبعض علماء أصول الدين؛ حيث يؤكدون على قدرة العقل التي يزعمون مطلقيتها، ويعطونها الحق في تناول الصفات الإلهية، دون أية شروط أو حدود! بينما في المقابل يبالغ آخرون في إنكار العقل ويؤكدون هيمنة المعنى الحرفي للنص المرجعي دون محاولة للتفاعل معه أو تفعيله في إطار التنزيه. ومن ثَمَّ يفهمون آيات الصفات فهمًا تشبيهيًّا أو تجسيميًّا استنادًا للفهم الحرفي الظاهري لبعض النصوص، كما يفهمون آيات الأحكام بالمثل فهمًا حرفيًّا دون مراعاة الواقع المتغير وقواعد علم أصول الفقه. إن إنكار العقل نهائيًّا دوجماطيقية، وفي المقابل إن إثبات قدرة العقل المطلقة دوجماطيقية واضحة أيضًا. إنها العملة نفسها لكن من وجهها الآخر!.

وللتعصب العقلي أشكال ساذجة، مثل التعصب الساذج الذي نجده عند بعض مشجعي كرة القدم، بل مثل التعصب الذي نجده منتشرًا في عصرنا

عند رجل الشارع، فرجل الشارع يفتي في كل شيء وهو متعصب لتصوراته تعصبًا أعمى؛ إنه يملك الإحاطة بكل شيء: السياسة والعلم والفن والدين والاقتصاد! فهو يتصور نفسه ذكيًا جدًّا وعالمًا جدًّا وقائدًا لا نظير له!

إن تعصب رجل الشارع مثله مثل تعصب النخبة لا يختلف عنه إلا في المظهر وطريقة التعبير. وهذ التعصب قرين التقليد الأعمى دون برهان، وكلاهما من الأقدام الفخارية التي تقوم عليها حالة «التجمد الديني»، وهما مجرد قدمين من أقدام كثيرة يقوم عليها هذا التجمد الأخطبوطي العقيم. أليست هذه هي أركان ثقافتنا المعاصرة كلها الآن، وليست أركان الثقافة الدينية فقط؟ أو ليست هذه هي العوائق التي تغلق عنق الزجاجة التي لم نستطع الخروج منها على الرغم من المحاولات الفردية من بعض المفكرين ورجال الدين؟

7- اللاعقلانية ولعبة الموت: هل لا نزال نعيش في «زمن واحد» منذ مقتل عثمان؟

إن التاريخ الثقافي لهذه البقعة من العالم يحوي تناقضات وصراعات مصالح موروثة من عصور صراع المذاهب والفرق الدينية على السلطة والإمامة منذ لحظة مقتل عثمان رضي الله عنه، والعالم في أغلبه دخل عصور الحداثة، بينما نحن لا نزال نعيش أجواء الماضي، لا نزال نعيش في «زمن واحد» منذ مقتل عثمان رضي الله عنه وإلى الآن، ولم ندخل بعد «زمنًا جديدًا»!

وهذا الزمن الذي نعيشه هو زمن «الحروب الطائفية» التي يسكنها ويحركها العقل المغلق، ومن هنا تجدنا في دائرة مقيتة من التعصب الذي يولّد تعصبًا مضادًا في دائرة جهنمية لا تتوقف ولا تنقطع.

وهـذه الدائـرة الجهنميـة المغلقـة تولـد الإرهـاب بـكل الجوانـب اللاعقلانيـة فيـه، وبـكل مـا ينطـوي عليـه مـن «تناقضـات باطنيـة» تحركـه عـلى مسـتوى الأفـكار وعـلى مسـتوى الواقـع. وحتـى الآن وعـلى الرغـم مـن تجـاوز «عـوالم المـاضي» في النظـام الاقتصـادي وتكويـن الطبقـات الاجتماعيـة، فـإن المجتمـع لم يحـل بعـد تناقضاتـه الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية؛ ولـذا فإنـه لا يـزال ينجـب حفّـار قـبره.

وحفـار قـبره هـو الإرهـاب بـكل فيـه مـن لاعقلانيـة وغبـاء وحمـق. ويظـل الإرهـاب - عـلى الرغـم مـما يبديـه مـن قـدرة عـلى التدمـير - عاجـزًا وقـاصرًا ومنهـارًا، لأنـه يدفـع إلى فعـل كل شيء ولا يتـوانى عـن أي شيء مهـما كان لاأخلاقيًّـا - مـن أجـل انتصـار قضيـة تسـيطر عـلى عقلـه المغلـق.

والغريـب حقًّـا أن الإرهـاب يتوشـح بالديـن، عـلى الرغم مـن أنـه - أي الإرهاب - لا يحـده سـقف أخلاقـي مـن أي نـوع؛ ولا يميـز بـين مـا هـو «أخلاقـي» و«غـير أخلاقـي» في الـصراع؛ ومعـه صـار مبـدأ ميكيافـلي «الغايـة تـبرر الوسـيلة» مبـدأً مطلقًـا لا يقـف عنـد مسـتوى!

حيـث توجـد حالـة مـن العمـى وعـدم القـدرة عـلى التميـز؛ لأنـه ينطلـق مـن موقـف شـديد التشـنج والخطـورة مـن شـأنه أن يـؤدي إلى أعـمال بالغـة الشراسـة ضـد الآخريـن، وإلى أعـمال انتحاريـة يـروح ضحيتهـا عـادة الإرهابيـون أنفسـهم!

إنهـا حالـة مـن اللاعقلانيـة المطلقـة يضحـي فيهـا الإرهـابي بـكل شيء: وطنـه وأرضـه وناسـه وعرضـه؛ مـن أجـل انتصـار قضيتـه! لا مانـع عنـده مـن تقسـيم بلـده، ولا مانـع عنـده مـن تشريـد نسـائها وأطفالهـا وشـيوخها، ولا مانـع عنـده

مـن هـدم المعبـد عـلى كل مـن فيـه، لا شيء يهـم سـوى انتصـار «رؤيتـه للعـالم» ووصولـه إلى الحكـم حتـى لـو في أرض منهدمـة ووطـن مقسـم تسـتحي فيـه النسـاء وتضيـع فيـه الأعـراض، وتتحقـق فيـه أغـراض الإمبرياليـة العالميـة.

دائـرة متكاملـة مـن «اللاعقلانيـة» و«اللاأخلاقيـة» تحكـم العمـل الإرهـابي؛ لأنـه لا يراعـي أي عُـرف، ولا توقفـه أيـة حُرمـة اجتماعيـة أو دينيـة، كـما أنـه لا يراعـي أيـة قاعـدة أخلاقيـة تشـكل عائقًـا في سـبيله؛ إذ إنـه يضـع بتصرفـه جميـع الطـرق والأسـاليب والوسـائل الممكنـة دون أن يتراجـع أمـام الصعـاب مهـما بلغـت خطورتهـا لأنـه يلعـب «لعبـة المـوت» فقـط، المـوت مـن أجـل حيـاة بعينهـا يريدهـا دون غيرهـا، حيـاة يكـون فيهـا هـو «السـيد» وحـده.

فـكل مـا هـو «ممكـن» عنـد الإرهـابي، هـو أيضًـا «مسـموح بـه» و«مبـاح»، والغايـة تـبرر الوسـيلة، وكل مـا هـو «نافـع وفعّـال» فهـو «ضروري» و« أخلاقـي»! ولا يمكـن التخـلي عنـه لأي سـبب مـن الأسـباب خـارج مسـتلزمات مصالحـه السياسـية التـي تهـدف بالأسـاس إلى التغلـب عـلى عـدو غـير حقيقـي في معركـة مزيفـة! فالمهـم أن ينجـح؛ لذلـك لا يفـرق بـين «الدينـي» و«اللادينـي»، ولا يميـز بـين «الأخلاقـي» و«غـير الأخلاقـي»، وبـين «القانـوني» و«غـير القانـوني»، وبـين «الوسـائل الإنسـانية» و«الوسـائل غـير الإنسـانية»، مهـما بلغـت حـدًا قصيًـا مـن العنـف اللاأخلاقـي واللاعقـلاني. فهـو لا يتـوانى عـن ضرب أي هـدف يقـع في مرمـى يـده، سـواء كان مـن الممتلـكات العامـة أو الخاصـة، أو كان إنسـانًا عاديًـا أو أيـة شـخصية تخالفـه الـرأي أو جنديًـا يـؤدي الخدمـة العسـكرية، عندمـا يـرى هـو أن عقلـه المغلـق يتحقـق في هـذا الفعـل.

إن الإرهـابي إذ يحـاول محـو الاضطهـاد والـشرور والظلـم مـن وجهـة نظـره - يعمـد إلى الإمعـان في إثـارة آلام وشرور أخـرى أعمـق وأشـد.

فباسم أي حق وباسم أية أخلاق يتم تدمير وسائل وأسباب الحياة ويموت الأبرياء لمجرد أنهم يخالفون الإرهابي في الرأي؟ وباسم أية أخلاق لا يأمن الإنسان على نفسه وهو يشعر أنه مهدد بتصفيته جسديًّا من مخالفيه في التوجه أو العقيدة أو الأيديولوجية؟

في الواقع إن الإرهاب كسلاح في التعامل مع الخصوم هو سلاح بدائي يفقد قيمه وينقض أخلاقياته بسبب مبدأ عدم التمييز بين الأهداف والوسائل أو مبدأ الضربة العمياء.

إن محاولة التبرير الأخلاقي والعقلاني للإرهاب بالاستناد إلى الهدف - حتى لو كان نبيلًا ومشروعًا - يعني جعل «الأخلاق» مجرّد مجاملة للأمزجة والأهواء التي تسيطر على مجموعة بشرية أو طبقة أو حزب؛ ومِن ثَمَّ تفقد الأخلاق مضمونها وتتصدع قوانينها.

فبديهي إذن صعوبة، بل استحالة، فهم ظاهرة التعصب العقلي والإرهاب الدموي بالنسبة للأخلاق والمبنية على المبدأين الرئيسين: الخير والشر؛ إذ ليس بإمكان هذه الأخلاق أن تبرر التعصب والإرهاب، وإلا وقعت في التناقض والانتفاء والعبثية. فعلى مستوى الأخلاق تظل المسافة بين «العنف» و«الأخلاق» لا يمكن تجاوزها، كما لا يمكن ردم المسافة بين «الإرهاب» و«مقاصد الدين».

8- الكراهية وظاهرة العنف

يبدو أن الكراهية تراث إنساني عريق؛ وهي تتأجج وتظهر إلى الوجود لأسباب كثيرة، منها: الغيرة، وتباين الطباع، واختلاف الرأي، وتضارب

المصالح، والنزاعات العرقية، وتعارض الأديان، وصراع الأيديولوجيات السياسية، والاصطدام المهني.

وفي أحيان أخرى تكون الكراهية بسبب الاختلاف في «فهم الدين»، انظر إلى كراهية داعش لكل من تختلف معه، وكراهية الإخوان للسلفيين، والسلفيين للصوفية، والشيعة للسنة. انظر كيف يكره العلمانيون التيارات الدينية، وكيف تكره التيارات الدينية التيارات المدنية، ثم كيف تتحول هذه الكراهية إلى طاقة مولدة للعنف رغبة في التعبير عن نفسها، حيث تدفع إلى المظاهرات غير السلمية أو التفجير أو القتل أو الإيذاء البدني أو الإيذاء بالقول أو القطيعة أو الإقصاء.

وكل هذه الكراهية المؤججة للعنف بين المجموعات، بسبب الاختلاف السياسي الراجع إلى تباين المرجعية الدين؛ والغريب أن هذا الخلاف ليس بسبب الصراع من أجل مصالح الناس أو من أجل تمكين الدين، وإنما بسبب الصراع من أجل التمكين السياسي وتحقيق مصالح التيار أو الجماعة ولو على حساب الوطن أو الدين.

والسؤال: هل الكراهية هي التي تولد الخلاف أم أن الخلاف هو الذي يولد الكراهية؟

في مصر نجد الحالتين: مرة يبدأ الأمر بالخلاف وينتهي إلى الكراهية، ومرة يبدأ بالكراهية وينتهي إلى الخلاف، والنتيجة واحدة هي أن الكراهية هي التي تجمع وتوحد كل مجموعة ضد الأخرى، وكأن قول أنطون تشيخوف يصدق علينا: «الحب والصداقة والاحترام لا توحد الناس مثلما تفعل كراهية شيء ما». ومن هنا يمكن أن نفسر كل نزعات التدمير الموجودة عند جماعات

العنـف سـواء في مـصر أو خارجهـا، وهنـا يصـدق تعريـف أرسـطو للكراهيـة بوصفهـا الرغبـة في إبـادة الكائـن المكـروه. لكـن مـا لا يدركـه الـكاره الـذي يدمـر المكـروه أنـه يدمـر نفسـه أيضًـا، وهـذا مـا سـجله ديفيـد هيوم عندمـا اعتـبر أن الكراهيـة شـعور غالبًـا مـا يـؤدي إلى تدمـير الـكاره والمكـروه معًـا.

فمتـى تـدرك جماعـات العنـف أن مـيراث الكراهيـة الـذي تحملـه سـوف يدمرهـا هـي أيضًـا؟!

إن نطـاق الكراهيـة قـد اتسـع في عصرنـا أكـثر مـن أي وقـت مـضى، ومـن ثَـمَّ أصبـح نطـاق الـصراع أكـثر اتسـاعًا؛ ففـي العصـور الغابـرة كانـت الكراهيـة محـدودة لأن الإنسـان لم يكـن يعـرف إلا المحيطـين بـه، وقلـما يعـرف شـيئًا عـن أحـد سـوى هـؤلاء، أمـا الآن فنتيجـة لثـورة الاتصـالات مـن إذاعـة وتليفزيـون وصحـف صـار النـاس يعرفـون الكثـير بصـورة مـا عـن طبقـات وفئـات عريضـة مـن البـشر ليـس مـن أفرادهـا أحـد مـن معارفهـم المباشريـن، وعـن طريـق السـينما يخالـون أنهـم يعرفـون كيـف يعيـش الأغنيـاء، وعـن طريـق الصحـف يعرفـون الكثـير مـن شرور الأمـم الأجنبيـة، وعـن طريـق الدعايـة يعرفـون الكثـير عـن الممارسـات الشـائنة التـي ينغمـس فيهـا كل مـن تختلـف صبغـة بشرتهـم عنهـم، فالبيـض يكرهـون السـود، والمتدينـون يكرهـون غـير المتدينـين، وأهـل التقليـد يكرهـون أهـل الفكـر، وهلـم جـرًّا.

وأغلـب أشـكال العنـف تخـرج مـن تلـك الدائـرة «دائـرة الكراهيـة»، بـل إن صراع الأديـان ضـد بعضـه بعضًـا غالبًـا مـا يكـون نابعًـا مـن الكراهيـة .. كراهيـة الديانـة الأخـرى لاختلافهـا عنهـا في القيـم والعـادات ورؤيـة العـالم؛ وربمـا كراهيتهـا لأن أهلهـا مختلفـون عنهـا في لـون البـشرة! ويكفـي أن تسـتعرض

شائعات الغرب عن الإسلام أو العرب أو السود على سبيل المثال لكي ترى أنها لم تصدر إلا عن شعور بالكراهية غير المبررة منطقيًّا في كثير من الأحوال.

وفي مصر غالبًا ما ينجح الإعلام المناهض في إثارة مشاعر الكراهية؛ ربما لأن القلب المصري عند بعض الجماعات والطبقات الاجتماعية - على نحو ما تمت صياغته في الثلاثين سنة الأخيرة - أميل إلى الحقد والكراهية منه إلى المودة والصداقة، وهو ميال إلى الكراهية لأنه ساخط، ولأنه يشعر في أعماقه - وربما على نحو لاشعوري - أنه قد فاته معنى الحياة، وأن الآخرين ربما كانوا حاصلين على ما لم يحصل عليه من المتعة.

وفي بعض الأحيان يكون سبب الكراهية غير ظاهر عكس الأسباب السابقة، بل يكون كامنًا في النفس البشرية؛ حيث تجد بعض النفوس لا تأتلف فيما بينها، وتجد شخصًا ما لا يتقبل شخصًا آخر، بل يكرهه، لا لشيء ظاهر. وهذا النوع يفسر على أنه يرتد إلى سبب نفسي أو روحي؛ فالأرواح - وإن شئت النفوس - جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

ومما تنتجه الكراهية أيضًا إصدار الشائعات وتناقلها، ومن الشائعات التي تعبر عن الكراهية تلك الشائعة التي انتشرت أثناء حملة الانتخابات الرئاسية سنة 1944م في الولايات المتحدة الأمريكية، عندما ذاعت شائعة على شكل أغنية من المفترض فيها أن المتحدث هو فرانكلين روزفلت (1882 - 1945م) موجهًا الحديث إلى زوجته، وكان روزفلت قد رشح نفسه لفترة رئاسية رابعة، تقول الأغنية الشائعة: «عليك أن تقبلي الزنوج، وعليّ أن أقبل اليهود؛ وبهذا نظل في البيت الأبيض حسبما نريد». فهذه الأغنية الشائعة

تعبر عن كراهية خصوم روزفلت له، فضلًا عن تعبيرها عن كراهيتهم لكل من الزنوج واليهود.

وفي مصر وبعض الدول العربية الآن لا تنتج الكراهية شائعات فقط، بل تنتج أيضًا اغتيالًا معنويًّا لكل ما هو جميل من تاريخنا وديننا!

9- قابيل وهابيل .. يعودان من جديد!

لا تزال قصة قابيل وهابيل التي تحكي الجريمة الأولى للإنسان حاضرة بظلالها، ولا يزال بعض المسلمين غير واعين بأنهم يعيدون كتابتها بأحرف من نار، لكن بتنويعات أخرى.

والقصة الأولى الحقيقية تولد قصصًا جديدة في السياسة والحياة الاجتماعية والاقتصادية وكل معارك الحق والباطل. «الثوابت» واحدة في كل القصص: غيرة الأخ من أخيه، الحسد الدافع للتدمير، الصراع على نوال الرضا الإلهي بطرق مشروعة وطرق غير مشروعة، عدم القبول بما قسمه الله، الرغبة في الاستحواذ والامتلاك أو التمكين، وعند الفشل الحل هو القتل: قتل الأخ لأخيه.

تقول القصة الأولى في القرآن الكريم: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {5/27} لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {5/28} إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ {5/29} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {5/30} فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ

يُـوَارِي سَـوْءةَ أَخِيـهِ قَـالَ يَـا وَيْلَتَـا أَعَجَـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْـلَ هَـذَا الْغُـرَابِ فَـأُوَارِيَ سَـوْءةَ أَخِـي فَأَصْبَـحَ مِـنَ النَّادِمِـينَ {5/31}) [المائـدة: 27 - 31].

وإذا كانـت "الثوابـت" في القصـة الأولى واحـدة ومتكـررة في القصـص اللاحقـة، فـإن "المتغـيرات" متعـددة في كل قصـة جديـدة لكـن التيمـة الرئيسـة مشـتركة؛ فالقصـة الأولى حسـب بعـض الرويـات كانـت حـول الـصراع عـلى الـزواج مـن الأخـت الجميلـة، بينـما في القـرآن كانـت حـول الـصراع عـلى تقبـل القربـان مـن اللـه، ثـم تتكـرر القصـة بتنويعـات مختلفـة عـلى اللحـن ذاتـه: فيكـون الـصراع حـول المـيراث، وعنـد بعـض الإخـوة حـول المكانـة فيقتـل الأخ أخـاه سـواء قتـلًا ماديًّـا أو معنويًّـا أو يرميـه في الجـب (يوسـف). وتتكـرر القصـة في السياسـة فبـدلًا مـن الـصراع حـول خدمـة النـاس ونـشر الأخـلاق والقيـم والنهـوض بالوطـن، يكـون الـصراع حـول «السـلطة والحكـم»، وبـدلًا مـن الـصراع حـول «الـزواج مـن الجميلـة» يكـون الـصراع حـول «التمكـين مـن السـلطة»، تـارةً امـرأة وتـارة السـلطة .. مـا الفـرق؟

ومـرة يكـون «البطـل المسـاعد» عـلى إخفـاء نتيجـة الجـرم هـو الغـراب، ومـرة أخـرى تكـون أبـواق الدعايـة والتضليـل هـي التـي تقـوم بنفـس دور الغـراب!

ما هذه الدماء التي تراق في العالم الإسلامي دونما غيره من العوالم؟

هل الإسلام هو دين الدم والقتل .. قتل المسلم وأهل الوطن؟

هـل مـن الجهـاد في شيء الانتحـار الـذاتي وإلقـاء النفـس إلى التهلكـة؟ ألم يقـل سـبحانه: (وَلاَ تُلْقُـواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ) [البقرة: 195]؟! وألم يقل أيضًا: (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَـكُمْ إِنَّ اللّـهَ كَانَ بِكُـمْ رَحِيـمًا {4/29}) [النسـاء: 29]؟! أي لا تقتلـوا أنفسـكم

ولا تدعوا غيركم يقتلكم، أو كما قال الواحدي: (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ)، أي لا يقتل بعضكم بعضًا. وقال الجصاص: «وليس يمتنع أن يكون جميع هذه المعاني مرادة بالآية لاحتمال اللفظ لها وجواز اجتماعها من غير تضاد ولا تنافٍ...» (أحكام القرآن).

ألم يسمع هؤلاء وأولئك قول الرسول ﷺ: «لَزَوال الدنيا أهون على الله سبحانه وتعالى من قتل رجل مسلم».

لا أدري كيف يفهم القتلة قول الرسول في حجة الوداع للناس: «أي اليوم هذا؟ قالوا: يوم الحج الأكبر. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا». وقال ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا».

لماذا يسارع البعض في إراقة الدماء أو التشجيع عليها، مع أن الرسول ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول! قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه».

إن القرآن الخالد يعتبر هؤلاء مسرفين في الأرض، وهم مسرفون ليس فقط في الدماء: دماء أنفسهم أو دماء خصومهم، بل مسرفون في تفكيرهم القائم على التكفير وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وهم مسرفون في البحث عن السلطة والسيادة، وهم مسرفون في الإقصاء والنبذ ورفض الآخر.

فالإسراف سمة لتفكيرهم وأفعالهم، رغم أن دينهم جاء بالبينات، لكنهم يؤولون هذه البينات لتتفق مع عقولهم ولتبرر أفعالهم. ولذلك فإن القرآن الخالد بعد أن يَنهى عن قتل النفس، أية نفس، مستخدمًا أسلوب التنكير

الـذي يفيـد العمـوم والشـمول، يوسـع دائـرة الحكـم عليهـم، فهـم ليسـوا مسرفـين في القتـل فقـط بـل هـم مسرفـون في «الأرض» عمومًـا، (مَـن قَتَـلَ نَفْسًـا بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعًـا وَمَـنْ أَحْيَاهَـا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّـاسَ جَمِيعًـا وَلَقَـدْ جَـاء تْهُـمْ رُسُـلُنَا بِالبَيِّنَـاتِ ثُـمَّ إِنَّ كَثِـيرًا مِّنْهُـم بَعْـدَ ذَلِـكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُـونَ {5/32}) [المائـدة: 32].

وهـذه إحـدى مميـزات القـرآن الكـبرى، يـورد الحادثـة الجزئيـة، لكنـه يقـدم منهـا درسًـا يصلـح لـكل زمـان ومـكان؛ فالقصـص في القـرآن للعـبرة لا مجـرد الحكايـة. ولـذا جـاءت الآيـة الأخـيرة بعـد قصـة هابيـل وقابيـل.

إن قتـل نفـس واحـدة مثـل قتـل النـاس جميعًـا؛ فالـروح قبـس إلهـي تشـترك فيـه البشريـة كلهـا، وهـذا اعتـداء عـلى القبـس الإلهـي الذي وضعـه في كل إنسـان.

والغريـب أن الإسـلام يـأتي حافظًـا للنفـس مدافعًـا عـن الحيـاة، بينـما بعـض أتباعـه يقتلـون النفـس ويهـدرون الحيـاة. يـأتي الإسـلام داعيًـا للوحـدة، لكـن المتأسـلمين يسـلكون كل الـدروب لشـق صـف المسـلمين، يحـذر الإسـلام مـن الفتنـة فيخـرج بعـض الشـيوخ معتبريـن الفتنـة هـي الطريـق لسـيادة الديـن. ويدعـو بعـض المتمشـيخين إلى الشـهادة بينـما يهربـون بأنفسـهم طالبـين النجـاة! ويشـجعون العمليـات الانتحاريـة، ولم يمـت أحـد منهـم إلى الآن!

10- إعادة تصدير الإرهاب

إن المسـلمين الأحـرار الأوائـل لم يعرفـوا هجـمات الإرهـاب والغـدر في مجتمعهـم الأول في مكـة، وعـلى الرغـم مـن كل ألـوان الظلـم والاضطهـاد التـي كانـوا يتعرضـون لهـا، لم يقـم أحـد منهـم بهجمـة إرهابيـة واحـدة ضـد المجتمـع

الـذي يعيـش فيـه، ولم يخوضـوا حربًـا إلا بجيـش منظـم عندمـا أصبحـت لهـم دولـة في المدينـة المنـورة، وأصبحـت الجيـوش تحـارب الجيـوش، ولم تـروِ كتـب السيرة أن النبـي ﷺ حـارب أيـة طائفـة مـن المسـلمين، وأبـو بكـر مـا خـاض حـروب الـردة بمجموعـات إرهابيـة ضـد جيـش دولتـه، وإنما بجيـش منظـم ضـد الخارجـين عـلى الدولـة ونظامهـا العـام، مـن أجـل تماسـك الدولـة لا مـن أجـل زعزعـة الدولـة. فالإرهـابي يخـدع نفسـه لـو ظـن أنـه بعملـه ضـد النظـام العـام للدولـة يسـير عـلى درب خاتـم الأنبيـاء، ويخـدع نفسـه أيضًـا لـو اعتقـد أنـه يشـبه أبـا بكـر مـن قريـب أو بعيـد، حاشـاك يـا مـن أرسـلك اللـه رحمـة للعالمـين، وحاشـاك يـا أول الخلفـاء الراشـدين.

إن الإسـلام الحـر لا يعـرف الإرهـاب الـذي نشـأ مـع الخـوارج ذوي العقـول المغلقـة التـي توهمهـم أنهـم يقضـون عـلى الـشرور في العـالم؛ بينـما هـم يزيدونها؛ فالإرهـابي إذ يحـاول محـو الاضطهـاد والظلـم - يعمـد إلى الإمعـان في إثـارة آلام وشرور أخـرى أعمـق وأشـد، إنـه لا يراعـي أي عُـرف وأيـة حُرمـة اجتماعيـة أو وطنيـة، كـما لا يراعـي أيـة قاعـدة أخلاقيـة سـوى مـا يتوهـم أنـه الخـير! ولا تشـكل حرمـة الحيـاة الإنسـانية عائقًـا في سـبيله؛ إذ إنـه يضـع بتصرفـه جميـع الطـرق والأسـاليب والوسـائل الممكنـة دون أن يتراجـع أمـام الصعـاب مهـما بلغـت خطورتهـا؛ لأنـه يلعـب لعبـة المـوت فقـط.

والإرهـاب بشـكله التقليـدي في العقـود الأخـيرة، هـو إرهـاب غبـي؛ لأن خسـائره أكـثر مـن مكاسـبه؛ ولأنـه إرهـاب خـارج قواعـد الحـرب لا يلتـزم بأيـة أخـلاق في المواجهـة، مثلـه في هـذا مثـل إرهـاب المسـتعمرين ضـد الشـعوب المحتلـة، الفـرق بينهـم فقـط أن الإرهـاب الأول يرفـع شـعار الديـن، والآخـر يرفـع

شعار القانون الدولي وتعمير البلدان المتخلفة (لاحظ المعنى اللغوي لكلمة استعمار).

أما الإرهاب اليوم فهو مركب الغباء؛ لأنه يترك الشر الحقيقي، ويحارب أهله ووطنه وجيرانه وجيش وطنه في معركة لن تنتهي إلا بخسارته هو حتى لو فاز فيها؛ لأن فوزه يعني ضياع الوطن في سلسلة لا تنتهي من الحروب الأهلية؛ سيكون المنتصر الحقيقي فيها هم الأعداء التاريخيون للأمة العربية والإسلامية. وهؤلاء ينعمون الآن بأروع لحظات السلام؛ فهم لا يخوضون الحروب بأنفسهم، بل بالوكالة؛ فعدوهم يحارب عدوهم، الإرهاب يحارب المسلمين.

وهذا هو أذكى سيناريو، حيث أعاد المستعمرون تصدير الإرهاب إلى الشرق، وداوني بالتي كانت هي الداء. الداء هو الإرهاب الذي يعاني منه المستعمر الأجنبي؛ إذن نعيد تصدير الإرهاب، فلا نقضي على الإرهاب الآتي من أفغانستان، بل نعيد تصديره، ولتكن ميناء الوصول هي سيناء لضرب مصر؛ المحطة الأخيرة.

فقد تمت صناعة الإرهاب المنظم في أفغانتسان. وفي البداية كانت ظروف إنشائه لا علاقة لها بالإرهاب، بل كان جهادًا من أجل تحرير أفغانستان من الغزو السوفيتي الأجنبي، ثم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، خرج الوليد عن السيطرة، وتحول إلى هدف دولي جديد. وهنا تمت تسميته بالإرهاب، لأنه استهدف المدنيين، وكان لا يميز في ضرباته بين المشروع واللامشروع، والغاية عنده تبرر الوسيلة، مهما كانت بشاعتها أو مخالفتها لأخلاق الحروب؛ إذ كان يتبع مبدأ الضربة العمياء.

ثـم انتقلـت القـوى العالميـة النافـذة إلى مرحلـة جديـدة من الـذكاء الإسـتراتيجي لتوظيـف الإرهـاب لتحقيـق إسـتراتيجيتها في الـشرق الأوسـط بفكـر جديـد وسـيناريو واضـح إلا للأغبيـاء غبـاءً مركبًـا؛ فبعـد أن فشـلت في القضـاء عـلى الإرهـاب، وإن كانـت حققـت مكاسـب أخـرى كثـيرة منـه، وبـدلًا مـن أن تواصـل محاربتـه، صنعـت الظـروف - أو اسـتغلتها - لإعـادة تصديـر الإرهـاب، وفتحـت لـه مـلاذًا آمنًـا في سـيناء بعـد الثـورة المصريـة، مسـتغلة انشـغال المصريـين بالـصراع عـلى السـلطة، ومسـتغلة مطامـح بعضهـم للتحالـف معهـا للوصـول إلى السـلطة والتمكـين منهـا حتـى لـو كان الثمـن هـو مـصر. وهـذا الإرهـاب المعـاد تصديـره بـدلًا مـن أن يحـارب المحتـل الأجنبـي أو قواعـد الاسـتعمار، أو يعيـد تكييـف نفسـه مـن أجـل إعـادة بنـاء بلـده، يقـوم بتصويـب سـلاحه نحـو أبنـاء وطنـه! ولتنعـم قـوى الاحتـلال الأجنبـي في العـالم بلحظـات سـلام لم تشـهدها مـن قبـل!

لكـن هـذه المـرة لا يـدرك الإرهـاب أنـه يُنجـب حفّـار قـبره؛ لأنـه إذا كان نجـح في البقـاء رغـم خسـائره وخسـائر أمتـه في العقـود الأخـيرة؛ فسـبب هـذا البقـاء أنـه كان يحـارب عـدوًّا خارجيًّـا، أمـا الآن فإنـه يحـارب بنـي جلدتـه الذيـن سـيضيقون عليـه الخنـاق يومًـا بعـد يـوم، وهـو نفسـه سـيقضي عـلى نفسـه بمـا يحـوي مـن تناقضـات وصراعـات وتخبـط، وسـينتهي إمـا إلى جـدران السـجون أو منصـات الانتحـار الـذاتي، مثلـه مثـل المريـض السـيكوباتي .. شـخص مضـاد للمجتمـع ويتلـذذ بإلحـاق الأذى بمـن حولـه، وينتهـي بـه الأمـر إمـا في مصحـة نفسـية أو يسـقط مـن أعـلى حافـة الجبـل عندمـا لا يجـد مَنفـذًا ينجـو منـه.

ويظـل الإرهـاب عاجـزًا وقـاصرًا ومنهـارًا؛ لأنـه يدفـع إلى فعـل كل شيء ولا يتـوانى عـن أي شيء - مهـما كان لاأخلاقيًّـا - مـن أجـل انتصـار قضيتـه، يظـل هـذا

العنصر قاصرًا لأنه ينطلق من موقف شديد التشنج والخطورة من شأنه أن يؤدي إلى أعمال شرسة ومدمرة ضد المجتمع، وإلى أعمال انتحارية يروح ضحيتها عادة الإرهابيون أنفسهم!

أيتها الحرية، كم من الجرائم تُرتكب باسمك! وأيها الحق في الدين، كم من الغدر الأسود والمصالح الأنانية تتحقق باستغلال أسمى معانيك!

لكن لا تحزني أيتها الحرية؛ فأنت الأمانة التي حملها الإنسان من رب العالمين، من أجل الحياة لا من أجل الموت، وأنت مقصد الرسول، وأساس الرسالة. ولا تأسى أيها الحق فإن السرْج المُذهَّب لا يَجعلُ الحمار حصانًا! حتى لو استغلك المتنطعون .. فمصيرهم معروف في البخاري ومسلم: «هلك المتنطعون .. هلك المتنطعون .. هلك المتنطعون» صدقت أستاذي وأستاذ البشرية.

الفصل الرابع

حتى لا نعيد إنتاج عقول مغلقة

1. التعليم وتغيير نظرية الأمن القومي.
2. من العقل المغلق إلى العقل الفعال.
3. البديل للتعليم المولد للإرهاب.
4. التعليم الذكي.
5. من الثورة السياسية إلى الثورة العلمية (1).
6. من الثورة السياسية إلى الثورة العلمية (2).

الفصل الرابع

حتى لا نعيد إنتاج عقول مغلقة

1- التعليم وتغيير نظرية الأمن القومي

إن أحد أهم أسباب الحروب والصراعات السياسية المرضية الخارجة عن قواعد التفكير الطبيعي، يكمن في انغلاق العقل واختلال بنيته، وعدم انضباط منهج التفكير، والعجز عن تحويل الفكر العلمي إلى فعل وبناء وتنمية. ويرجع هذا في أحد جوانبه إلى التعليم القائم على الحفظ والتلقين، وليس ضبط وتنمية منهج التفكير. وفي ظني، إن تخلف مناهج التعليم أحد أهم أسباب مشكلة الإرهاب بجوار الأسباب: السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

فمناهج التعليم القائمة على التلقين لا تصنع عقولًا إيجابية منفتحة وفعالة، بل تصنع عقولًا مغلقة غير منتجة وغير قادرة على رؤية نفسها ورؤية العالم بطريقة منضبطة، ولا تملك مهارات البحث والفهم والتحليل والاستنتاج والنقد الموضوعي والابتكار؛ وغير قادرة على تحويل الفكر العلمي إلى خريطة عمل، وعاجزة عن ترجمة خريطة العمل إلى واقع جديد متعين.

والحلول متعددة بتعدد الأسباب، وهي نوعان: حلول عاجلة للقضاء على الأعراض الخطرة التي تهدد استقرار الوطن، وحلول إستراتيجية بعيدة الأمد،

وما يهمني في هذا السياق هو الحل الإستراتيجي على الأمد البعيد، وهذا لن يحدث من دون تغير مفهوم الأمن القومي. ولا شك عندي في أن أي تخطيط إستراتيجي لمستقبل الأمن القومي المصري، يجب أن يضع التعليم على قائمة الأولويات، وأن يأخذ في الاعتبار البعد السكاني، والاجتماعي، والتنموي، على مستوى الوطن وعلى مستوى كل محافظة.

إن الأمن القومي أمر يتجاوز بكثير طاقة ووظيفة وحدود نظرية الأمن التقليدية؛ لأن مفهوم الأمن القومي لم يعد مقصورًا على حماية الأرض من التهديدات الخارجية، فمع تطور مفهوم قدرة الدولة اتسع مفهوم الأمن القومي ليشمل القدرة الشاملة للدولة والمؤثرة في حماية معتقداتها وقيمها وأراضيها ومصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية من التهديدات الخارجية والداخلية. بل يمكن القول إن الأمن القومي تجاوز مفهوم الحماية بمعناها الواسع، إلى مفهوم التنمية الشاملة .. يقول روبرت ماكنمارا Robert McNamara وزير دفاع الولايات المتحدة الأمريكية ورئيس البنك الدولي الأسبق - في كتابه (جوهر الأمن): «الأمن عبارة عن التنمية، ومن دون التنمية لا يمكن أن يوجد أمن. وإن الدول التي لا تنمو في الواقع، لا يمكن - ببساطة - أن تظل آمنة».

وهذا التعريف الذي يركز على تطور مفهوم الأمن القومي وشموله لمختلف الأبعاد التنموية، يجرنا مباشرة إلى التعليم والبحث العلمي باعتبارهما قاطرتين لتحقيق الأمن القومي بمفهومه التنموي الشامل، وباعتباره تنمية علمية وعسكرية واقتصادية واجتماعية، تنمية للموارد والقوى المختلفة، تنمية للدولة والمجتمع والثقافة، تنمية للعلاقات الخارجية والسياسة الداخلية. وهنا يبرز الدور الريادي والمسؤولية القومية للمدارس والجامعات.

والعلاقة بين التعليم والأمن بهذا المعنى أكدها جون ديوي؛ فالتعليم عنده هو مجموعة العمليات التي يستطيع بها المجتمع أو زمرة اجتماعية - كبرت أو صغرت - أن تنقل سلطانها أو أهدافها المكتسبة، بغية تأمين وجودها الخاص ونموها المستمر؛ ولذا فإن التعليم هو الحياة عند ديوي.

لا شك في أن تقدم مصر الحديث ومستقبل أمنها القومي مرهون بقدرتها على تجديد نفسها على أساس من التخطيط العلمي الرصين؛ من أجل تحقيق مشروع مجتمعنا في ترسيخ قيم التراث والحداثة وتوسيع مجالات حقوق الإنسان، وعبور الهوة المعرفية العلمية بيننا وبين العالم المتقدم، وتنشئة شخصية وطنية قوية مستقلة خطوةً أساسيةً وجوهريةً في طريق بناء الدولة المصرية القوية؛ حيث بدأ المصريون يفكرون لأنفسهم لأول مرة في التاريخ الحديث بعقل جديد، وروح مستقلة؛ رغبة في مستقبل أفضل.

ومن هنا، فلا بد أن تكون النّظرة المستقبليّة هي الحاكمة لمسيرة التعليم، لا سيما أن من نعلمهم، يتخرجون في المستقبل وليس الآن. وهذا الإنسان المستقبلي يحتاج إلى نوعية جديدة من التعليم تقدم له أسلوب حياة وطريقة عمل .. نوعية جديدة تعتمد على التعلم بدل التعليم، والبحث بدل النقل، والحوار بدل الاستماع، والقدرة على الاختلاف بدل التسليم المطلق بالأفكار الجامدة التي تصنع الإرهاب.

ومع إعادة بناء الدولة المصرية، نجد التحديات تختلف، والمتطلبات تتفاوت. فالتحدي القومي أصبح هو بناء إنسان مصري جديد وتحقيق التنمية وتأسيس دولة الديمقراطية. ولذا فالمرحلة الراهنة تطرح تحديات عديدة: كيف يمكن تركيز الاهتمام في التعليم على طرق التفكير وكشف

الحقائق وتأسيس روح الابتكار، وليس التلقين والحفظ أو السمع والطاعة.. من أجل توسيع المعارف البشرية، وتعزيز قدرة الطلاب والباحثين على استغلال هذه المعارف لتحقيق الأهداف الحيوية للدولة المصرية باعتبارها أحد أهم تعريفات الأمن القومي؟ وما هو السبيل لتقليل الفجوة بين الفقراء والأغنياء في طبيعة وفرص التعليم؟ كيف نوفر المناخ الأمثل لجودة العملية التعليمية؟ وكيف يمكننا أن نصل بخريجينا إلى المستوى العالمي الذي يؤهلهم إلى الدخول إلى سوق العمل من أوسع أبوابه؟ كيف يمكن التغلب على مثلث عوائق البحث العلمي: التمويل، والمعامل المجهزة، والإدارة؟

إن الإجابة على هذه التحديات لن يكون بمجرد التمني، وإنما برؤية واضحة لمستقبل التعليم والبحث العلمي، وبفكر جديد يعكس فلسفة جديدة للأمن القومي، عن طريق تعليم يمد المجتمع المصري بكوادر وطنية فنية مدربة، وصولًا إلى مستويات تنافسية عالمية .. تعليم يقوم على استحداث مناهج جديدة قائمة على أسس النمو في تصميم المشاريع البحثية، والتميز في أداء الباحثين والطلاب، والتطور في النظام الإداري، والبحث في قضايا الدولة، وتشخيص الاحتياجات. فقد أصبحت سمة العلم الجديدة هي «التطبيق» أو بلغة الاقتصاد «العائد الفوري».

والأهم من هذا كله هو تغيير طريقة التفكير عند المواطن، وبناء شخصية مسؤولة .. واعية .. حرة .. ناقدة .. وقادرة على استثمار ذلك كله ومراجعته وتطويره من أجل نهضة حقيقية عميقة الجذور متأصّلة المنبت، فمؤسسات التعليم - من الحضانة إلى الجامعة - ليست مجرد مؤسسات لنقل المعارف إلى أبنائنا، بل مؤسسات وطنية نهضوية يقع العبء الأكبر عليها

في بنـاء شـخصية المواطـن باعتبـاره جوهـر الدولـة، وأسـاس الأمـن القومـي، لا باعتباره إرهابيًّا يكفر كل من حوله ويستحل دمه!

2- من العقل المغلق إلى العقل الفعال

إن أكـبر مشـكلة يواجهها الآن العـالم الإسـلامي هـي مشـكلة العقـول المغلقـة التـي تكونـت في ظـل أنظمـة تعليميـة متخلفـة تعتمـد عـلى اسـترجاع المعلومـات، وكأنهـا أجهـزة تسـجيل أو «هـاردات»، وليسـت عقـولًا فعالـة تبحـث وتفهـم وتحلـل وتفكـر وتسـتنج وتنقـد وتـوازن وتبتكـر وتحـول الفكـر إلى عمـل.

ويـزداد التحـدي أمـام أعيننـا في مـصر؛ خاصـة مـع الوضـع الخطـر الـذي يشـير إلى ارتفـاع نسـبة الأميـة في بلادنـا رغـم مـرور أكـثر مـن قرنـين عـلى بـدء عمليـة التحديـث التـي بدأتهـا مـصر مـع مطلـع القـرن التاسـع عـشر، ورغـم مـرور قـرن ونصـف تقريبًـا عـلى مـشروع عـلي مبـارك ولائحـة إصـلاح التعليـم عـام 1868م، وسـتة وسـبعين عامًـا عـلى كتـاب «مسـتقبل الثقافـة في مـصر» لطـه حسـين عـام 1938م. وتـزداد المشـكلة تأزمًـا مـع خـروج معظـم جامعاتنـا مـن التصنيفـات الدوليـة.

ولا يمكـن تجـاوز هـذه الحالـة مـن العقـم التعليمـي دون التحـول السريـع والجـذري إلى مناهـج جديـدة عصريـة تسـتفيد مـن مناهـج الـدول المتقدمـة، وتطبـق طـرق التعلـم الحديثـة التـي تسـتهدف تكويـن عقـول منهجيـة مفتوحـة، وبنـاء شـخصية إنسـانية متوازنـة الأركان: روحًـا وجسـدًا ووجدانًـا ونفسًـا تحـت قيـادة عقـل واعٍ وفعـالٍ يقـود ويوجـه؛ فصنـع الشـخصية القـادرة عـلى العمـل السـياسي والفكـري والإداري هـو مهمـة العمليـة التعليميـة؛ لأن التعليـم

هـو العامـل الأكـثر تأثـيرًا في معادلـة الشـخصية. وهنـا يـأتي دورنـا في تكويـن شـخصية تتحكـم في تشـكيل مسـتقبلها، تسـتعد لـه ولا تخـشى خـوض تجاربـه عـلى أسـاس مـن الإرادة الحـرة واسـتقلال الـذات. وبهـذا يتكـون لدينـا رأس مـال بـشري Human Capital حقيقـي يتمثـل ليـس فقـط في «كـم» الأفـراد ذوي المهـارات والقـدرة عـلى الإنتـاج والمتعلمـين والمثقفـين، بـل يتمثـل كذلـك في «نوعيتهـم وكفاءتهـم».

ولعـل هـذا التصـور قريـب مـن المعنـى الـذي كان يقصـده طـه حسـين عندمـا ذهـب في كتابـه «مسـتقبل الثقافـة في مـصر» إلى أن «معاهـد العلـم ليسـت مـدارس فحسـب، ولكنهـا قبـل كل شيء، وبعـد كل شيء، بيئـات للثقافـة بأوسـع معانيهـا؛ ولذلـك فـإن الجامعـة بيئـة لا يتكـون فيهـا العـالم وحـده، وإنمـا يتكـون فيهـا الرجـل المثقـف المتحـضر الـذي لا يكفيـه أن يكـون مثقفًـا، بـل يعنيـه أن يكـون مصـدَرًا للثقافـة، ولا يكفيـه أن يكـون متحـضرًا، بـل يعنيـه أن يكـون منميًـا للحضـارة، فـإذا قـصّرت الجامعـة في تحقيـق خصلـة مـن هاتـين الخصلتـين فليسـت خليقـة أن تكـون جامعـة، وإنمـا هـي مدرسـة متواضعـة مـن المـدارس المتواضعـة ومـا أكثرهـا».

وفي إطـار الرؤيـة السـابقة، ولمواجهـة التحديـات الراهنـة، يجـب أن يكـون لدينـا سـبعة أهـداف:

1. بنـاء شـخصية المواطـن باعتبارهـا جوهـر الدولـة مـن خـلال تكامـل تأهيـل الطـلاب علميًّـا واجتماعيًّـا وثقافيًّـا.

2. أن يكـون التعليـم مـن أجـل الوعـي النقـدي Education for critical consciousness؛ حيـث تعميـم التعليـم الحـواري ونبـذ التعليـم البنـكي.

3. تحديث الكيان التعليمي ليضاهي المستوى العالمي طبقًا للمعايير الدولية في الجودة وتقييم القدرة المؤسسية.

4. تدعيم البحث العلمي والتقني واستثماره في التنمية الإنتاجية، وتوسيع نطاق التعاون مع قطاع الصناعة، وتوجيه الأبحاث نحو تعزيز الخدمات العامة والحكومية.

5. تعميم توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التعليم، وتحقيق التكامل بينها وبين الموارد البشرية المتميزة.

6. دعم علاقات الشراكة وبرامجها مع المؤسسات الدولية ومنظمات المجتمع المدني.

7. التدريب المستمر للهيئات التدريسية والأكاديمية والقيادات، والاهتمام بالمعلمين وأعضاء هيئة التدريس ورفع دخولهم وتقديم الرعاية الصحية لهم ولأسرهم.

وتحقيق هذه الغايات غير ممكن دون توحيد منظومة التشريعات الحاكمة للتعليم، من خلال قانون عام موحد للتعليم، ولائحة تنفيذية موحدة ودقيقة وواضحة، تمثل مظلة عامة حاكمة، على أن تسمح في الوقت نفسه بلوائح خاصة لمؤسسات التعليم والجامعات تظهر الشخصية المستقلة لكل منها في إطار أهدافها الإستراتيجية، باعتبارها مؤسسات اقتصادية لها كامل الحرية الأكاديمية والإدارية والمالية في إطار من الشفافية والمحاسبة المجتمعية، ومن خلال تصورات فاعلة تحدد أدوار ومسئوليات الجهات الحاكمة في إدارة التعليم العالي وخلق الكيانات القادرة على إدارة حديثة للمنظومة تحقق أهداف الخطة الإستراتيجية بالكفاءة المطلوبة، على أن يكون للكليات والكيانات التعليمية

لوائح داخلية تتيح لها الإدارة الذاتية واللامركزية، للتخلص من البيروقراطية المزمنة التي تمثل أحد أهم مشكلات التعليم في بلادنا. وبما يضمن لمنظومة التعليم المرونة والكفاءة والفاعلية والقدرة على المنافسة.

ويحزنني أن أقول إنه لا يوجد لدينا حتى الآن إستراتيجية قومية واضحة ومحددة، بل لا توجد فلسفة اجتماعية تتحدد بناءً عليها فلسفتنا سواء في التربية أو التعليم أو البحث العلمي.

ولذا لكي تتحقق تلك الغايات لا مفر من وضع خطة إستراتجية تعليمية وبحثية موحدة وواسعة النطاق لمدة خمس سنوات، وفي الوقت نفسه تسمح بوجود خطط إستراتيجية نوعية للجامعات ومراكز الأبحاث تصب في الخطة العامة وغاياتها. وهنا أؤكد على ضرورة استخدام المنهج التحليلي لتحرير طرق تحقيق هذه الغايات من خلال: تحليل الفجوة وتحليل الاحتياجات، فضلًا عن تحليل البيئة الداخلية والخارجية، وأساليب تحقيق الغايات الإستراتيجية، والمخاطر والتحديات، والجدول الزمني لتنفيذ الأهداف الإستراتجية، على مستوى التعليم ومستوى البحث العلمي معًا.

ويجب التأكيد على أن التطوير الإستراتيجي المرجو في التعليم مرتبط بالتطوير على مستوى البحث العلمي؛ فهذان المستويان ليسا منعزلين عن بعضهما بعضًا؛ والتعامل مع التعليم على أنه جزيرة منعزلة عن البحث العلمي كان خطيئة كبرى كرستها الطرق القديمة التي تتعامل مع العملية التعليمية باعتبارها عملية تقوم على الحفظ والتلقين. والآن علينا الربط المنهجي بين التعليم والبحث العلمي؛ لتعلم فنون البحث والاكتشاف والابتكار؛ حتى يكون التعليم هو البوابة الذهبية لبناء مصر المستقبل.

3- البديل للتعليم المولد للإرهاب

إن أية رؤية تحليلية تنظر إلى الإرهاب السياسي والعقائدي على أنه عنصر غريب عن المنتظم الحضاري السائد، إنما هي رؤية مبتورة لأنها تجرد هذه الظاهرة من إطارها الثقافي، ولعل أهم عامل يحكم هذا الإطار هو التعليم الذي يصنع عقولًا جامدة لا ترى خارج عالمها الأسود سوى الكفر والضلال.

ولذا فإن الإرهابي يرفض الحوار مع الآخر، وفي حالة حدوث حوار لا يمكن أن يكون منتجًا؛ لأن الإرهابي متوحد مع أفكاره إلى أقصى مدى دون نقاش ودون مراجعة وتقويم ذاتي؛ ومن ثم يأتي الحوار معه دومًا متأزمًا، وتكون النتيجة عودة الإرهابي إلى اللغة الوحيدة التي يعرفها: السعي إلى إبادة الآخر في حالة انهزام الإرهابي، ومحاولة إقصاء المخالفين في حالة انتصاره؛ فهو «غافل» لا يستطيع أن يرى سوى نفسه في العالم! ولا يمكن أن يتخلى عن أفكاره التي تلقاها وحفظها بوصفها «كل الحقيقة»، والتي تهدف بالأساس إلى التغلب على العدو من كفار قريش، وتحقيق المقاصد الإلهية قسرًا، وانتصار دولة الإيمان على دولة الكفر.. (لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {7/179}) [الأعراف: 179].

إن حالة الإرهاب التي نعيشها، والسيولة السياسية والاجتماعية وجو الحوار المتأزم الذي شهدته مصر بين كل الأطياف، يدعونا لإعادة التفكير في الضلع الثالث من العملية التعليمية، أعني «طرق التدريس التقليدية» بوصفها مسؤولة عن العجز المجتمعي عن الدخول في حوار منتج وعملية ديمقراطية فعالة. ولذا أجد وجوب التوجه نحو انتهاج طرق تدريس جديدة

قائمـة عـلى التربيـة الحواريـة Dialogical Pedagogy، والتـي تهـدف إلى تخريـج شـخصية حـرة واعيـة قـادرة عـلى الحـوار وغـير متعاليـة عليـه أو رافضة لـه في الآن نفسـه؛ مـما ينشـأ عنـه النمـو في تكويـن المواقـف والآراء الجديـدة دون الخـروج عـن روح الفريـق الواحـد أو الدولـة الواحـدة.

وهـذا هـو مقصـد باولـو فريـري مـن كتابـه الشـهير «التعليـم مـن أجـل الوعي النقـدي Education for critical consciousness »؛ حيـث التعليـم الحـواري في مقابـل التعليـم البنـكي الـذي يقـوم فيـه المعلـم بإيـداع المعلومـات في ذهـن الطالـب مثلـما يقـوم «أمـير الجماعـة» بتعبئـة عقـول أتباعـه. في حـين ينبغـي أن يكـون «التعليـم ممارسـة للحريـة Education: The Practice of Freedom»، وهـذا عنـوان كتـاب آخـر لباولـو فريـري يؤكـد فيـه عـلى أن الحـوار لـه أسـاس كيـاني يخلـق إمكانيـة في الإنسـان ليتناقـش ويُعيـد تشـكيل العنـاصر الحقيقيـة لهويتـه، وهكـذا يُسـهِم في تغيـير نفسـه والعـالم.

ونعتقـد أن تحقيـق هـذه الغايـة يمكـن أن يتـم بواسـطة طـرق التدريـس التفاعليـة الحواريـة، وتوسـيع مجـالات التفاعـل «بـين الطالـب والطالـب» عـن طريـق تطويـر وتشـجيع ورش العمـل والجمعيـات العلميـة الطلابيـة، لأنهـا تسـمح بوسـط يوجـه فيـه النقـد الإيجـابي المتبـادل عـلى مسـتوى أفقـي واحد مـن الطالب إلى الطالـب، وليـس عـلى مسـتوى رأسي فيـه تفـاوت بـين الطالـب والأسـتاذ.

وفي هـذا السـياق تظهـر أهميـة تطويـر «نظـم التدريـس» بحيـث لا يتـم الضغـط عـلى الطالـب بحفـظ المـادة العلميـة إلى الدرجة التـي لا يسـتطيع معها أن يفكـر فيهـا عـلى مسـافة كافيـة منهـا. وهنـا تـبرز أهميـة طريقـة «المـشروع» التـي قـال بهـا جـون ديـوي، كـما تـبرز أهميـة تكويـن فِـرَق بحثيـة أو نقاشـية صغـيرة

العدد نسبيًّا بحيث يعمل كل فريق في مشروعات بحثية محددة تحت إشراف المعلم من ذوي النشاط البحثي المتميز والمستمر لتحقيق تواصل أكثر عمقًا بين الطلاب والمعلمين بشكل أكثر عمقًا على المستوى المعرفي وإكساب الطلاب المهارات البحثية وفن الحوار المولد للحقيقة.

وفن الحوار المولد للحقيقة دون التلقي السلبي من المعلم، اتجاه عالمي اتسع استجابة للانفجار المعرفي. وكان موجودًا في الأكاديميات اليونانية قبل الميلاد التي صنعت العقل العلمي والفلسفي، كما كان موجودًا في مدرسة «أهل الرأي» عند أبي حنيفة النعمان وغيره من الفقهاء العظماء، بل كان الحوار المنتج سنة نبوية أصيلة في مدرسة محمد ﷺ الذي كان يفتح الحوار في شئون الدنيا مع أصحابه الكرام، والذي تخرجت من مدرسته قامات تملك نواصي الرأي والاستنباط (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) [النساء: 83]، مثل عمر وأبي بكر وعثمان وعلي وخالد وعمرو وأبي ذر وابن عوف وأسامة وخديجة وأسماء وعائشة وأم سلمة .. والقائمة طويلة.

من جهة أخرى، لا شك أن التعليم يحتاج إلى جهود مضاعفة لتجديد «المحتوى التعليمي» ليتناسب مع متطلبات إعادة بناء مصر ثقافيًّا وسياسيًّا، واحتياجات المجتمع وسوق العمل. ولعلنا ندرك أنه قد آن الأوان لإعادة صياغة الكتاب المدرسي لتحقيق ما يعرف بـ«الكتاب المعلم»، وهو الكتاب الذي يستطيع أن يخوض فيه الطالب بمفرده وبمساعدة محدودة من المدرس، مع العلم أن هذا لن يتم من دون تحجيم مافيا صناعة وطباعة الكتاب المدرسي ذات الصلة الوثيقة بأصحاب المصالح من صناع الكتب الخارجية التي تعرف أن استمرارها مرتبط بقصور الكتاب المدرسي.

والارتقاء بالمحتوي التعليمي يتواكب مع تشجيع «روح الاكتشاف» لدفع الطلاب إلى مستويات جديدة من التعلم القائم على الفكر التحليلي والإبداع في حل المشكلات، وتنمية ملكة الابتكار، والخروج من حدود المقرر إلى سعة البحث العلمي لحل المشكلات الواقعية، وهذه هي أهم أداة في الحياة لمعرفة الحقائق ولتربية الفرد ولتكوين المجتمع الديمقراطي، كما يقول جون ديوي في كتابه «الديمقراطية والتربية Democracy and Education»، والذي ينظر فيه إلى التربية باعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة.

ولا ينفصل عن هذا ضرورة إعادة تطوير أساليب التقويم وأسئلة الامتحانات لتختبر المهارات وطرق التفكير، ومخرجات التعليم على أساس «النتائج» بدلًا من التركيز فقط على عملية التعليم والحفظ والتلقين التي تعد الأساس الخصب لتكوين عقول مغلقة لا تفكر يستطيع أن يوظفها بسهولة صانعو الإرهاب الذين يلعبون لعبة الموت فقط، الموت من أجل حياة بعينها يفرضونها على الجميع!

4- التعليم الذكي

تتهيأ مصر للدخول في مرحلة جديدة، وأحلم - ويحلم معي الكثيرون - أن تحمل مصر رؤية إستراتيجية وخططًا زمنية قابلة للتنفيذ، وأن تكون الحكومة قادرة ولديها موهبة «إدارة البشر» نحو هدف كبير من خلال مشروع قومي يلهب مشاعرهم ويحرك ضمائرهم سواء بالإقناع أو بقوة القانون.

فلا بطل من دون شعب جدير به، ولا هداف من دون فريق يصنع له الألعاب، ولا صانع ماهر بلا أدوات حتى لو كان نبيًّا! فالأنبياء كثيرون، لكن الذي حرك التاريخ وأثر فيه هو من نجح مع الناس وبالناس؛ ولذلك الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ.

ولا أتصور أن أي برنامج حكومي يمكن أن يكون جديرًا بالاحترام دون أن يحتل تطوير التعليم القلب منه، فالتعليم هو صانع «الموارد البشرية» التي من دونها لا يمكن أن تتم أية مواجهة للفقر بعيدًا عن التسول والصدقات والمعونات، ومن دونه لا يمكن أن تحدث نهضة صناعية أو زراعية تدخل بنا إلى عصر التنمية الشاملة، بل من دونه لا يمكن أن يكون لدينا جيش قوي يتمكن أفراده من إدارة الآليات المتقدمة تكنولوجيا، ومن دونه لا يمكن إدارة عمليات الاقتصاد التي أصبحت تتم عن طريق برامج الحاسوب والتي تتطور بسرعة فائقة.

وهذا ما فعله مهاتير محمد حين وجه ماليزيا إلى التعليم الذكي؛ ففي عام 1996م تم إدخال الحاسب الآلي وربطه بشبكة الإنترنت في المدارس، وبحلول سنة 1999م كان 90 % من المدارس الموجود بماليزيا على شبكة واحدة.

ويشير الواقع الحالي إلى أن دولًا كثيرة سبقت مصر التي كانت رائدة في التعليم على مستوى العالم الإسلامي، ودخلت كثير من تلك الدول التي علمنا أبناءها إلى عصر «التعليم الذكي»، بينما نحن لا نزال في عصر الكشكول والكراسة والدروس الخصوصية وحفظ المتون، ويا ليتها متون مثل متون العلماء القدماء، بل متون المدرسين غير المؤهلين الذين يلخصون

المواد الدراسية في مذكرات مليئة بالأخطاء، والعجيب في المرحلة الجامعية أن الملخصات التي تباع بجوار الجامعات يكتبها خريجون لا يجدون عملًا!

ومن هنا فإن التعليم الجامعي مسؤول عن تخريج الملايين من أنصاف المتعلمين الذين لا يملكون مهارات سوق العمل بما يجعلهم «عبئًا مضافًا» لا «قيمةً مضافةً»؛ حيث ينخرط كثير من العاطلين في أعمال غير مشروعة بما يمثل تهديدًا حقيقيًّا للأمن القومي ويبتلع أي جهود من أجل تحسين الاقتصاد.

والأهم من ذلك كله، هو تكوين الشخصية المؤهلة للتعامل الخلاق مع التكنولوجيا المتقدمة. وذلك ينبع من إيماننا بأن دور التعليم هنا هو مواجهة أزمة الحداثة، وأول خطوة هي ضبط مفهوم الحداثة، فالحداثة لا تعني استيراد التكنولوجيا، بل القدرة على صنعها، وتطويرها، وتقييمها، وليس مجرد استهلاكها لادعاء المعاصرة والتقدم. والتكنولوجيا بلا ثقافة هي مجرد جهاز للحاسب الآلي، لا فرق بين آلة ومستخدم لها، فالإنسان يتحول إلى آلة حين يعجز عن صنعها وتطويرها والتحكم فيها من أجل خدمة نفسه ووطنه، وليس من أجل التسلية في الألعاب ومشاهدة الأفلام والاستماع إلى الموسيقى وقذف الآخرين وابتزازهم على مواقع التواصل الاجتماعي والسياسي.

وهذا ما يقتضي ثورة تعليمية شاملة تتجه بنا إلى عصر التعليم الذكي. ولا تقف مجالات توظيف التعليم الذكي عند حد التعلم والبحث وفق أنظمة تكنولوجيا التعليم، بل يجب أن تشمل أيضًا أساليب التقويم التي تعتمد على الأساليب الإلكترونية في إجراء الامتحانات وتصحيحها بما يخفف العبء التدريسي ويحقق سرعة وعدالة وشفافية بدرجة أكبر.

ولا قيمة لهذا التعليم من دون التركيز في الوقت نفسه على قيم العمل والابتكار والإبداع، من أجل تطوير الوعي والعقلية العلمية وتفعيل دور العقل الناقد والإيجابي والمبدع ليحل محل العقل المتلقي والسلبي أمام المادة العلمية سواء الوافدة من الأمم المتقدمة أو القديمة الآتية من أسلافنا العظام. فمن دون تنمية العقل لا يمكن الاستفادة من العلوم؛ لأن العقل غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية كما أشار أبو حامد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» نقلًا عن الحارث بن أسد المحاسبي.

لكل هذا أحلم أن سوف تمضي حكومة مصر بخطى واسعة في جهود تكوين مؤسسات تعليمية إلكترونية، تعتمد بشكل جوهري على نظم المعلومات في الإدارة والتعليم والبحث العلمي. وذلك من خلال ميكنة كل العمليات، وتحويل المقررات إلى الشكل الإلكتروني عبر الوسائل الإلكترونية وخاصة الإنترنت والقنوات الفضائية أو غيرها من الوسائط المتعددة، فالكمبيوتر وغيره من أدوات تكنولوجيا التعليم الجديدة أكثر استجابة للفروق الفردية بين الطلاب، وهي توفر بيئة تفاعلية جاذبة، كما تثير دافعية الطلاب بدرجة أكبر كما يقول هيلز Hills في كتابه «التعليم من أجل عصر الكمبيوتر». ومن المهم إنشاء قاعات دروس افتراضية Virtual Classrooms؛ إذ إنها سوف تقلل من ضرورة التواصل المنتظم المباشر بين المعلمين والطلاب من جهة، وتساعد بشكل فعال على الحد من الدروس الخصوصية. ولا تكتمل أركان التعليم الرقمي دون إعداد بطاقة الطالب الرقمية التي تشتمل على جميع بياناته الدراسية، من بداية اندماجه بالتعليم وحتى المرحلة التي وصل إليها.

هـذا جـزء مـن التعليـم الـذي أحلـم بـه لأبنـاء مـصر في برنامـج الحكومـة، والحلـم الأهـم أن يكـون لديهـا القـدرة عـلى تنفيـذه .. لا بالشـعارات الجوفـاء ولا الخطـب الرنانـة .. ولكـن بالخـبرات المتراكمـة وسـابقة الأعـمال.

أقول مرة أخرى - أعزكم الله - «الخبرات المتراكمة وسابقة الأعمال».

5- من الثورة السياسية إلى الثورة العلمية (1-2)

إن مـصر تمـضي يحدوهـا الأمـل في تجـاوز أزماتهـا الطاحنـة، سـواء مـع نفسـها أو مـع التحديـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة. وهـذا الهـدف الكبـير لا يمكـن تحقيقـه بالنوايـا الحسـنة أو المشروعـات الوهميـة، ولكـن بثـورة علميـة. ومـن أسـف فـإن القاسـم الكبـير مـن متصـدري السـاحات، لا يملكـون سـوى الشـعارات وضجيـج الصـوت أو المتفجـرات!

ولعـل أحـد أسـباب الحالـة الصفريـة التـي تعيشـها القـوى والأحزاب السياسـية أن أكـثر أقطابهـا لم يتعلمـوا يومًـا فـن البحـث أو التفكـير العلمـي أو البنـاء وفـق خطـة إسـتراتيجية، وهـم وإن كانـوا يملكـون القـدرة عـلى الثـورة السياسـية، لكنهـم غـير قادريـن عـلى القيـام بعمليـات إعـادة البنـاء التـي تتطلـب تجـاوز الثـورة السياسـية إلى الثـورة العلميـة، والانتقـال مـن مرحلـة التفكيـك إلى مرحلـة التكوين. ومـن هنـا فإننـا بنخبـة تملـك خـبرات متراكمـة، وتعلمـت جيـدًا، وخاضـت تجربـة الإدارة، ولديهـت سـابق خـبرة في العمـل المنتـج، وليـس مجـرد «ظاهـرة صوتيـة» تجيـد المعارضـة ولا تجيـد البنـاء، وتـدرك أن البحـث العلمـي هـو القاطـرة ليـس فقـط لتجـاوز الأزمـات وإنمـا كذلـك للتقـدم.

ولـذا فـإن تعليـم النـاس كيـف تفكـر بشـكل علمـي ومنطقـي مطلـب يقـف

على رأس متطلبات النهوض بمصر، فما أضاعنا حتى اليوم سوى اختلال طرق التفكير. وهو ما يحتم تطوير النظم التعليمية والبحثية، ولا بد أن يواكب هذا جهد كبير من أجل بعث إرادة التقدم في عقول الناس، وهي مهمة قومية شاملة ترتبط بالتأكيد على الأهداف الوطنية للبحث العلمي.

ويواجه البحث العلمي في مصر ثلاثة عوائق، هي: التمويل، والمعامل المجهزة، والإدارة.

وأكبر عائق يواجهنا هو ضعف الميزانية المخصصة للبحث العلمي، وإذا قارنا وضعنا بوضع دول أخرى سنجد أننا في وضع «كارثي». واللافت للنظر أن المعادلة التي تحكم العلاقة في بلادنا بين البحث العلمي والعامل الاقتصادي، بالغة الاضطراب، وهو أمر تتسم به كل البلدان النامية ذات الدخل القومي الضعيف، وهذا ما أشار إليه ثيودور شولتز THEODORE W. SCHULTZ في دراسة قديمة له تحت عنوان « قيمة التعليم العالي في البلدان منخفضة الدخل: رؤية اقتصادية».

والغريب أن هذه المعادلة لم تتغير عندنا في مصر رغم مرور ثلاثين عامًا على صدور دراسة شولتز! ففي عدد خاص حمل عنوان «تثوير العلم في مصر: Revolutionizing Egypt's Science»، أصدرته مجلة «Science» الأمريكية في (15/ 7/ 2011م)، أي بعد ثورة يناير بعدة شهور، تم عقد مقارنة إحصائية بين كل من مصر وتركيا وألمانيا لقياس نسبة البحث العلمي وتقدمه بالتوازي مع نسبة الكثافة السكانية والمساحات المستغلة في تطبيقات البحث العلمي .. جاء ترتيب مصر في المؤخرة، كما أوضح الرسم البياني للمقارنة، والذي تضمن أن نسبة الإنفاق على البحث العلمي في

ألمانيا 2.3 % من إجمالي الناتج المحلي البالغ 3.3 تريليون دولار، وفي تركيا 0.73 % من إجمالي الناتج المحلي البالغ 615 بليون دولار، وفي مصر 0.23 % من إجمالي الناتج المحلي البالغ 188 بليون دولار، وأن عدد الأبحاث العلمية خلال العشر سنوات الماضية (2000 - 2010م) بلغت في مصر 34.029 ورقة بحثية، وفي تركيا 138.345 ورقة، في حين أنه في ألمانيا وصلت إلى 762.599 ورقة بحثية. بينما بلغ عدد الباحثين في مصر 98 ألف باحث، وفي تركيا 86 ألف، أما ألمانيا 472 ألف باحث.

وإذا استحضرنا إسرائيل في هذه المقارنة نجد أنها تنفق على البحث العلمي 4.7 % من إجمالي دخلها، كما يمثل مجموع ما تنفقه إسرائيل على البحث العلمي ضعف ما تنفقه الدول العربية مجتمعة!

إن هذا بلا شك وضعٌ داعٍ للأسى، ولذا علينا ألا نَخدع الناسَ بحلول وهمية لمشاكلهم، فلا حلول لأزمات مصر دون البحث العلمي، ودون إجراء الأبحاث الجديدة ذات الطابع المعاصر التي تعتمد على التحليل العلمي الرصين، من أجل تقدم الدولة المصرية، عبر مجتمع المعرفة ووحدة العلوم الإنسانية والاجتماعية، فالعالم اليوم هو عالم وحدة المعرفة.

ويجب أن ترتكز أية خطة إستراتيجية على دعم حرية البحث العلمي المتسق مع ثوابت الأمن القومي. وعلينا أن نأخذ في الاعتبار ترسيخ مفاهيم عدم تعارض الإبداع مع الأعمدة الأساسية المرتكزة عليها هوية الأمة المصرية.

من جهة أخرى لا بد من نظرة جديدة للتمويل تقوم على إعطاء الأولوية في الإنفاق الحكومي للتعليم والبحث العلمي، وتسويق الإمكانيات البحثية

لكليات ومراكز الجامعات، وتوجيهها نحو تقديم استشارات وبحوث واقتراح خطط نوعية لتطوير الشركات والمصانع لرفع أدائها الإداري، وتطوير آلاتها، وتحسين المواد الخام، والارتقاء بجودة منتجاتها، مقابل أجر لتحقيق عائد مادي كبير ينمي الموارد الذاتية للجامعات.

ويجب ألا يغيب عن هذه المعادلة تشجيع وتحفيز القطاع الخاص لضخ استثماراته في البحث العلمي لأنه سيستفيد منها، مثلما يحدث في الخارج، فشركة مرسيدس الألمانية - مثلًا - تقوم بتمويل البحث العلمي في جامعة شتوتجارت.

والسؤال: أين رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال من تطوير البحث العلمي في مصر؟ وهل صنعت الدولة لرجال الأعمال القنوات التي من خلالها يمكن أن يشاركوا في إعادة تشكيل مصر الجديدة طبقًا للتخطيط العلمي؟

وهل أدرك الجميع أن البحث العلمي هو الخطوة الأولى الضرورية على الطريق، وأن هذه الخطوة الأساسية، تليها مراحل ومراحل من الجهاد والنضال العلمي والإنساني حتى يمكن لمصرنا أن تتجاوز ذاتها وتتحدث عن نفسها بلغة العصر لا بلغة أهل الكهف؟

حسبنا في هذا المقام أن نرصد ونلح على هذا الدور ونؤكده، وحسبنا أن نقوم به بكل عزم وإصرار. وإذا ما تمكنا من الوصول إلى ذلك، فإن مصر لن تتغير وحدها، بل العالم العربي كله .. وهذا ما يخشاه الغرب!

6- من الثورة السياسية إلى الثورة العلمية (2-2)

إن تثوير العلم في مصر، يعني الثورة الشاملة على كل أوضاع الجهالة، لا فقط في قاعات الدرس ومراكز الأبحاث، بل أيضًا في عقول الناس التي تربت على التفكير الخرافي والفهلوة، والتغيير الشامل للتفكير السياسي القائم على القبيلة والغنيمة، والانتقال إلى الدولة الوطنية الحديثة. فالثورة العلمية في السياسة ضرورة باتت ملحة بعد الثورة الشعبية. إن العلم يجب ألا يكون في المعامل فقط بل في طريقة التفكير في الدولة وفي التعامل معها.

هذا ما يجب أن تستهدفه مصر، وهو ليس مجرد حلم، بل هو «خريطة عمل» قابلة للتحقق إذا ما توافرت لنا الإرادة الصارمة والتخطيط التنفيذي السليم، وقبل ذلك كله إدراك أن الثورة السياسية لا بد أن يعقبها مشروع قومي تكون الثورة العلمية في القلب منه، وإلا سنظل في دوامة الاحتياج والمعونات والجهالة والتكفير؛ فهي دوائر متشابكة لا تعمل إلا عند غياب التفكير العلمي، وهو ما تتمتع به بامتياز القوى الاجتماعية والسياسية التي تغرد خارج التاريخ!

وحتى لا تستغرقني شؤون الثورة العلمية في السياسة أعود مرة أخرى إلى تثوير العلم بالمعنى الأكاديمي؛ وهنا لا بد أن أؤكد أن أي ثورة علمية يجب أن تبدأ من الجامعات، باعتبار الجامعات حجر الزاوية؛ مع وضع توجيهات إستراتيجية عامة للأبحاث الجامعية لربطها بمشكلات الأمن القومي الشامل، وإجراء أبحاث جديدة حول القضايا الحيوية الملحة، تعتمد على التحليل والتفسير للواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري، بعيدًا عن الارتباط بأية توجهات سياسية إلا توجهات الوطن؛ من أجل تقدم الدولة المصرية.

ولـذا يتحتـم توجيـه الأقسـام العلميـة نحـو التركيـز في أبحـاث الماجسـتير والدكتـوراه، وأبحـاث الترقيـة، عـلى الأبحـاث ذات الطابـع القومـي. فالبحـث العلمـي ليسـت وظيفتـه إنتـاج المعرفـة فقـط، ولكـن توظيفهـا لتلبيـة احتياجـات المجتمـع.

وهنـا أقـترح تركيـز الجهـود في السـنوات الخمـس المقبلـة في مجـال العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، عـلى المجـالات التاليـة:

أ- تجديد الفكر الديني.

ب- المشروعات القومية الاقتصادية وتنمية الاستثمار.

ج- قضايا الدولة والمجتمع المدني والمواطنة وأزمات الديمقراطية.

د- مشروعات الربط بين دول حوض النيل اجتماعيًّا واقتصاديًّا.

هـ- السوق العربية المشتركة.

أما في مجال العلوم الطبيعية، فأقترح أن تدور حول المجالات الآتية:

أ- الطاقـة النوويـة وتطبيقاتهـا السـلمية والطاقـة المتجـددة، والطاقـة الطبيعية مثل الشـمس.

ب- الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجي خاصة في مجال الزراعة والطب.

ج- الدوائر الكهربائية المتناهية الصغر.

د- البحـوث ذات الصلـة بتحقيـق الكفايـة الإنتاجيـة مـن السـلع الأساسـية، خاصـة القمـح.

هـ- البحـوث المتعلقـة بظاهـرة التصحـر ونقـص ميـاه النيـل، والكشـف عـن مصـادر ميـاه جوفيـة أو تحليـة ميـاه البحـر ومقاومـة التصحـر... ؟

و- الأمراض المتوطنة والفيروسات.

ز- البحوث المتعلقة بإنتاج السلاح بجميع صوره وكيفية التغلب على مشكلة الاعتماد على الغرب؟

ح- النانو تكنولوجي والمواد الجديدة.

ولن تكون الجامعات بيئة مواتية للثورة العلمية دون تعميق استقلالية الجامعات وتنزيهها عن الصراعات الحزبية والسياسية التي تدور خارج أسوارها، وذلك من خلال التأكيد على أن المحراب الجامعي ميدان للتبادل الفكري والخبرات العلمية وليس ساحة للتيارات السياسية التي يمكن أن تجد لنفسها مكانها الشرعي خارج الجامعة في الأحزاب والمؤسسات السياسية. مع التأكيد على أن الندوات والمحاضرات وورش العمل قد تكون الميدان المناسب لتبادل الفكر والتعريف بما يموج في المجتمع من تيارات فكرية؛ فأسوار الجامعة شفافة وليست مصمتة، لكن يجب أن تظل بمنأى عن التحزب والاقتتال.

من ناحية أخرى تحتم الثورة العلمية الخروج من ضيق النشر العلمي المحلي إلى آفاق النشر العلمي الدولي، وتشجيع أعضاء هيئة التدريس وإرساء آلية لمنحهم مكافآت للنشر العلمي الدولي بالقطاعات الأكاديمية بالجامعات وفقًا للـ Impact Factor لكل مجلة، وإصدار مجلة علمية دولية لكل جامعة بالتعاون مع دور النشر العالمية ذات العلاقة بالتصنيفات الدولية. والهدف من ذلك النظام تحسين التصنيف الدولي للجامعات؛ حيث إن معيار النشر العلمي أحد أهم معايير تقييم الجامعات في التصنيفات الدولية.

إن العالم الأحادي القطب في طريقه إلى الزوال؛ ولذا على الجامعات ومراكز الأبحاث المصرية إدراك أن الدوائر الثلاث (الوطنية والإقليمية والدولية) التي

تربطها بالعالم الخارجي بمثابة المؤشرات القياسية التي تتخذها للوقوف على المستوى وتحديد المكانة. ولكي يتحقق ذلك فإن مزيدًا من العلاقات العلمية والروابط الثقافية ومواثيق التعاون والاتفاقات الثنائية والجماعية ستدفع بنا إلى موقع أكثر تميزًا على الخريطة العالمية. ومن ناحية أخرى علينا أن نعي واجبنا في مد جسور التواصل بين العلماء والأساتذة المصريين المهاجرين، وبين كلياتهم الأم التي تعلموا فيها قبل هجرتهم، لينقلوا معارفهم وخبراتهم إلى زملائهم وطلاب البحث العلمي في الميادين المختلفة.

إن مصر لن تدخل عصرًا جديدًا من دون إطلاق مشروع التحديث التكنولوجي في المدارس والجامعات والمعاهد والمراكز البحثية، والتوسع في المعامل والمختبرات عالية التقنية، وتدعيم البنية الهيكلية من الأجهزة والمعدات في كل المدارس والجامعات، في إطار منظومة واحدة تعمل على أساس من إستراتيجية شاملة يتم فيها تقسيم الأدوار وتنسيق الجهود نحو مشروعات بحثية متكاملة يتحقق فيها المفهوم الشامل لوحدة المعرفة وتوظيفها في إطار خدمة مشاريع التنمية والأمن القومي وحل مشاكل الناس.

الفصل الخامس

تجديد المسلمين

1. إشكاليات الفجوة بين الإسلام والمسلمين.
2. إشكاليات الفهم، و«المشروع الحداثي» الذي لم يحققه المسلمون بعد.
3. تغيير رؤية العالم Worldview.
4. وحدة البنية الحاكمة للتفكير الأسطوري في الدين والسياسة.
5. تغيير طريقة إدراك المسلمين لـ «مفهوم الدين».
6. معنى الدين في خصوبته الأولى ضد التراث الديني الذي صنعه البشر.
7. تجديد مفهوم الطاعة في الدين.

الفصل الخامس

تجديد المسلمين

1- إشكاليات الفجوة بين الإسلام والمسلمين

مع مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا على ظهور الإسلام، لا تزال الفجوة واسعة بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام (قرآنًا وسنةً صحيحةً) يقدم نموذجًا عالميًّا للدين الذي يلائم الطبيعة الإنسانية، ويعترف بالتنوع الكوني والإنساني، ويؤكد أن التعددية سنة إلهية، ويميز بوضوح بين البشري والإلهي.

إن الإسلام دين يؤمن بالتطور والتغير، ويعطي مساحات واسعة للاجتهاد البشري ومراعاة المصالح المرسلة، والاستحسان... إلخ، بينما المسلمون يعيشون في جمود فقهي منذ أكثر من سبعة قرون، وفي خطاب وعظي إنشائي فارغ ومنفصل عن حياتهم اليومية.

ولا يزال المسلمون يخلطون بين موروثاتهم الاجتماعية التي ورثوها من بيئتهم والتصور الإسلامي النقي المستمد من القرآن العظيم والسنة المطهرة الصحيحة، وهم يخلطون بين العبادة الحق والعبادة المزيفة، فلا يزال

الكثيرون منا يقيمون علاقتهم مع الله من خلال الطقوس والمظهر فقط، وينسون المعاملات والصدق والالتزام والدقة وإتقان العمل.

وهذا الفريق يظن أن النجاة في الدنيا والآخرة تتوقف على بعض المظاهر الشكلية والأقوال الجوفاء، وليس من خلال الالتزام والمسؤولية، فسبيل الخلاص عندهم في الشعارات والالتزام الصوري والمظهري، وليس في ممارسة العمل البنّاء في تنمية بلادهم والعالم، وهم يخلطون بين العبادة الحق في الدين والتي تقيم علاقة فعالة بين الإنسان والله فتمده بدافع شخصي متجدد لممارسة دوره في إعادة بناء العالم، وبين العبادة المزيفة التي يمارسها المراؤون، أو التي يمارسها الذين يخدعون أنفسهم ويظنون أنهم يسترضون الله تعالى بأداء بعض الطقوس ثم يسعون في الأرض فسادًا؛ فيغشون ويكتمون الشهادة ويشيع بينهم عادة النفاق والرياء وسيادة مبادئ الإهمال والغدر وعدم الالتزام بالوعود!

كما يخلط كثير من المسلمين بين معتقدهم الديني ومواقفهم السياسية ذات الطابع الإنساني المتغير. إن الإسلام يشتمل على أصول تحقيق العدل والإنصاف. هذا شيء لا شك فيه، لكن الخطل يكمن في أن يعتبر البعض أن مواقفهم السياسية المتغيرة والمرتبطة بالمصالح الشخصية والأيديولوجية والطبقية التي ينتمون إليها هي تعبير عن الإسلام الخالد نفسه!

والخطورة الحقيقية في عدم التمييز بين الثابت والمتغير في الأحكام الشرعية، وبين قطعي الدلالة من النصوص وظني الدلالة منها، وبين المحكم والمتشابه في القرآن، وأيضًا عدم التمييز بين الأحاديث المتواترة والأحاديث الآحاد، والأحاديث الصحيحة النسبة إلى الرسول الكريم والأحاديث الضعيفة والموضوعة كذبًا عليه ﷺ.

وبطبيعة الحال ينتج عن ذلك الخلط تضخم تشريعي مكبل للإبداع والحياة الإنسانية، كما تنتج منظومة من الخرافات والمعتقدات والأحكام غير المنضبطة، ومجموعة من القيم المعكوسة التي تولد عقولًا مغلقة وهشة، يمكن بسهولة قيادتها نحو ممارسة الإرهاب ليس ضد الآخر فحسب بل ضد أبناء الدين الواحد والوطن الواحد.

ولعل هذا هو السبب في النقد غير العادل الذي يوجهه المؤكدون على الطابع التاريخي للدين، والذين يركزون - من وجهة نظري - على رؤية الجزئي والسلبي والمؤقت فيما يدخل الفكر الديني نتيجة الظروف التاريخية ونتيجة الجهل والسطحية، دون أي تمييز بين الدين من جانب والفكر الديني من جانب آخر، ودون أي تمييز بين الإسلام في نقائه الأول وبين المسلمين في ممارساتهم التاريخية التي تصيب وتخطئ.

ويتجاهل الماديون حقيقة أن التاريخ الديني لا يقدم على الدوام ما هو جزئي ومؤقت ومرحلي، وإنما يقدم كذلك ما هو ذو طابع كلي وإيجابي ودائم. ولكن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا مُحقين في نقدهم لأتباع الدين عندما حولوا «فهمهم» للدين الأصلي إلى حقائق نهائية ومؤسسة وكهنوت يركز على الطقوس والمظاهر أكثر مما يركز على نقاء الضمير والفضيلة واتساق الظاهر والباطن، ويركز على الشكلي والسلطوي والقهري أكثر مما يركز على الجوهري والعقلي والإنساني.

ويبدو - من وجهة نظري - أن هذا قدر كل دين، عندما ينسى أتباعه في عصور الانحلال والتراجع الطبيعة الأصلية والمقصد الحقيقي له. ولهذا نجد أن محمدًا ﷺ كان يدرك خطر تحول الدين عن أصله إلى شكليات، ويخشى من «البدع» التي تفقد الدين جوهره وتتحول فيه الوسائل إلى غايات،

والنوافل إلى فروض، والشكليات إلى جوهريات، والفروع إلى أصول، والعادات الاجتماعية إلى واجبات دينية!.

وهنا لا بد أن نفهم أن تحذير محمد (عليه الصلاة والسلام) كان من «البدع» في مجال العبادات، وليس من «الإبداع الإنساني» في مجال الحياة. ولذا فإنه في الوقت الذي حذر فيه من الأولى، دعا إلى تجديد فهم المسلمين للدين في جانبه المتعلق بالحياة، بغية تخليص فهم الدين من العنصر التاريخي ذي الطابع المؤقت الجزئي والعرضي، والتدبر والتنقيب لاكتشاف ما هو دائم وكلي وجوهري ومع ذلك يتنوع في معناه ليلائم التطور الحادث في ظروف الناس والمجتمع والتاريخ؛ ولذلك فإن المفسرين الأوائل عددوا المعاني للآية الواحدة واللفظ الواحد، ليس فقط في نطاق التفسير العقلي أو التفسير بالدراية، بل أيضًا في نطاق التفسير بالمأثور عند السلف القائم على تعددية مدهشة لا يفهمها أهل الجمود في عصرنا.

2- إشكاليات الفهم و«المشروع الحداثي» الذي لم يحققه المسلمون بعد

بقدر وجود فجوة بين «فهم الغرب» و«الإسلام الأصلي»، توجد فجوة من نوع آخر بين «فهم المسلمين» و«الإسلام الخالص».

والحل ليس هو تجديد الإسلام، بل تجديد المسلمين. وفي ظني، إن هذا سوف يقضي على الفجوتين في وقت واحد.

كيف؟

إن تأسيس عصر ديني جديد يجرنا إلى مجموعة من الإشكاليات الحقيقية

التي تتعلق بواقع المسلمين اليوم وعلاقتهم بالإسلام الحقيقي؛ وهي علاقة تقوم على فهم هش ومزيف، ولذلك ازدادت الفجوة بين المسلمين والإسلام. وهذه الفجوة، لا تُسْأَل عنها فقط الظروف التاريخية والاجتماعية، وإنما يُسأل عنها أيضًا «الخلل في طرق التفكير» وهو خلل جاء نتيجة التعليم القائم على الحفظ والتلقين لا الفهم والتدبر، والمصيبة أن من يحاول الفهم لا يُعمل عقله، وإنما يستعير فهم الأقدمين أو يستورد فهم الغرب!.

وتتمثل إشكاليات الفجوة في الإشكاليات الآتية:

لماذا يحصر المسلمون أنفسهم في جانب ضيق: نصف الجسد الأسفل، الجنس، الزوجات، الطقوس .. بينما رؤية الإسلام أوسع من ذلك بكثير: الكون، الإنسانية، الحضارة، التاريخ، العدالة الاجتماعية، الإنصاف؟

لماذا يفهم البعض تعاليم الله على أنها تعاليم شكلية حرفية تتعلق بالظواهر أكثر مما تتعلق بالبواطن؛ ومن ثم حوّلوها من تعاليم للروح والجسد معًا إلى تعاليم للجسد فقط، وحولوها من تعاليم للسلوك إلى تعاليم للمظهر والشكليات بوجه عام؟!

والمفارقة المتجددة: لماذا يفشل المسلمون بينما هم يؤمنون بدين عظيم عالمي يحمل بداخله كل عناصر التطور؟

لماذا انهزم المسلمون في الماضي أمام التتار بينما انتصر عليهم الإسلام؟! ولماذا ينهزم المسلمون منذ قرون أمام الغرب، ولا يزال الإسلام صاعدًا؟!

ثم لماذا فشل المسلمون في استعادة ماضيهم المجيد الذي تميز بالقوة والإنجازات الحضارية، والذي أعقبه فترة غلب عليها التدهور الخطير والسقوط في بئر التخلف بل والتهميش؟

ما الأخطاء التي أدت بهم إلى هذا المصير؟ ولماذا؟ وما الذي يقتضيه ذلك من تحركات في المستقبل؟

وما أسباب الفشل في المصالحة بين الإخوة الأعداء: «الإسلاموية» الأصولية في مقابل الإسلاموية الليبرالية؟

ولماذا فشلت التيارات الأصولية في اتخاذ موقف عقلاني واقعي في مواجهة تيار العولمة المتسارع الذي يحمل اللهجة الأمريكية؟

ولماذا فشلت في تحقيق حالة جديدة من الانسجام بين «الإسلام» و«المعاصرة» بشكل يمكّن المجتمع الإسلامي من اللحاق بالركب ودخول الألفية الجديدة بخطى واثقة تعتمد على الثقافة والتمدن؟

هذه إشكاليات تحتاج إلى إجابة، وهي أيضًا شجون تثيرها حالة «التناقضات» التي يعيشها العالم الإسلامي والتي عجز التيار السياسي الإسلامي عن حلها، ومن ثم عجز عن تقديم نموذج عصري حداثي يقرب الإسلام من العالم، ويقرب العالم من الإسلام.

لكن إلى متى سوف تستمر هذه الإشكاليات؟

إنها فعلًا إشكاليات حقيقية، وتحتاج إلى حل لا في الكتب والمقالات، بل في الواقع المرير الذي ينظر فيه العالم إلى الإسلام باعتباره أيديولوجية للإرهاب! والمسؤول عن ذلك ليس قصور النظرة الغربية فقط التي تخلط بين جماعات الإرهاب والإسلام، بل المسؤول عن ذلك أيضًا المسلمون بقصورهم وضعفهم وعصبيتهم وتخلفهم عن تقديم مشروع علمي وحضاري متمدن يواكب العصر.

إن آلاف الخطب العنترية وآلاف العمليات الإرهابية لن تحل أي إشكال من الإشكاليات السابقة، بل سوف تزيدها تعقيدًا، وهذا ما برهنت عليه المائتا عام الأخيرة. ومع ذلك لا تزال الخطب الجوفاء مستمرة، ولا تزال العمليات الإرهابية جارية!

إن المشروع العلمي الحداثي هو الإجابة الأساسية التي يمكن تقديمها لتجاوز العيوب التقليدية التي يقع فيها الخطاب الغربي، ومن تلك العيوب ذلك الطابع الذي يسيطر على الخطاب الغربي في اتهام الإسلام جزافيًّا ودون برهان حاسم: إما بضعف البعد الروحي، أو بالتخلف الديني المناهض لحركة العلم، أو بالإرهاب!

وقد جاء الحكم الأول نتيجة «المقارنة المعكوسة» بالمسيحية؛ حيث لا ينظر للإسلام وفق جدليته الخاصة، بل باعتباره انعكاسًا مقلوبًا لتاريخ المسيحية. فإذا كانت المسيحية رهبانية روحية، فإن الإسلام حسي مادي. وهكذا جاء الحكم على الإسلام بنقص الروحانية نتيجة عملية قلب عكسية.

في حين جاء الحكم على الإسلام بالتخلف الديني المناهض لحركة الارتقاء العلمي نتيجة «قياس المثل»، فإذا كانت المسيحية قد أعاقت حركة العلم في أوروبا، فإن الإسلام كذلك قد أعاق حركة العلم في الشرق! وهذا بالطبع موقف الاستشراق العلماني المناهض للكهنوت، لكن يوجد موقف آخر اتخذه الاستشراق التبشيري الذي قرن بين تقدم أوروبا والدين المسيحي من ناحية، وبين تأخر الشرق والدين الإسلامي من ناحية أخرى!

بينما جاء الحكم على الإسلام بالإرهاب، نتيجة «الخلط» بين الإسلامِ دينًا

خالصًا وعقولِ قطاع من المسلمين! وتستمر المغالطة وتتسع لتزعم أنه إذا كانت المسيحية مسالمة فالإسلام محارب!

ولا يريد أحد منهم أن يفهم أن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية عادلة، دفاعًا عن العرض والدم والأرض والحرية، وتحقيقًا للعدالة الاجتماعية والقانونية. بينما المسلمون يظهر في طوائف منهم - منذ أمد بعيد - مفاهيم مغلوطة عن الجهاد بوصفه إكراهًا على الإيمان، وبوصفه فرضًا للرأي الواحد. وتمتد المفاهيم المغلوطة لتواجه الرأي المخالف بالحديد والنار! ولا يزال يسيطر على قطاعات كبيرة منهم الرؤية الأحادية للعالم، بينما الإسلام نفسه يعترف بالتنوع البشري، ويدعو للتعايش الإنساني، ويدعو إلى قيم وأخلاق التقدم. وهذا هو «قلب الحداثة» التي لم يدخلها المسلمون المعاصرون حتى الآن!

3- تغيير رؤية العالم Worldview

إن تجديد المسلمين يقتضي أول ما يقتضي تغيير رؤية العالم Worldview في مخيلتهم؛ لأن هذه الرؤية هي الأساس النظري للفهم والتفكير، وهي التي تضع المحددات التي في ضوئها يتشكل الفعل وطرق التعامل والتفاعل مع العالم المحيط وعناصره.

ورؤية العالم في تصوري - ولا يعنيني هنا إن كنت متفقًا أو مختلفًا مع إمانويل كانط أو فيلهِلم دلتاي أو غيرهما - أقول رؤية العالم هي الإطار العام الذي نفهم به كل ما يحيط بنا: الكون، الحياة، الناس، مستويات الوجود، الثقافات العالمية، بل هي الإطار الذي نفهم به أنفسنا أيضًا؛ لأن

رؤية العالم هي المجموعة الأساسية من التصورات الافتراضية عن العالم وتتضمن في داخلها كتلة المعتقدات الكلية التي يحيا بها الإنسان؛ وفي ضوئها يضع الوعي الجمعي للناس علاقاتهم مع العالم، ونجد لها انعكاسات واضحة على الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

وعلى هذا فإن وظيفة الرؤية هي وظيفة معرفية، وهي نقطة البدء في تغيير المسلمين؛ فالمسلمون اليوم - أو أغلبهم - ببساطة يملكون رؤية عقيمة عن العالم، وهي رؤية تتقاطع مع الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم (التي حاربها الإسلام الأول لكن المسلمين في عصور التراجع ارتدوا إليها)، وهذه الرؤية السحرية لا تخرج عن مجمل رؤية العصور الوسطى الأوروبية. والغرب والشمال والشرق الأقصى يتقدمون علينا لأنهم ثاروا على هذه الرؤية السحرية اللاهوتية، وكافحوا من أجل تكوين رؤية علمية للعالم. وهذه الرؤية هي الأساس النظري لكل مكتسباتهم العلمية والحضارية وتفوقهم علينا في التكنولوجيا، والعلوم الاجتماعية، والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية.

إن الرؤية السحرية تقوم على رؤية العالم محكومًا بالسحر والسحرة والجن والعفاريت والأشباح والأعمال السفلية تارةً، والتدخلات الغيبية الخارقة تارةً أخرى. أما قوانين الطبيعة فهي شيء طارئ وثانوي، والعلوم الرياضية والطبيعية من النوافل في التعامل مع الكون، وأيضًا العلوم الإنسانية والاجتماعية هي آخر شيء يمكن اللجوء إليه لحل مشاكل المجتمع أو الفرد، بل هي غير حاضرة في أي منهج يدرس العلوم الدينية التي تعتمد كلية على النقل والحفظ والترديد!

والعـالم باختصـار محكـوم بقـوى غيبيـة تربـط وتنظـم الأشـياء بصـورة منافية للقوانـين العلميـة التـي تحكـم الطبيعـة في الرؤيـة العلميـة. ومـن هنـا تكـون الـردة - دون وعـي - إلى تصـورات الأديـان السـحرية التـي انتبذهـا الإسـلام.

ولنقـف قليـلًا عنـد الفـروق الحقيقيـة بـين الإسـلام الأول والرؤيـة السـحرية التـي تعـد إحـدى سـمات الخطـاب الدينـي في عصـور التراجـع، وهـذه الفـروق - مـن وجهـة نظرنـا - تكمـن في الجوانـب الآتيـة:

يعتمـد السـحر عـلى التأثـير في الأشـياء عـن طريـق كائنـات شـيطانية أو أرواح أو تعاويـذ أو كلـمات أو قـوى غيبيـة كامنـة في بعـض الأشـياء الماديـة، أمـا الإسـلام الأول فينـص عـلى أن كل شيء في الكـون خاضـع لقانـون السـببية Principle of Causality، وهـو المبـدأ الـذي يقـرر أن لـكل ظاهـرة سـببًا، وأن لا شيء يحـدث مـن لا شيء، وكل مـا يظهـر للوجـود فلوجـوده علـة، وأن الأسـباب تتبعهـا النتائـج المترتبـة عليهـا.

والسـببية مـن مبـادئ الطبيعـة، وأيضًـا مـن مبـادئ الفكـر، وهـي مبـدأ قـرآني راسـخ، فاللـه - سـبحانه - كـما يقـول ابـن القيـم: «ربـط الأسـباب بمسـبباتها شرعًـا وقـدرًا، وجعـل الأسـباب محـل حكمتـه في أمـره الدينـي والشرعـي وأمـره الكـوني القـدري ومحـل ملكـه وتصرفـه؛ فإنـكار الأسـباب والقـوى والطبائـع جحـد للضروريـات وقـدح في العقـول والفطـر ومكابـرة للحـس وجحـد للـشرع والجـزاء؛ فقـد جعـل سـبحانه مصالـح العبـاد في معاشـهم ومعادهـم والثـواب والعقـاب والحـدود والكفـارات والأوامـر والنواهـي والحـل والحرمـة، كل ذلـك مرتبطًـا بالأسـباب قائمًـا بهـا، بـل العبـد نفسـه وصفاتـه وأفعالـه سـبب لمـا يصـدر عنـه، بـل الموجـودات كلهـا أسـباب ومسـببات. والـشرع كلـه أسـباب ومسـببات،

والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر. والقرآن مملوء من إثبات الأسباب... ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة، ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر؛ ولهذا قال من قال من أهل العلم: تكلم قوم في إنكار الأسباب فأضحكوا ذوي العقول على عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة...» (ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

ومن هنا يجب إعادة ضبط هذا العنصر في رؤية العالم التي يجب أن ينطلق منها أي خطاب ديني جديد، باستبعاد الرؤية السحرية المنكرة للسببية من طرق تفكير المسلمين، واستعادة الرؤية العلمية التي حكمت تقدم طرق التفكير العلمي والتي أدت إلى تقدم العلوم الرياضية أولًا، ومن بعدها العلوم الطبيعية، ثم العلوم الاجتماعية والإنسانية، والتي أكدها التصور القرآني للعالم بوصفه محكوما بالسببية الطبيعية وليس بقوى سحرية أو ميتافيزيقية خارقة.

والمسألة هنا لا تتعلق فقط بالعلم وطرق إنتاجه، بل تتعلق بضرورة تغيير طرق تفكير الناس العادية في الحياة اليومية وفي العمل والمجتمع والسياسة، ومن ثم يجب فض الانفصام بين العلم الذي يُدرس في الكتب وطرق تفكير رجل الشارع والمشتغل بالدين أو الإعلام أو غيره من منابر الرأي والتعليم والثقافة.

4- وحدة البنية الحاكمة للتفكير الأسطوري في الدين والسياسة

إن العلاقة بين «المتناهي» و«اللامتناهي» من أهم الفروق الحقيقية بين

الإسـلام الأول برؤيتـه للعـالم والرؤيـة السـحرية اللاهوتيـة التـي تعـد إحـدى سـمات الخطـاب الدينـي في عصـور التراجـع؛ حيـث إعـادة بنـاء العـالم طبقًـا للتفكـير العقـلاني في الرؤيـة الأولى أو إعـادة بنائـه طبقًـا للخرافـة والأسـطورة في الرؤيـة الثانيـة.

فالعلاقـة بـين «المتناهـي» و«اللامتناهـي»، أو بـين الإنسـان واللـه، تقـوم في الرؤيـة السـحرية اللاهوتيـة عـلى العلاقـة بـين «المتناهـي» و«متنـاهٍ آخـر» وإن كان ذا قـدرة أكـبر، أي العلاقـة بـين الإنسـان مـن جهـة والسـاحر والجـن أو الأرواح أو الأوليـاء أو رجـال الديـن أو الأئمـة مـن جهـة أخـرى.

فهـي علاقـة تقـوم عـلى الوسـاطة، وقـد تكـون هـذه الوسـاطة سـاحر أو مشـعوذ أو حتـى رجـل ديـن أو مشـعوذ أو ولي مـن الأوليـاء، وعندمـا يتعلـق الأمـر بالسياسـة فهـي تقـوم عـلى وسـيط سـياسي يحـدد معـالم الحـق والباطـل ويحـدد الصـواب والخطـأ، أمـا الفـرد فهـو مجـرد منفـذ للتعليـمات والأوامـر دون تفكـير مسـتقل ودون حريـة شـخصية ودون رأي شـجاع أو متفـرد.

فالبنيـة الحاكمـة للتفكـير الأسـطوري في الديـن هـي نفسـها البنيـة الحاكمـة للتفكـير الاتباعـي الأعمـى في السياسـة؛ ففـي التفكـير الدينـي القائـم عـلى الرؤيـة السـحرية اللاهوتيـة يكـون الإنسـان الفـرد منسـحقًا أمـام الوسـطاء بينـه وبـين اللـه، وفي التفكـير السـياسي القائـم عـلى الرؤيـة السـحرية اللاهوتيـة يكـون الإنسـان الفـرد منسـحقًا أمـام المتحـدث باسـم اللـه عـلى الأرض!.

إن التفكـير الدينـي الأسـطوري يضـع «وسـطاء» يشـغلون المسـافة الكائنـة بـين الإنسـان واللـه، والتفكـير السـياسي الأسـطوري يضـع «وسـطاء مـن نـوع آخـر» بـين الإنسـان والحـق العمـلي.

ونجد في التفكير الديني الأسطوري وفي التفكير السياسي الأسطوري معًا، أن «الحق يُعرف بالرجال»، فرجال محددون هم مقياس الحق والحقيقة، وليس الحق قيمة في ذاته، ولا تنبع معاييره من داخله ولا من تطابقه مع الواقع أو مع الكتاب؛ فرجال معينون إن قالوا فقد أصابوا حتى لو كان قولهم مخالفًا لكل كتاب، وحتى لو صرخ الواقع ببطلانه!.

والقداسة ليست لكتاب الله ولا سنة رسوله الصحيحة، بل للمزايدين على الدين، والذين يرفعون شعاراته لفظًا ومظهرًا لا سلوكًا ولا عملًا ولا دولةً.

في التفكير الديني الأسطوري نرى القرآن للزينة المقدسة، وفي التفكير السياسي الأسطوري نرى القرآن على أسنة السيوف، وهي كلمة حق يراد بها باطل.

وفي التفكير الديني الأسطوري يتم تقديس «الدين» أكثر من «رب الدين»، وفي التفكير السياسي الأسطوري يتم تقديس التفسير السياسي للدين على حساب مقاصده الكلية الأكثر رحابة.

وعلى عكس التفكير الديني الأسطوري والتفكير السياسي الأسطوري، نرى الإسلام الأول لا يعطي أي مجال للوسطاء؛ فالعلاقة مباشرة بين «المتناهي» و«اللامتناهي»، أو بين الإنسان والله، ولا مجال لسلطة ساحر أو عفريت أو ولي أو رجل دين أو مرشد، ولا وجود لوسيط سياسي يحدد معالم الحق والباطل ويحدد الصواب والخطأ، ولا مجال للاتباع الأعمى؛ والحق يعرف بتطابقه مع الكتاب والواقع الخارجي المتعين، ولا وجود للمتحدثين باسم الله على الأرض، وكل البشر يصيبون ويخطئون.

إن التفكير الديني الأسطوري والتفكير السياسي الأسطوري، كليهما يقوم على حيلة فكرية سلبية مخاتلة؛ أي مخادعة. والـخَتْل أَي الـخِدَاع .. وخَتَلَ الذِّئبُ الصَّيدَ: تَخَفَّى له؛ وكلُّ خادع خاتلٌ وخَتُولٌ. والـمُخاتَلة: مَشْيُ الصيّاد قليلًا قليلًا في خُفْية لئلا يسمعَ الصيدُ حِسَّه، ثم جُعل مثلًا لكل شيء وُرِّي بغيره وسُتِرِ على صاحبه. (ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب). وهذا عين ما يحدث في الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم، حيث الوقائع العينية خافية، وأقوال قادة القطيع ترتفع وتصول وتجول وتتخفى وراء أقنعة كلمات حق يراد بها باطل، ولذا تنجح في أن تخفي الواقع عن أعين الأتباع!

فلا فرق بين سحر السحرة بالمعنى الحرفي، وسحر قادة القطيع في بعض المذاهب الدينية المؤدلجة، وسحر الخوارج الجدد في السياسة؛ فكلهم (سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ {7/116}) [الأعراف: 116].

لكن نجاح السحرة في إرهاب أو استرهاب الناس، لم ينهِ القصة! فللقصة نهاية أخرى (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {7/118} فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ {7/119}) [الأعراف: 118 - 119].

ولا يمكن أن نستعيد في عصرنا "عصا موسى"، لكن يمكن أن نستعيد الإسلام الأول، والعلم الحديث، والوطنية، ووحدة الصف، والأخذ بالأسباب، والتخطيط الإستراتيجي، والعمل الجاد، وهي كلها "عصا موسى الجديدة" التي ننتظرها ضد الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم وأتباعها الذين خضعوا لأكبر عملية "تغييب" ضد الدين والوطن؛ نتيجة وقوعهم في الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم التي تصنع التقليد الأعمى والتعصب

المطلق الانتحاري، غافلين عن أن رؤية الإسلام الأول للعالم هي التي صنعت رجالًا نبذوا التقليد واتباع البشر للبشر دون دليل أو تعقل أو برهان.

وتلك الرؤية للعالم عندما أثرت في أوروبا في نهاية العصور الوسطى صنعت الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر الذي رفض الوساطة بين الإنسان والله، ورفض التفسيرات المغلقة الثابتة المتحجرة التي قدمها الكهنوت للكتاب والكون.

ومن هنا كانت نقطة انطلاق أوروبا نحو عالم جديد انكسرت فيه الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم، وبدأت رويدًا رويدًا تشكل لنفسها رؤية جديدة للعالم.

5- تغيير طريقة إدراك المسلمين لـ «مفهوم الدين»

من الخطوات اللازمة لتغيير «رؤية العالم Worldview» الجهولة التي أنتجت كل الظواهر السلبية عند المسلمين المعاصرين، تغيير طريقة إدراك المسلمين لـ «مفهوم الدين»؛ لأن المسلمين شئنا أم أبينا تتكون عندهم رؤية العالم من خلال الدين، حتى لو كانوا مُفْرِطين أو مُفرِّطين في الدين.

وهذا التغيير لا يمكن أن يتم دون تغيير «مفهوم الدين» في عقولهم؛ لأن المفهوم هو شرط أولي قَبْلي بلغة الإبستمولوجية أو نظرية المعرفة، وأي تجديد لاحق لطرق فهم العقائد والشرائع وفق معناها النقي سيفشل فشلًا ذريعًا إذا لم يكن المفهوم الكلي للدين منضبطًا في عقول الناس، فالمفهوم الكلي الأولي يلون كل ما يتلوه بلونه الخاص، فهو بمثابة العدسة التي ينظر منها المرء، فإذا كانت حمراء سيرى كل شيء أحمر، وإذا كانت صفراء سيرى كل شيء أصفر، وإذا كانت سوداء سيرى كل شيء أسود! وهكذا.

إن مفهوم الدين هو ببساطة «المعنى العام» للدين، فما المعنى الذي يسود في عصور التخلف والتراجع؟ وما المعنى النقي الذي يجب أن يسود إذا أردنا تجديدًا حقيقيًا للخطاب الديني وتغييرًا حقيقيًا في مسْلمِي المستقبل؟

المعنى الضيق للدين هو مجموعة من الطقوس والشعائر إذا أداها المرء ضمن الخلاص ودخول الجنة حتى لو أهمل في عمله أو خدع الناس أو خان أو كذب أو مشى بالنميمة (وفي عصرنا: حتى لو انتخب بالباطل أو قتل أو حرق أو دمر أو نهب أموال الشعب أو الحكومة أو الدول الأخرى أو أصحاب الديانات أو الآراء المخالفة). فأداء بعض الشعائر عند المخادع لنفسه يمكن أن يطهره من كل الحقوق التي نهبها أو أضاعها أو تعدى عليها، لا فرق عنده بين الحق الخاص والحق العام ولا حتى حق الله! فبمجموعة من الطقوس يُمكن - في تصوره - أن يُرضي الله!

إن هذا المخادع يتصور أن الدين شيء والمعاملات شيء آخر، الدين مجرد نِيّات وأقوال ومظاهر، وهذا المخادع ليس هو فقط المتزمت الجهول الذي يزايد على خلق الله، بل هو أيضًا الفنان المفرط الذي يعتبر الدين مجرد عمل قلبي، وهو أيضًا المجاهد الزائف الذي يعتبر الدين قتلًا وسفكًا وإجبارًا على الإيمان، وهو أيضًا رجل الدين الذي يتعامل مع الدين باعتباره وظيفةً و«سبوبةً»، وهو أيضًا متصوف عصور التراجع الذي يعد الدين مجرد حلقة ذكر، وهو أيضًا الإعلامي الذي يرى في الدين مادة خصبة للإثارة!.

وتكوين خطاب ديني جديد بالمعنى الذي نفهمه لا بد أن يقوم على تغيير فهم المسلمين للدين، وهنا سوف نكتشف أن تجديد «مفهوم الدين» ليس تجديدًا بقدر ما هو عودة إلى المعنى الأصلي للدين قبل أن يتلون بثقافات

بدائيـة وعقـول مغلقـة ونفـوس مخادعـة وجماعـات تطلـب السـلطة بالديـن وترفـع المصاحـف عـلى السـيوف لحسـم صراع الكـراسي والنفـوذ والغنائـم!.

إن تجديـد «مفهـوم الديـن» إذن يكـون بالرجـوع إلى المعنـى الأصـلي للديـن، وهـذا المعنـى لا يمكـن الوصـول إليـه إلا بتحليـل فلسـفي لمفهـوم الديـن في علـوم اللغـة والنفـس والاجتـماع، وأيضًـا في تاريـخ الفلسـفة التـي اقتربـت مـن الديـن أحيانًـا، وابتعـدت عنـه أحيانًـا أخـرى، وعادتـه في قطـاع منهـا، واحتضنتـه في قطـاع آخـر. وأخـيرًا تحديـد مفهـوم الديـن في النـص الدينـي ذاتـه، أي كيـف يحـدد الديـن ماهيتـه بنفسـه؟ ومـاذا يقـول عـن نفسـه؟ وكيـف يـرى ذاتـه في مرآتـه هـو لا في أي مـرآة أخـرى؟!

إن إحـدى مهـام تكويـن خطـاب دينـي جديـد، تسـتلزم تعيـين وتحديـد جوهـر وماهيـة الديـن مـن حيـث هـو ديـن، ومـن ثـم معرفـة وظيفـة الديـن وتخليصـه مـن النظـرة الجزئيـة والضيقـة وأيضًـا مـن الاسـتغلال السـياسي أو الاجتماعـي.

ولـن نصـل إلى هـذا الهـدف مـن طريـق قصـير، بـل عـبر طريـق طويـل بعـض الـشيء مـن التعقـب والتحليـل.

ولنبـدأ بتحليـل فلسـفي للمفهـوم اللغـوي للديـن، وأرجـو أن يتحملنـي القـارئ بعـض الـشيء، فليسـت هـذه الأفـكار للاسـتهلاك الصحفـي، وإنمـا هـي رغبـة حقيقيـة في تغيـير معـان راسـخة في عقـول تكونـت في مـدارس التقليـد والاتبـاع الأعمـى، وتـم تربيتهـا عـلى السـمع والطاعـة وإلغـاء العقـل، وتحصيـل «المعلومـات المعلبـة».

عـرف الـرازي الديـن لغويًّـا فقـال: «الدِّيـنُ بالكـسر: العـادة والشـأن. ودَانَـهُ يدينـه دِينًـا بالكـسر: أذلـه واسـتعبده، فَـدَانَ. وفي الحديـث: «الكيِّـس

من دان نفسه وعمل لما بعد الموت». والدِّينُ أيضًا: الجزاء والمكافأة، يقال: دَانَ يدينه دِينًا أي جازاه، يقال: «كما تُدِينُ تُدَانُ»، أي كما تُجازِي تُجازَى بفعلك وبحسب ما عملت. وقوله تعالى: (أَئِنَّا لَمَدِينُونَ) [الصافات: 53] أي لمجزيون محاسبون. ومنه: الدَّيَّانُ في صفة الله تعالى. والمَدِينُ العبد، والمَدِينَةُ الأمة، كأنهما أذلهما العمل، ودَانَهُ ملكه، وقيل: منه سمي المصر مَدِينَةً. والدِّينُ أيضًا الطاعة، تقول: دَانَ له يدين دِينًا، أي أطاعه. ومنه الدِّينُ. والجمع الأَدْيَانُ. ويقال: دَانَ بكذا دِيَانَةً، فهو دَيِّن، وتَدَيَّنَ به، فهو مُتَدَيِّنٌ، ودَيَّنَهُ تَدْيِينًا: وكله إلى دينه".

وإذا حللنا فلسفيًا هذا التعريف اللغوي للدين، فماذا يمكن أن نجد؟

6- معنى الدين في خصوبته الأولى ضد التراث الديني الذي صنعه البشر

أصبحت الجماعة والحرف والنقل أوثانًا تعبد من دون الله! وصار الدين المزيف قناعًا لإجبار خلق الله على نمط رجعي للحياة، وأداةً لأغراض التمكين السياسي، ووسيلة لجمع الأموال، ومرتعًا لأهواء المفتين، وتبريرًا لسلوكيات اجتماعية متخلفة من عصور الانحطاط الحضاري، وتغلفت به «عادات» موروثة، وتلونت به جماعات المصالح، ورفعته شعارًا جموعٌ تحركها العاطفة وحماس القطيع، من دون غطاء من العقل أو الإرادة الحرة.

إن إحدى مهام تكوين خطاب ديني جديد - كما أشرنا في موضع سابق - تستلزم تحديد «جوهر الدين» من حيث هو دين، ومن ثَمَّ معرفة «وظيفة الدين» وتخليصها من النظرة الجزئية والضيقة وأيضًا من الاستغلال السياسي أو

الاجتماعي أو الاقتصادي. وربما يساعد تحليل معنى الدين في اللغة، في تحديد ماهية الدين، وهو ليس تحليلًا على طريقة القدماء في البدء بالمعنى اللغوي ثم المعنى الاصطلاحي، بل تحليلًا عقليًّا للغة والاصطلاح، وهذه أولى مهام «فلسفة الدين» التي لا تزال غامضة في ثقافتنا، ومختلطة بحقول أخرى مثل الفلسفة الدينية وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية أو اليهودية أو المسيحية، لدرجة أن بعض المختصين يقعون في هذا الخلط بين الحقول المعرفية، شأنهم شأن العوام الذين يرون كل شيء مثل الآخر لمجرد التشابه اللغوي.

وإذا حللنا عقليًّا المعنى اللغوي للدين يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

من معاني الدين في اللغة: «العادة». وربما أُعتبر الدين عادة؛ لأنه عندما يتغلغل في حياة الناس يصبح عادة؛ لكن مأساتنا أن العادات أصبحت دينًا! والمطلوب هو تغيير تلك العادات بكشفها وفضحها وكيف أنها ليست دينًا، بل مجرد عادات اجتماعية موروثة. ثم تكوين عادات تصبح سلوكًا للتقدم والبناء وليس للاستهلاك اليومي أو التوظيف الأيديولوجي، وفي الوقت نفسه استعادة الدين ليصبح هو العادة؛ فالدين في إحدى معانيه في اللغة هو العادة، لكن «أي دين؟».

هل هو دين الإسلام في نقائه وخصوبته الأولى؟ أم هو التراث الديني الذي صنعه البشر ليلائم زمانهم ومشاكلهم؟ أم دين علماء السلطان الذين أفتوا في عصورهم لحسم معاركهم هم لا معاركنا نحن؟ أم دين الخوارج في كل العصور الذين فهموا الدين بوصفه جبرًا وإجبارًا وجبروتًا؟

كذلك يكشف التعريف اللغوي للدين عن أنه «شأن»، والدين شأن، ربما لأن الدين شأن إنساني محض، وحالة إنسانية بحتة، فالدين نظام اجتماعي،

والحيوان بلا دين؛ لأنه ليس لديه هذا النظام، كما أنه لا يرتفع - فيما يشير الفيلسوف الألماني هيجل - عن مستوى الإحساس والغريزة، إلى مستوى العقل والتفكير، ولا يصعد إلى مستوى «المطلق» عن طريق الفكر، بل يظل عند مستوى الإحساس والغريزة.

إذن، الدين - هكذا ينبغي أن يكون - ارتفاع عن مستوى الإحساس والغريزة (وهو المستوى الذي تقف عنده قطعان الحيوان وأيضًا قطعان البشر)، إلى مستوى التفكير، لكن أي تفكير؟

إنه التفكير العقلي المنضبط في الاستدلال، وليس التفكير الذي ينتهجه هواة القفز على المقدمات، أو أنصار التفكير الجزئي الذي يقتطع كل شيء من سياقه الكلي، التفكير العقلي لا التفكير التبريري! ولا شك أن هذه نقطة تحتاج إلى توضيح، نرجو الوقوف عندها في موضع آخر، حتى لا نبعد هنا عن تحليل المعنى اللغوي للدين.

تشتق كلمة الدين في بعض الأحيان من فعل متعد بنفسه «دان يدينه دينا بالكسر»، أي «أذله واستعبده»، والمراد: أخضعه، وحكمه، وملك أمره، وقهره. وينطوي الدين بهذا المعنى على نوع من إخضاع أتباعه لنظام وقواعد، والتحكم في سلوكهم، وامتلاك أمور حياتهم بتدبيرها وتصريفها.

ومع أن هذا المعنى موجود في قواميس اللغة، فلا أظن أنه مقصود في أي من آيات القرآن الكريم، فالإسلام لم يأتِ للقهر ولا للاستعباد، بل جاء لتحرير الإنسان، وتحرير اختياره، والدين بلاغ وليس إكراهًا، والرسول مذكر وليس جبارًا، (وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ {29/18}) [العنكبوت: 18]، (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ

عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ {50/45}) [ق: 45]، (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ {10/99} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ {10/100}) [يونس: 99 - 100].

فالدين اختيار، وهذا الاختيار مرتبط بالحرية، وهذه الحرية قائمة على التعقل، والله يحب أن يأتيه عبده طوعًا لا كرهًا، ولو كان رب الكون - أستغفر الله - يريد ما يريده المتعصبون لأجبر أهل الأرض كلهم على الإيمان، لكنه - سبحانه - ترك الحرية للإنسان؛ (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ)[الكهف: 29].

إذن، المسألة تتعلق بتبليغ الحق وليس بالإجبار عليه، ومن هنا فهذا المعنى اللغوي الذي ذكره الرازي «... دَانَهُ يدينه دِينًا بالكسر: أذله واستعبده، فَدَان»، هو فقط مجرد معنى لغوي عند بعض الناس وفي بعض الاستخدامات التي تحرك جماعات العنف، ولا شأن له بالدين الخالص الذي يتأسس على الاختيار والحرية والتعقل، لا الجبر ولا الإجبار ولا الجبروت!.

(وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ) .. هكذا حسم القرآن الأمر برمته!

7- تجديد مفهوم الطاعة في الدين

إن «الرؤية اللاهوتية غير العلمية للعالم» تجد أقوى زخم لها في التقليد والاتباع الأعمى، وفي زعم امتلاك الحقيقة المطلقة في الدين والفقه والتفسير والسياسة. وسبب أصيل من أسباب حالة التراجع العامة، والتطرف الديني والسياسي، يكمن في هذه الرؤية المحكومة بالتقليد والتبعية المطلقة - دون

عقل نقدي - لبعض العلماء أو الدعاة، والطاعة العمياء لقادة الجماعات، والحفظ دون العقل، دون تحمل مسئولية التعامل المباشر مع القرآن والسنة الصحيحة.وذلك في حالة غريبة من مخالفة التعاليم القرآنية الواضحة، وتوجيهات النبي الحاسمة التي ترفض التقليد وإتباع ما سوى الله ورسوله.

وهذا أمر يدخل في لب مفهوم الدين، وفي التعامل الخاطئ مع هذا المفهوم، فمن معاني الدين «الطاعة»؛ حيث تؤخذ كلمة الدين - من بين ما تؤخذ - من فعل متعدٍّ باللام «دان له»، أي خضع له وأطاعه، ولذا فإن اللغويين يذكرون من معاني الدين «الطاعة»، يقول الرازي: «الدِّينُ أيضًا الطاعة، تقول: دَانَ له يدين دِينًا، أي أطاعه». ولذلك فإن الجرجاني في «التعريفات» رأى أن الشريعة تسمى دينًا لأنها تطاع، يقول: «الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى دينًا».

والإشكالية الكبرى هنا: طاعة مَنْ؟ طاعة الله ورسوله مباشرة دون وسيط، أم طاعة عبر وسيط؟

نصوص القرآن والسنة الصحيحة واضحة في طاعة الله ورسوله مباشرة دون وسيط من رجال الدين أو الكهنوت أو المتحدثين باسم الحقيقة المطلقة من أي نوع، لكن شيوخ وقادة عصور التراجع يؤوِّلون النصوص ويفسرونها بما يضمن لهم التدخل ليكونوا وسطاء بين عامة المسلمين والإسلام! ومن تلك اللحظة التي نجحوا فيها في السيطرة على عقول الناس، دخلت الحضارة الإسلامية في حالة تراجع أمام العالم كله. وعلى الرغم من هذه النتيجة السيئة فلا أحد يستطيع أن يستنبط أن هذه أفكار باطلة بدليل أن النتائج الملموسة في الواقع شديدة الوضوح على وجود خلل! ولا يسأل أحد منهم

سؤالًا واضحًا وبديهيًّا: إذا كان ما أؤمن به من أفكار بعض الزعماء الدينيين يأتي دائمًا بنتائج سلبية في الواقع، أليس هذا دليلًا على بطلانها؟

ألم أقل لك عزيزي القارئ من قبل: إنها عقول مغلقة لا ترى حولها، عقول تربت على الطاعة العمياء للآباء والمتحدثين باسم الله، عقول منفصلة عن الواقع المعاش ومنفصلة عن القرآن والسنة الصحيحة؟!

إن الطاعة بوصفها جزءًا أصيلًا من مفهوم الدين هي طاعة للقرآن والرسول مباشرة، وليست طاعة لأي متحدث باسمهما، فلا أحد يحمل «صكًّا إلهيًّا» يستوجب الطاعة؛ لأن المسئولية في القرآن الكريم مسئولية فردية وشخصية، ولا يجوز أن يرمي الشخص مسئولية ما يفعل على شخص أفتاه أو أرشده؛ فالإسلام ضد التبعية العمياء، يقول القرآن الكريم: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ {2/165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ {2/166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ {2/167}) [البقرة: 165 - 167].

إذن واضح أن الإسلام نبذ التقليد والاتباع الأعمى، وحمل كل فرد المسئولية بشكل شخصي؛ فهو المسئول عن اختياره، وهو المسئول عن قراره، والمرجعية فقط هي مقاييس الحق، وليست أقوال الرجال، حتى ولو كانوا في حجم وقامة الأئمة الأربعة أو غيرهم من القامات التاريخية. ولذلك يقول صديق حسن القنوجي في كتابه (أبجد العلوم: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم): «الأئمة الأربعة منعوا الناس عن تقليدهم، ولم يوجب الله

سبحانه وتعالى على أحد تقليد أحد من الصحابة والتابعين الذين هم قدوة الأمة وأئمتها وسلفها فضلًا عن المجتهدين وآحاد أهل العلم... لأن التقليد من صنيع الجاهل».

وعلى الرغم من موقف القرآن الحاسم من قضية التقليد، وموقف علماء الأمة الأوائل، فإن المتعصبين يتحدثون كما لو كان موقفهم قائمًا على براهين محكمة ونهائية! أي إنهم يخدعون غيرهم، بل ويخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، بأنهم أصحاب الحق في اتباع رجال بعينهم بوصفهم حاملي أختام الحقيقة المطلقة ذات البراهين المحكمة، مع أن براهينهم مليئة بجوانب الخلل التي تدل عليها النتائج السيئة في الواقع المعيش!.

وما هذا إلا لأن «الرؤية اللاهوتية للعالم» تنطوي على موقف «منغلق» غير قائم على التفكير النقدي؛ ومن ثَم لا يستطيع المتعصب أن يخرج وراء ذاته فيرى عيوب تفكيرها. إن هذا الموقف متهافت؛ خاصة أن أصحابه يؤكدون معتقداتهم غالبًا بسلطة الآباء أو القدماء أو قادة الجماعة دون برهان عقلي، ودون مراعاة الظروف المتغيرة، ودون أي احتمال لكونها ناقصة أو خاطئة أو معارضة للنصوص القرآنية المحْكمة وقطعية الدلالة.

ومن هنا فالمطلوب هو تجديد فهم المسلمين للدين، عن طريق ثورة في التعليم والإعلام، حتى تحل الرؤية العلمية للدين والعالم محل الرؤية اللاهوتية السحرية القائمة على النقل والحفظ والاتّباع الأعمى للذين وضعوا أنفسهم وسطاء بين الإنسان والله، وبين المسلم والقرآن، وبين الأمة ورسولها الكريم.

الفصل السادس

الإسلام الحـــــــر

1. الفقه الحر: هل يمكن أن يتطور الفقه الإسلامي؟
2. الإسلام الحـر : العودة إلى المنابع.
3. الإسلام الحـر ومعضلة الفوضى.
4. الإسلام الحـر وحرمة الحياة الخاصة.
5. الإسلام الحـر وحرية الاعتقاد والتنوع.
6. نقطة التوازن بين التنوع والحرية والطاعة.
7. غير المسلمين: لا للمساواة .. نعم للعدالة.
8. المسلم مأمور بالدفاع عن المسيحي وكنائسه!
9. الإسلام والسينما وحرية الإبداع (1 - 3).
10. الإسلام والسينما وحرية الإبداع (2 - 3).
11. الإسلام والسينما وحرية الإبداع (3 - 3).

الفصل السادس

الإسلام الحـــــر

1- الفقه الحر: هل يمكن أن يتطور الفقه الإسلامي؟

مـن أكـبر النـماذج الفقهيـة التـي كافحـت الجمـود ورفضـت التعصـب والمواقـف المنغلقـة، الإمـام الشـافعي «الفقيـه الحـر» الـذي اختلـف مذهبـه الفقهـي في مـصر عـن مذهبـه القديـم في العـراق. ومـن بـين أسـباب هـذا الاختـلاف مراعـاة ظـروف الزمـان والمـكان، وأتصـور قياسًـا عـلى ذلـك أن الإمـام الشـافعي نفسـه - الـذي يحتضنـه تـراب مـصر وقلبهـا - لـو عـاد إلى عصرنـا لأصبـح لـه فقـه جديـد يلائـم الزمـان الجديد ومتغيراتـه المعقـدة، ولرفـض مـا قـام بـه أتبـاع مذهبـه مـن تجميـد لمذهبـه، ولأعلـن اختلافـه مـع موقفهـم المعـادي للفقـه الحـر الـذي يتطـور بتطـور الزمـان واختـلاف المـكان.

ومـن المعلـوم أنـه تلقـى العلـم عـلى يـد مالـك، فالشـافعي تلميذ مالـك، ومالك نفسـه تلميـذ لأبي حنيفـة، وأحمـد بـن حنبـل تلميذ للشـافعي. لكـن أي فقيه منهم لم يتجمـد عـلى مذهـب أسـتاذه، بـل جـاء بمذهـب مختلـف، والإمـام أحمـد نفسـه الـذي يرمونـه بالتشـدد لا يوجـد لـه رأي واحـد في كل المسـائل، بـل إنـه في كثـير

من المسائل تجد له رأيين؛ ويجمع له البعضُ في المسألة ثلاثة آراء؛ مما يدل على وجود تنوع وتطور في الفقه الحنبلي ذاته.

ومن هنا فإن أئمة الفقه ضد التقليد والتعصب والجمود؛ لأنه ضد روح الإسلام ومقاصده التي تستهدف تحقيق المصالح الإنسانية وتراعي ظروف العصر ومتغيراته، ومن هنا أيضًا استقر المجتهدون من عصور الإسلام الذهبية على بطلان الجمود والتجمد، وعلى عدم ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة. قال الحصفكي (وهو من أشهر المؤلفين الأحناف في الفقه الحنفي): «إذا سُئِلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفنا قلنا وجوبًا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب» (محمد بن إسماعيل الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد). ويُروَى القول نفسه عن الإمام الشافعي. والكتب التي أُلفت لرد التقليد والتعصب كثيرة، مثل «أعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم؛ مما يدل على ازدراء التعصب والجمود.

لكن من جهة أخرى يتسم بعض علماء الفقه وأصوله بالتعصب والجمود؛ حيث يأخذون بالتقليد، ويرفضون مراعاة ظروف المكان والزمان، ولا يأخذون بالمصالح المرسلة والاستحسان وغيرهما. ومن أسف فإن هذا التيار المنغلق هو الذي كُتِبَت له السيادة مع انتهاء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، وهو الذي سيطر على الغالبية من أصحاب الصوت العالي الذين يزايدون على الدنيا والدين!.

إن الجمود الفقهي والتعصب الدوجماطيقي مرض يرفضه كثير من علماء أصول الفقه الذين يراعون في تفكيرهم المصالح المرسلة، والضرورات، والاستحسان، وظروف العصر. وتعطي النصوص يقينية الثبوت وظنية

الدلالـة المجـال لذلـك إلى أبعـد مـدى في ضـوء الـشروط العلمية للتفسـير واسـتنباط الأحـكام، بـل إن قاسـمًا مـن النصـوص التشريعيـة قطعيـة الثبـوت والدلالـة تعطـي مجـالًا للاجتهـاد مـن حيـث طـرق إنزالهـا عـلى الواقـع، فمـع أنهـا تقـدم قواعـد عامـة ومطلقـة تصلـح لـكل زمـان ومـكان، فإنـه يوجـد مجـال للاجتهـاد فيهـا عـن طريـق الاجتهـاد في إنـزال النـص عـلى الواقـع، وطريقـة إنزالـه تختلـف باختـلاف ظـروف البيئـة والموقـف والحالـة والعوامـل الداخلة فيهـا، مثـل: (إِنَّ اللـهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُـؤدُّواْ الأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَـا وَإِذَا حَكَمْتُـم بَـيْنَ النَّـاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللـهَ نعـمَّا يَعِظُكُـم بِـهِ إِنَّ اللـهَ كَانَ سَـمِيعًا بَصِـيرًا {4/58}) [النسـاء: 58]، (فَأَصْلِحُـوا بَيْنَهُـمَا بِالْعَـدْلِ وَأَقْسِـطُوا) [الحجـرات: 9]. فالعـدل قيمـة مطلقـة لا يختلـف عليهـا اثنـان مـن العقـلاء، وهـو مطلـب لـكل زمـان ومـكان. لكـن "الإجـراءات الضامنـة للعدالـة" يدخـل عليهـا باسـتمرار تطويـر يسـد الثغـرات التـي يدخـل منهـا المتلاعبـون والفسـدة والمحتالـون.

وهنـاك مثـل آخـر ربمـا يكـون أكـثر وضوحًـا وهـو «المؤلفـة قلوبهـم»؛ فالنبـي ﷺ «أعطـى المؤلفـة قلوبهـم مـن المسـلمين والمشركـين» (الشـوكاني، نيـل الأوطـار). ولم يعطهـم الخلفـاء الراشـدون بعـد النبـي (صـلّى اللـه عليـه وآلـه وسـلم)، قـال عمـر رضـي اللـه عنـه: «إنـا لا نعطـي عـلى الإسـلام شـيئًا، فمـن شـاء فليؤمـن، ومـن شـاء فليكفـر». فقـد انقطـع هـذا الصّنـف بعـزّة الإسـلام وظهـوره، وهـذا مشـهورٌ مـن مذهـب مالـك وأصحـاب الـرّأي. وقـد ادّعـى بعـض الحنفيّـة أنّ الصّحابـة أجمعـت عـلى ذلـك. وقـال جماعـةٌ مـن العلـماء: سـهمهم بـاقٍ لأنّ الإمـام ربّمـا احتـاج أن يتألّـف عـلى الإسـلام، وإنّمـا قطعهـم عمـر لمّـا رأى مـن إعـزاز الدّيـن في زمنـه.

والشـاهد مـن هـذا النـص القـرآني الـوارد آنفًـا أن القـرآن الكريـم يعطـي مجالًا للاجتهـاد مـن حيـث طـرق إنـزال النصـوص عـلى الواقـع الـذي يختلـف باختـلاف

ظروف البيئة والحالة والموقف والعوامل الداخلة فيه. فلا مجال للرأي الواحد المطلق، ولا مجال للانغلاق على «دوجما»، وإنما المجال مفتوح دومًا للاجتهاد الذي يدور حول «المصلحة المجتمعية» المحكومة بمعايير الشرع ومقاصده، و«الحكم يدور مع العلة وجودًا وعدمًا» كما يقول علماء أصول الفقه.

إن الجمود موقف متهافت؛ خاصة أن أصحابه يؤكدون معتقداتهم غالبًا بسلطة الأمراء الدينيين أو سلطة عقل شخصي يجزم أنه يملك الحقيقة، دون أي احتمال لكونها ناقصة أو خاطئة، ودون برهان محكم من الوحي أو العقل أو الواقع، ودون مراعاة الظروف المتغيرة. ولذا فإن الجمود نتاج للتعصب، والتعصب نتاج للدوجماطيقية، والدوجماطيقية عدو التطور وعدو الحياة وعدو سنن الله في تطور الإنسانية، ولا سبيل للتجديد الديني والدنيوي دون إزاحة «الدوجما» من العقول أولًا.

وهكذا نعود مجددًا إلى ضرورة تغيير «منهج التفكير» باعتباره شرطًا أوَّليًّا مطلقًا نلح عليه دون كلل من أجل تأسيس عصر ديني جديد.

2- الإسلام الحر: العودة إلى المنابع

يجب التأكيد مجددًا على أن الإسلام هو الإسلام وليس المسلمين، هو القرآن والسنة الصحيحة فقط. وقد اكتمل الدين في اللحظة التي أعلن فيها القرآن هذا، وبالتالي فكل ما زاد عن ذلك مجرد اجتهاد بشري يصيب ويخطئ. والإسلام الحر ليس إسلامًا آخر، وإنما الإسلام نفسه في طبعته الأولى الأصلية دون أقنعة أو تلوين سياسي أو اجتماعي من أجل مصالح فئوية. إنه عودة لمنابع النهر الصافية: القرآن والسنة الصحيحة.

ومعظـم التيـارات التـي انبثقـت في التاريـخ الإسـلامي فهمـت الإسـلام وفـق فهـم بـشري (خـاص)، وليـس في هـذا عيـب، وإنمـا العيـب عندمـا يزعـم فصيـل أن فهمـه للإسـلام هـو الحـق المطلـق، ومـا سـواه باطـل مطلـق! وهنـا منشـأ التكفـير والتفجـير، والانشـقاق والـصراع المميـت. ولـذا يجـب العمـل عـلى تحريـر التصـور الأصـل مـن الشـوائب المشـوهة التـي لحقـت بـه سـواء مـن البـدع في مجـال العبـادات أو الابتداع في مجـال السياسـة؛ حتـى يـبرأ الأصـل مـن شـبهات الصـور المزيفـة لـه، ويعـود هـذا الأصـل إلى جـذره «الحـر» في أصولـه الأولى النقيـة: القـرآن والسـنة الصحيحـة.

وبدايـة تحريـر المفهـوم تكـون باللغـة، لكنهـا ليسـت اللغـة في عالمهـا الضيـق الحـرفي، بـل اللغـة في فضائهـا الحـر، واللغـة في هـذا الفضـاء هـي صـورة الفكـر؛ فالفكـر هـو الـذي يصنـع اللغـة، فهـي صورتـه وليسـت أصلـه، عـلى عكـس بعـض تيـارات التعصـب والانغـلاق التـي تفكـر حسـب حرفيـة اللغـة فتقـع في التشـدد، حيـث يصبـح المعنـى أسـير الحـرف!.

فـصفة «حـر» ليـس معناهـا هنـا «الحريـة» فقـط كـما قـد يتـوارد إلى الذهـن، وأيضًـا «الحـر» ليـس مرادفًـا لـ«ليـبرالي» في معنـاه الغـربي الضيـق. «الحـر» هنـا وصـف للإسـلام بسـمة جوهريـة فيـه، ومعنـاه متعـدد الـدلالات؛ فالحـر هـو «الخالـص مـن الشـوائب pure» مثلـما نقـول «ذهـب حـر أو مـاس حـر»، أي نقـي خالـص لا يشُـوبُهُ مَعْـدِنٌ آخَـرُ. وهـذا هـو إسـلام القـرآن والسـنة قبـل الـصراع عـلى السـلطة، وقبـل نشـوء الفِـرَق؛ فمـن المعـروف أن بدايـة ظهـور الفـرق في تاريـخ المسـلمين كانـت بسـبب الاقتتـال عـلى الخلافـة.

والحـر أيضًـا هـو «الأصيـل»، يقـال «فَـرسٌ حُـرٌّ أي عتيـقُ الأَصْـل». وبهـذا المعنـى، فإننـا نريـد الرجـوع بالإسـلام إلى أصالتـه قبـل أن يلونـه البعـض بمواقفـه

السياسية ومصالحه الدنيوية من أجل السلطة أو الثروة أو الهيمنة الاجتماعية أو العلوّ في الأرض. والحُرُّ هو «الكريم والشهم»، مثلما نقول «رجل حر»، والإسلام في أصالته هو الإسلام الكريم والشهم، ولا معنى للكرم والشهامة دون إكرام الآخر والدفاع عنه وحمايته، أيًّا كان الآخر، ومن هنا نفهم معنى الإجارة لمن يستجير وحماية من يطلب الحماية حتى ولو كان فيه ما فيه .. تقول أم هانئ: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح... قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي أنه قاتل رجلًا قد أجرته «فلان بن هبيرة»! فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا مَن أجرتِ يا أم هانئ». وأيضًا الوفاء بعهد الأمان لمن أعطيناهم هذا العهد ولو كانوا كفارًا! يقول الرسول الحر ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس: فأنا حجيجه يوم القيامة» (رواه أبو داود، وهو صحيح).

والحُرُّ هو «الجزءُ الظَّاهر من الوجه». فالإسلام الحر ليس دين الأقنعة، ولا التلون، ولا العمل السري، ولا الحياة تحت الأرض، ولا المواربة، ولا النفاق؛ ظاهرُه كباطنه، يقول ما يفعل، ويفعل ما يقول.

والحُرُّ من القوْل أَو الفِعل «الحسن منه». يُقال: «هذا من حُرِّ الكلام». والإسلام الحر، لا يعرف لغة التخوين، ولا القذف، ولا «الشتيمة»، وهو ضد مَن إذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر في القول أو الفعل. والمرأة «الحُرَّةُ»، هي المرأة الشريفة التي لا تبيع عرضها، ومبادئ الإسلام «حرة» بهذا المعنى؛ فهي لا تباع ولا تشترى من أجل حفنة دولارات ولا إرضاءً لدولة عظمى أو صغرى! والحُرُّ في اللغة أيضًا هو «الخالص من الرقّ»؛ والإسلام حر لأنه لا يمكن أن يخضع لمستعمر ولا أن يكون مطيةً لحزب سياسي أو جماعة تسعى

إلى السـلطة. فقـد جـاء لا ليحـرر الإنسـان مـن العبودية لغـير اللـه وحـده، وإنمـا أيضًـا ليحـرره مـن سـلطة رجـال الديـن، ومـن تضليـل المتحدثـين باسـم اللـه، أو طـلاب السـلطة أو ثـروات رجـال الأعـمال.

والحـر أيضًـا صفـة تنطبـق عـلى القائـل بالحريـة والمؤمـن بهـا، والإسـلام حـر لأن الحريـة في التصـور الإسـلامي حـق إنسـاني أصيـل، والحريـة هـي القـدرة عـلى الاختيـار في الحيـاة أو العقيـدة أو السياسـة دون خضـوع لتأثـير خارجـي أو إكـراه معنـوي أو مـادي أو تهديـد بحـرق الوطـن. ففـي الإسـلام الإنسـان حـر بحكـم المولـد، قـال الفـاروق لحاكـم مـصر عمـرو بـن العـاص عندمـا اعتـدى ابنـه عـلى مسـيحي: «متـى اسـتعبدتم النـاس وقـد ولدتهـم أمهاتهـم أحـرارًا؟».

والحريـة في الإسـلام الحـر تحافـظ عـلى الدمـاء والأمـوال والأعـراض وحـق التفكـير وحـق الاعتقـاد؛ فـلا تكفـير للأفكار، ولا إهـدار للدمـاء، ولا قطـع للطريـق، ولا تعطيـل للمصالـح العامـة، ولا إجبـار عـلى اعتنـاق مذهـب، بـل لا إجبـار عـلى اعتنـاق الإسـلام نفسـه، والأولى لا إجبـار للآخريـن عـلى أن يعيشـوا النمـط نفسـه مـن الحيـاة الـذي أحيـاه أنـا. فللإنسـان حـق ممارسـة الحريـة مـا دام لا يـضر نفسـه أو الآخريـن وفـق القوانـين. فالحريـة في الإسـلام هـي الحريـة الملتزمـة، وهـي ضـد الفوضويـة التـي ترجـع فلسـفيًّا إلى الفرديـة المطلقـة عنـد شـميت وشـترنر وبـرودون وباكونـين في الغـرب، وإلى القرامطـة في تاريـخ المسـلمين.

والسـؤال: مـا موقـف الإسـلام الحـر مـن معضلـة الفـوضى، وحريـة الحيـاة الخاصـة، وحريـة الاعتقـاد، وحقـوق غـير المسـلمين، وحـدود حريـة الإبـداع؟

3- الإسلام الحر ومعضلة الفوضى

الجميع يتحدث عن الحقوق ولا أحد يحترم الواجبات؛ وكل فريق يتحدث عن حقوقه هو وينسى حقوق الآخرين. وكل فرد يتحدث عن حقه في الحرية، لكنه يقصد حقه في الفوضى! هذه هي معضلتنا.

وبعض الإعلاميين والثوار يتحدثون عن الحق في التعبير بينما يقصدون حق القذف والتشهير وانتهاك الأعراض: سواء كانت الأعراض بالمعنى المباشر للكلمة أو الأعراض بمعناها العام (الأعراض السياسية والمهنية)؛ فعرض الإنسان ليس فقط عرضه بالمعنى الجنسي، ولكن أيضًا عرضه بمعنى شرفه العام المتعلق بسمعته كليةً. فحرية التعبير التليفزيوني أو الإذاعي وحرية الصحافة لا تعطي أحدًا حقَّ إطلاق الأكاذيب أو الشائعات الضارة بسمعة طرف آخر. ويطلق على مثل هذا التعبير «قذفًا» إذا صدر لفظًا، و«تشهيرًا» إذا صدر مكتوبًا.

أما دعاة الاستبداد فيريدون بحجة الفوضى نزع كل الحقوق والحريات، والعودة مجددًا لحكم ديكتاتوري يحكم «شعبًا يخاف ولا يختشي»! وإذا كانت الأنظمة الفاشية والاستبدادية لا تلقي بالًا للحرية، فلا يقل خطأ عنها دعاة الفوضى باسم الحرية؛ فكلا الفريقين آثم، وكلاهما يُضيّع مصر ويضيع نفسه.

بينما الحل بسيط، وهو يا سادة: الفوضى حلها تطبيق القانون بحسم وعدالة ناجزة دون تراخٍ ودون ارتعاش. فمأساتنا أننا نتأرجح دومًا بين الاستبداد والفوضى .. مرة نعيش تحت القهر، ومرة نعيش تحت الفوضى،

ولا نعـرف المنطقـة الوسـط (الحريـة المسـئولة الملتزمـة بالقانـون). ولذلـك فليـس بديـل الفـوضى هـو العـودة للاسـتبداد ولا الدولـة البوليسـية، بـل هـو الالتـزام بالقانـون مـن النـاس، والالتـزام بتطبيـق القانـون عـلى الجميـع مـن الحكومـة.

إن الحريـة في الإسـلام مقدسـة، وقـد تنبـه إلى ذلـك الشـيخ المباركفـوري في تكملتـه عـلى «المجمـوع شرح المهـذب للنـووي» حيـث اعتـبر الحريـة الشـخصية مـن أعظـم مقاصـد الشريعـة. وقـد أكـد هـذا المقصـد الفقيـه التونـسي الطاهـر بـن عاشـور، وغـيره مـن الأصوليـين والفقهـاء الحقيقيـين؛ فالحريـة وإن لم يذكرهـا الأصوليـون مـن جملـة الـضرورات الخمـس فهـي عنـوان كل ضرورة مـن هـذه الـضرورات. لكنهـا ليسـت حريـة مطلقـة، بـل حريـة منضبطـة ومسـئولة تعطـي حقوقًـا في مقابـل واجبـات، مثـل واجـب المواطـن أن يدفـع ضرائـب، ويلتـزم قواعـد العمـل، ويلتـزم الـدور في الحصـول عـلى الخدمـات، وألا يعطـل مصالـح النـاس أو يـضر بـأي مظهـر مـن مظاهـر الحيـاة.

فالقانـون لا يسـحب حريـة الفـرد مثلـما يحـدث في النظـم الاسـتبدادية، بـل ينظمهـا مـن أجـل كـف الـضرر عـن الآخـر، ويضـع سـقفًا لحريـة الآخـر مـن أجـل كـف ضرره عـن الفـرد، أي إن القانـون هـو مـن أجـل تحقيـق حريـة متسـاوية لكل طـرف، ومـن أجـل الحفـاظ عـلى النظـام، وسـير الأمـور بيـسر ودون ضرر؛ فعندمـا يتعـذر عـلى سـيارتين في الوقـت نفسـه عبـور ملتقـى طـرق، دون اصطـدام، فـإن النظـام يحـدد أي اتجـاه تكـون للسـيارة القادمـة منـه الأولويـة في أن تمـر أولًا.

ويمنـع القانـون الفـرد مـن اسـتخدام حريتـه عندمـا تـضر بالمصالـح المشروعـة للآخريـن أو سـلامتهم أو صحتهـم أو حتـى رفاهيتهـم، فحريـة الـكلام حـق، لكنهـا ليسـت مطلقـة في قاعـات الـدرس، ولا في الصلـوات، كـما أن الحـق في

«حرية الكلام» لا يعني الحق في «الصراخ»، كأن يصيح فرد قائلًا «حريق» «قنبلة» في مكان مزدحم إذا لم يشب حريق أو توجد قنبلة بالفعل. وحرية التجارة لا تعطي لأحد الحرية في أن يغش الآخرين. وحق التصرف في الملكية الخاصة للعقارات لا يعطي لأصحابها حق التعدي على حرم الطريق أو حقوق الجار. وحرية أصحاب المصانع في إدارة مصانعهم لا تبيح لهم تلويث الجو أو إلقاء النفايات الصناعية في الطريق العام أو المياه أو غير المكان المخصص لذلك. لكن في مصر المحروسة «الحرية» تعني أن كل شيء مباح؛ فالمصري دومًا متفرد وله إبداعه الخاص! وهو أيضًا ينسى أن الحرية التزام ومسئولية (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).

إن المعاملة بالمثل هي المبدأ العادل، والقانون حق على الجميع، والفعل الذي أقوم به يشرع للآخرين أن يفعلوا مثله، فإذا كان من حقي قطع الطريق فمن حق الجميع أن يفعلوا ذلك. والتظاهر حق أصيل، لكن إذا كان من حقي - وأنا متظاهر - أن أعطل مصالح الشعب واعتدي على ممتلكات الآخرين، فمن حقهم أيضًا عندما يتظاهرون أن يعتدوا على ممتلكاتي ومصالحي العامة. وهنا تضيع الدولة، ويضيع الأمن القومي، وتتحول البلد إلى عشوائية وصراخ هيستيري.

ولا أدري كيف يبيح بعضهم لنفسه عند الاختلاف السياسي بين أبناء الوطن الواحد حقوقًا لا يبيحها الرسول ﷺ في حالة الحرب ضد الأعداء الذين يعتدون على الوطن؛ فيعطون لأنفسهم حق السحل والتنكيل، والاعتداء على المنشآت، وقطع الطريق!.

ومن سخرية زماننا أن نطالب ونرجو «فرقاء السياسة» أن يلتزموا قواعد

الحـرب! إن الجهـاد فـرض كفايـة أو فـرض عـين (حسـب طبيعـة الحـرب)، لكنـه يقـف عنـد حـدود عـدم الإضرار بالمصلحـة العامـة أو انتهـاك حقـوق الإنسـان أو الحيـوان أو الجـماد. فقـد أوصى الصدِّيـق أبـو بكـر جنـوده قبـل فتـح بـلاد الشـام (12 هــ) بقولـه: «لا تخونـوا، ولا تغلـوا، ولا تغـدروا، ولا تمثلـوا، ولا تقتلـوا طفـلًا صغـيرًا، ولا شـيخًا كبـيرًا ولا امـرأةً، ولا تعقـروا نخـلًا ولا تحرقـوه، ولا تقطعـوا شـجرةً مثمـرةً، ولا تذبحـوا شـاةً ولا بقـرةً ولا بعـيرًا إلا لمأكلـة، وسـوف تمـرون بأقـوام قـد فرغـوا أنفسـهم في الصوامـع؛ فدعوهـم ومـا فرغـوا أنفسـهم لـه».

وقـال الرسـول ﷺ في حديـث واضـح: «مـن ضيـق منـزلًا، أو قطـع طريقًـا، أو آذى مؤمنًـا، فـلا جهـاد لـه» (صححـه الألبـاني، الجامـع 6378).

فهـل يمكـن أن ينصـت المصريـون لثـوانٍ لحديـث سـيد الخلـق ﷺ حتـى يعرفـوا موقعهـم الحقيقـي؟

وهـل يمكـن أن ينصـت أصحـاب المحـلات والباعـة وقائـدو السـيارات والثـوار الأحـرار لقـول آخـر للمصطفـى عندمـا سـأله بعـض الصحابـة الكـرام: ومـا حـق الطريـق يـا رسـول اللـه؟ قـال: «غـض البـصر، وكـف الأذى، ورد السـلام، والأمـر بالمعـروف، والنهـي عـن المنكـر» (رواه البخـارى)؟

4- الإسلام الحر وحرمة الحياة الخاصة

مـن أكـبر مـآسي زمننـا الخلـط بـين الحريـة والفـوضى، مثلـما يحـدث في كثـير مـن مسـتويات المجـال العـام في مـصر؛ حيـث عـدم الخـوف مـن خـرق القانـون، وحيـث الرعونـة في تطبيقـه إمـا بسـبب جـبن المرتعشـين أو بسـبب الطيبـة الجوفاء أو اللامبـالاة بحـاضر البلـد ومسـتقبلها. وفي حالـة التعـدي عـلى الأمـن القومـي

أو النظام العام فلا تحدثني عن حرية، ولا تحدثني عن حقوق؛ إذ لن يكون هناك دولة ولا قانون يمكن الالتجاء إليه؛ لأن الآخرين سيكون لهم ذلك الحق أيضًا في انتهاك القوانين، وهنا تسقط فكرة الدولة، وتضيع البلد، وتستيقظ الصراعات المسلحة من مرقدها العفن.

ومن مظاهر هذه الفوضى انتهاك حرمة الحياة الخاصة، مع أن حرية الفرد في عالمه الخاص به، هي «حرم مقدس» لا يجوز لأحد انتهاكه أو الدخول إليه إلا صاحبه أو من يأذن له، وهنا تظهر مغالطة من يعتبرون أن حياة الساسة والفنانين والرياضيين والمشاهير مثلًا هي حق مشاع للإعلام الأصفر تحت دعوى حرية التعبير أو دعوى أن الحياة الخاصة للشخصية العامة أصبحت جزءًا من حياته العامة.

وتشمل حرمة الحياة الخاصة للفرد: العائلة والبيت والذوق الخاص، والأشياء المفضلة للفرد، بشرط ألا يكون في أي من ذلك عدوان على الغير .. (أنت وحدك الذي تحدد أسلوب حياتك ما لم تخرج على القانون). ويجب ألا تمتد يد السلطة الحكومية والاجتماعية إلى الحياة الخاصة، فهي «المجال الخاص» الذي تنتهي عنده سلطة قوانين المؤسسات العامة.

وهذا ما استقر في كل دساتير الدول الحرة؛ لكن المشكلة دومًا في التنفيذ، فبعض الحكومات تقول ما لا تفعل، حتى في الديمقراطيات العريقة مثل الولايات المتحدة، فقد حدث قديمًا فضيحة التجسس على الاتصالات، وفي هذه الأيام تعود من جديد بوصفها فضيحةً على المستوى الدولي؛ حيث التجسس على رؤساء الدول الصديقة بواسطة وكالة الأمن القومي الأمريكية التي لم تحترم القواعد التي تحمي الحياة الخاصة في عملياتها للتنصت على الاتصالات الهاتفية.

والإسـلام الحـر يقـدس الحريـة، لكنـه مثـل كل دول الحريـات العريقـة، يميـز بـين «المجـال العـام» و«المجـال الخـاص». فالمجـال العـام يضـم الميادين السياسـية والاقتصاديـة والمجتمعيـة، والحريـة في المجـالات العامـة غـير الشـخصية يجـب أن تكـون خاضعـة للرقابـة والضبـط القانـوني. فـلا حريـة في المجـال العـام دون التـزام بالقانـون؛ لأن الحريـة لهـا سـقف هـو القانـون وإلا تحولـت إلى فـوضى، وأهــم تعريفاتهــا في أعــرق الــدول إيمانًــا بالحريــة هــي «الحــق في فعــل كل ما تسمح به القوانين».

والحريـات المنضبطـة هـي حقـوق لـكل النـاس، وليسـت حقوقًـا لفئـة دون سـائر المجتمـع، فـلا يجـوز لأحـد أن ينتهـك حريـة الآخريـن، ثـم ينـادي باحـترام حريتـه هـو، فـإذا مـا تعـدى فريـق عـلى حريـة الآخريـن سـيكون مـن حقهـم أيضًـا أن ينتهكـوا حريتـه. إن بعـض النـاس يظـن أن القانـون يمنـع ويقيـد فقـط، وهـذا خطـأ لأن القانـون يحمـي حريـة الفـرد أيضًـا؛ فمثـلًا، يمنـع القانـون الفـرد مـن التعـدي عـلى الآخريـن، لكنـه يحمـي أيضًـا حريتـه مـن أن يعتـدي عليهـا أحـد.

وفي «المجـال الخـاص» يُعـدّ انتهـاك حرمـة الحيـاة الخاصـة أمـرًا مخجـلًا في الإسـلام الحـر. وهـو مـا تَبيَّنـه الفـاروق عندمـا نبهـه إلى ذلـك أحـد الأشـخاص، فمـن القصـص الذائعـة أن الفـاروق كان يتجـول بالمدينـة ليـلًا، فسـمع صـوت رجـل في بيت وهـو يتغنـى ويـشرب مـع رفاقـه، فتسـور عليـه، أي قفـز مـن فـوق سـور البيـت، فقـال: يـا عـدو اللـه أظننـت أن اللـه يسـترك وأنـت في معصيتـه؟ فقـال الرجـل: وأنـت يـا أمـير المؤمنـين لا تعجـل عـليّ، إن أكـن عصيـتُ اللـه واحـدة فقـد عصيـتَ اللـه في ثـلاث، قـال: (وَلَا تَجَسَّسُـوا)[الحجرات: 12]، وقـد تجسسـت، وقـال: (وَأْتُـواْ الْبُيُـوتَ مِـنْ أَبْوَابِهَـا) [البقـرة: 189]، وقـد تسـورت عـليّ،

وقد دخلت على بغير إذن وقال الله: (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا) [النور: 27]. قال عمر: فهل عندك من خير إن عفوتُ عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه، وخرج وتركه (رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق).

ويعني هذا أن الحياة الخاصة هي حق لصاحبها يستأثر بها ويحتكرها وحده، ولا يجوز لأحد أن يطلع عليها إلا بإذنه، وهي أعلى من حق الملكية الفردية لأنها غير قابلة للتنازل عنها. وهذا المعنى مستقر عند المفسرين، فقد قال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن): «... لَـمَّا خصّ الله ابن آدم الذي كرمه وفضله بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملكهم الاستمتاع بها على الانفراد، وحجز على الخلق أن يطلعوا على ما فيها أو يلِجوها دون إذن أربابها، أدبهم بما يرجع إلى الستر عليهم».

ولا تقتصر حرمة الحياة الخاصة في الإسلام على المسكن فقط، بل تشمل كل الخصوصيات وشئون الأسرة والاتصالات والمراسلات والأنشطة الإلكترونية الخاصة. بل إن مفهوم السكن الذي تشمله الحماية لا يقتصر فقط على البناء، بل يشمل ما يأوي الإنسان حتى لو كان بشكل مؤقت. لهذا قال الخطيب الشربيني في كتابه (مغني المحتاج) إن الفقهاء ذهبوا إلى أن الخيمة في الصحراء كالبيت المشيد في المدينة. ويشمل هذا في عصرنا غرف الفنادق والشواطئ، والسيارات، والطائرات الخاصة، والمكاتب الخاصة. وهي جميعًا تدخل تحت حق حماية الحياة الخاصة، ومن المحظور التجسس عليها أو تفتيشها أو الدخول إليها بغير إذن المقيم فيها أو إذن السلطة القضائية في حالة ثبوت وقوع جريمة ضارة بالآخرين. وهذا ما أكد عليه

العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ في المادة 17. فالأصل والقاعدة هي تقديس حرية الشخص في الحياة الخاصة، والتقييد لا يأتي إلا في حالة التعسف في استعمال هذا الحق بالتعدي على الغير أو حتى تعدي الشخص على نفسه كالانتحار أو تعمد حرق الممتلكات الخاصة مثلًا.

وللأسف هذه البديهيات المستقرة غائبة عندنا؛ فمأساتنا في مصر هي تارةً الاستغلال السيئ للحريات العامة والخاصة، وتارةً أخرى التعدي عليها، ولا يزال العرض مستمرًّا: مرة فوضى ومرة استبداد!.

5- الإسلام الحر وحرية الاعتقاد والتنوع

العلمانيون و«الإسلامويون» كلاهما يتقنّع بالديمقراطية بينما يمارس في الحقيقة الاستبداد. ولا يكفي أن ننادي بحرية الاعتقاد، بل يجب أن نقدم ضمانات لها؛ فكثيرًا ما رأينا دساتير ترفع شعارات الحرية، ثم تتركها دون ضامن، ومن ثم تتحول إلى سراب على أرض الواقع.

واليوم نحن نعقد الأمل على عصر ديني جديد يُظهر الحرية ويُبطنها، ويضع قوانين غير مراوغة تضمن حقوق الجميع، وأثمن هذه الحقوق حرية الاعتقاد واحترام التنوع. فلا معنى لديمقراطية حقيقية دون أن تتأسس على حرية الاعتقاد بالمعنى الواسع: حرية الاعتقاد الديني، وحرية الاعتقاد السياسي، وحرية الاعتقاد الاجتماعي.

واليوم أريد أن أتوقف لأستعيد معكم بعض البديهيات التي غابت نتيجة المزايدة على الدين عند من يظنون أنفسهم أوصياء على العقيدة وعلى الناس.

وللعجب أنهم يمارسون هذا باسم دين جاء أساسًا ضد فكرة فرض الوصاية (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ {88/21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ {88/22}) [الغاشية: 21 - 22].

إن موقف الإسلام الحر من حرية الاعتقاد الديني؛ لا مجال للجدل فيه؛ لكن المشكلة دائمًا تكمن في ممارسة بعض المسلمين الذين يتأسلمون أكثر من الإسلام نفسه، مع أن نصوص القرآن قطعية الدلالة؛ حيث يقول الله تعالى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة: 256]. ومع أن الدين الحق واحد، فقد سمح القرآن بتعددية الأديان في الواقع الفعلي: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {109/6})[الكافرون: 6]، بل اعتبر الاختلاف بين الناس أمرًا طبيعيًّا وسنة من السنن الكونية، يقول تعالى: (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {11/118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) [هود: 118 - 119]. والذي يفصل بين الناس هو الله تعالى وحده يَوْم الْقِيَامَة؛ فلا قاضٍ آخر يمثله، ولا أحد يتحدث باسمه: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {22/17}) [الحج: 17].

ولم تكن هذه النصوص بمعزل عن الواقع؛ بل تجلت فيه على أنحاء شتى، سواء على مستوى حركة المجتمع أو على مستوى ممارسات الدولة؛ فهذا عمر بن الخطاب رأس الدولة تأتيه امرأة مشركة تطلب حاجة لها، فدعاها للإسلام، لكنها رفضت، فقضى لها حاجتها، وشعر أنه ربما يكون تصرف بشكل فيه نوع من الإكراه المعنوي لها على الإسلام تحت ضغط الحاجة؛ فاستغفر الله على ما فعل، وقال: «اللهم إني أرشدت ولم أُكره».ومن قبل الفاروق قدمت تصرفات أستاذه وأستاذنا ﷺ مبدأً عامًّا وقاعدة لا يمكن خرقها؛ وجاءت ممارساته ومواقفه الحرة مؤيدة لذلك، حيث يروي الطبري

في جامـع البيـان عـن ابـن عبـاس: أن رجـلًا مـن بنـي سـالم بـن عـوف يقـال لـه «الحصـين»، كان لـه ولـدان مسـيحيان وهـو مسـلم، فسـأل الرسـول ﷺ أن يرغـم ولديـه عـلى الإسـلام، بعـد أن أصرَّا عـلى التمسـك بالمسـيحية، فنهـاه الرسـول عـن ذلـك، ونزلـت آيـة: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّيـنِ). وبعـد فتـح خيـبر وجـد الرسـول ﷺ نسخًا من التوراة بين الغنائم فأمر بردها إلى اليهود.

وكان لهـذا المبـدأ انعـكاس مثـالي عـلى بعـض الفقهـاء، لدرجـة أن الشـافعي اختلـف مـع أبي حنيفـة حـول مـدى جـواز مفاتحـة الـزوج المسـلم لزوجتـه غـير المسـلمة في مسـألة اعتنـاق الإسـلام؛ فقـد رأى أبـو حنيفـة جـواز ذلـك بـشرط عـدم الإكـراه، بينـما رأى الشـافعي أنـه لا يجـوز أن يعـرض الـزوج الإسـلام عـلى زوجتـه «لأن فيـه تعرُّضًـا لهـم، وقـد ضَمنـا بعقـد الذمـة ألا نتعـرض لهـم». وهـذا يؤكـد نـزوع الفقهـاء الكبـار نحـو احـترام حريـة الاعتقـاد، بـل وتقديـم ضمانـات تنـال احـترام المشـاعر، وتنبـذ أي نـوع مـن التأثـير المعنـوي؛ فاللـه ليـس بحاجـة لمـن يأتيـه كَرهًـا، وهـو غنـي عنـه، ولـو شـاء لهـداه للإيمـان، لكنـه يريـد سـبحانه أن يأتيـه عبـده بكامـل إرادتـه الذاتيـة وبرغبتـه الحـرة بشـكل مطلـق. وهـذه إحـدى دلالات مـا نقصـد مـن معـاني «الإسـلام الحـر». ولـذا قـال الإمـام محمـد أبـو زهـرة عـن الحريـة الشـخصية إنهـا: «حريـة الشـخص في أن يعتقـد مـا يـراه حقًّـا، وأن يتـصرف في دائـرة شـخصه بمـا يعـود عليـه بالخـير في نظـره مـن غـير تدخـل مـن أحـد، ولا تحكُّـم ذي سـلطان في إرادتـه».

إن المجتمـع في الإسـلام قائـم عـلى التعدديـة وحمايـة الجماعـات الضعيفـة والأقليـات، ومحاربـة التمييـز ضـد حقهـا في الحريـة. وينبغـي اسـتعادة هـذه المفاهيـم المدنيـة وتقنينهـا في الدسـتور والقانـون وتوسـيع نطـاق دورهـا وتدريـب

الناس عليها حتى يتحولوا إلى كائنات حرة مسئولة دون قهر أو إقصاء وأيضًا دون فوضى أو عشوائية.

إنها معادلة صعبة في مجتمع مراهق سياسيًّا، لكن لا بد أن نصنعها إذا أردنا دولة حرة يحكمها دستور عادل يحفظ الأمن والنظام العام والدولة الوطنية لكنه لا يفرط في الحرية. فهل يمكن أن نفعلها؟

والذي أريد أن أستنبطه من هذا كله لا يخص المتشددين فقط من «الإسلامويين» الذين يحتكرون الحقيقة، بل يخص المتطرفين من العلمانيين الذين لا يقلون في ادعاء احتكار الحقيقة عن الإسلامويين، فعلى الرغم من اختلاف المقاصد بين الاثنين إلا أن «ماكينة التفكير» واحدة، وتنتج طحينًا من النوع نفسه، الفرق فقط في اللون لا في الطعم!.

إنها مأساة العقل السياسي المصري المحكوم ببنية واحدة رغم اختلاف الثوب الخارجي!

6- نقطة التوازن بين التنوع والحرية والطاعة

إن الثقافة المصرية بالغة الغنى والثراء والتنوع، ومما يزيدها خصوبة قدرتها المتميزة على الانفتاح الإبداعي على ثقافات العالم بكل تنوعها التاريخي. وإذا كانت مصر شهدت توترات في العصر الحديث، فإن هذا يجب ألا يُنسينا أنها المنطقة التي توحدت وامتزجت فيها الحضارات منذ بداية التاريخ.

وقد أدرك مشروع الدستور هذه الحقيقة؛ فجاء متصالحًا مع التنوع الثقافي الذي تشكل في مصر عبر التاريخ، ففي المادة (47): «تلتزم الدولة

بالحفـاظ عـلى الهويـة الثقافيـة المصرية بروافدهـا الحضاريـة المتنوعـة»، وفي المـادة (50): «تـولي الدولـة اهتمامًـا خاصًّـا بالحفـاظ عـلى مكونـات التعدديـة الثقافيـة في مـصر».

كما جاء متسامحًا مع الاختلاف العقائدي مـن خلال النص على «الحرية المطلقـة للاعتقـاد»، أمـا حريـة ممارسـة الشـعائر الدينيـة وإقامـة دور العبـادة لأصحـاب الأديـان السـماوية، فهـي حـق ينظمـه القانـون. فنحـن لم ننضـج بعـد بالشـكل الـكافي - مثـل الـدول الديمقراطيـة العريقـة - لنكـون عـلى مسـتوى الحرية التـي يمنحهـا القـرآن الكريـم للأديـان، والـذي يسـمح بفتـح سـقف حريـة الشـعائر الدينيـة وإقامـة دور العبـادة، ولـو تـم هـذا في ظـل السـياق الاجتماعـي الثقـافي الـذي يسـيطر عـلى مـصر المعـاصرة لصـارت فـوضى تهـدد السـلم الاجتماعـي وسـتفتح أبوابًـا للفـتن لا عاصـم منهـا.

ففـي إطـار هـذا الدسـتور نجـد الإيمـان بالحريـة، لكنهـا ليسـت الحريـة المطلقـة، بـل الحريـة المسـئولة، والحريـة الشـخصية فيـه حـق طبيعـي، وللحيـاة الخاصـة والمنـازل حرمـة، وحريـة الفكـر والـرأي والإبـداع الفنـي والأدبي والصحافـة مكفولـة. ولا توقـع عقوبـة سـالبة للحريـة في الجرائـم التـي ترتكـب بطريـق النـشر أو العلانيـة. عـلاوة عـلى تأكيـد حريـة التفكـير والبحـث العلمـي والابتـكار، ومـا تطرحـه مـن رهانـات عـلى المسـتقبل، سـواء في مواجهـة مشـكلات واحتياجـات المواطنـين، أو في مجـال الأبحـاث الطبيعيـة والاجتماعيـة أو عـلى مسـتوى المشروعـات التنمويـة التـي تصـب في مصلحـة الاقتصـاد ودولـة الرفـاه الاجتماعـي. مـع التأكيـد عـلى أن حريـة البحـث وحدهـا لا تكفـي؛ إذ لا بـد مـن تخصيـص موازنـات ماليـة كافيـة، فدولـة لا تكـون الأولويـة فيهـا للعلـم

لا مستقبل لها. ولذا نص الدستور على التزام الدولة برعاية الباحثين والمخترعين وحماية ابتكاراتهم والعمل على تطبيقها.

والحريات التي يقدمها مشروع الدستور جاءت مؤسسة على مفهوم العقد الاجتماعي Social Contract ، وهو عقد بمقتضاه يتنازل كل فرد عن حريته للإرادة الكلية، ويصبح كل فرد جزءًا لا يتجزأ من الكل. وبموجب هذا العقد تصدر القوانين، والمتعاقدون تعاقدوا على أن يكونوا «كيانًا واحدًا» عند وضع القوانين من خلال ممثليهم في البرلمان، وأن يطيعوها باعتبارهم مواطنين. وهذه القوانين هي التي تصون حرية المواطن، بل إن هذه القوانين هي مصدر الحرية.

وبموجب العقد الاجتماعي تَضع الإرادة الفردية ذاتها تحت الإرادة العامة، وليست هذه الإرادة العامة سلطة أو مؤسسة خارجية، وإنما هي «الضمير الداخلي» لكل مواطن في المجتمع. وهنا تقع المسئولية على المواطن المصري الذي يتحتم عليه أن يرقى بضميره حتى يجعله الرقيب عليه، وفي قلب هذا الضمير «الله» الذي منح الإنسان الحرية واعتبارها أمانةً ومسئوليةً.

ولا بد أن يفهم المصريون أن جوهر الكيان السياسي هو «مركب» من الحرية والطاعة. فالحرية رغم أنها جوهر المواطنة فإنها ليست مطلقة، يقول جان جاك روسو ملهم الثورة الفرنسية: «لا تعتمد الحرية على أن يفعل الفرد ما يريد بإرادته الخاصة، بقدر ما تعتمد على ألا يخضع لإرادة شخص آخر، وهي تعتمد أكثر على عدم خضوع الآخرين لإرادتي الخاصة، ففي الحرية العامة ليس لأحد الحق في أن يفعل ما تحرمه عليه حرية الآخرين، إن الحرية الحقيقية لا تدمر نفسها قط». وفي هذا نقد واضح لهوبز فيلسوف الاستبداد

الـذي ذهـب إلى أن الفـرد ينقـل حريتـه إلى فـرد آخـر (أو مجموعـة أفـراد)، وهنـا يتحـول إلى فـرد مـن الرعيـة أو القطيـع خاضـع لحاكـم، يكـون صاحـب السـيادة، أي ذي سـلطة مطلقـة تشـمل حـق اتخـاذ أي قـرار، مثـل: حـقّ وضـع القوانـين، وحـقّ إعـلان الحـرب والسـلام، وحـقّ إقـرار وسـائل السـلم والدفـاع.

وليسـت علاقـة المواطنـين - في مـشروع الدسـتور - مـع بعضهم بعضًـا «تراتبية» مـن أعـلى إلى أسـفل بـين حاكـم ومحكـوم، بـل هـي علاقـة أفقيـة بـين الجميـع. ويريـد الدسـتور أن ينتقـل - مـن خـلال العقـد الاجتماعـي - مـن حالـة الطبيعـة (الفـوضى) إلى حـال المدنيـة (النظـام)، ومـن مفهـوم الحـق الطبيعـي إلى مفهـوم الحريـة المدنيـة حيـث العدالـة بـين كل المواطنـين. فالعقـد الاجتماعـي هـو أسـاس شرعيـة النظـام السـياسي، وهـو منشـأ الحكومـة بوصفهـا شرطًـا لانتظـام المجتمـع. والدسـتور هـو نـص هـذا العقـد الـذي يجـب أن يعـبر عـن إرادة الشـعب.

ولـذا اشـتمل الدسـتور عـلى أثمـن مـا في مقدمـة وثيقـة إعـلان اسـتقلال الولايـات المتحـدة 1776م والتـي جـاء فيهـا: «إن مـن الحقائـق البديهيـة أن جميـع النـاس خلقـوا متسـاوين، وقـد وهبهـم اللـه حقوقًـا معينـة لا تنـزع منهـم، ومـن هـذه الحقـوق حقهـم في الحيـاة والحريـة والسـعي لبلـوغ السـعادة. والحكومـات إنمـا تنشـأ بـين النـاس لتحقيـق هـذه الحقـوق فتسـتمد سـلطانها مـن رضـا المحكومـين وموافقتهـم. وكلـما سـارت أيـة حكومـة مـن الحكومـات هادمـة لهـذه الغايـات، فمـن حـق الشـعب أن يغيرهـا أو يلزمهـا، وأن ينشـئ حكومـة جديـدة، تـرسي أسـس تلـك المبـادئ، وأن تنظـم سـلطاتها عـلى الشـكل الـذي يبـدو للشـعب أنـه أوفى مـن سـواه لضـمان أمنـه وسـعادته».

ومـن الواضـح أن مـشروع الدسـتور يسـتلهم أفـكار العقـد الاجتماعـي في جناحـه الأكـثر دمقراطيـة الـذي يعطـي الشـعب حـق سـحب الثقـة مـن الحاكـم، في مقابـل الجنـاح الآخـر الـذي يمثلـه هوبـز الـذي يعتـبر العقـد تنـازلًا نهائيًّـا للحاكـم ويعطيـه الحـق في الحكـم دون الرجـوع إليـه.

لـكل هـذا يسـحب مـشروع الدسـتور البسـاط مـن تحـت أقـدام دعـاة الاسـتبداد الذيـن لا يؤمنـون بالوطـن ولا بالشـعب؛ بـل يتعبرونهـما وسـيلة لا غايـة، ويؤمنـون بالديـن لكنهـم يفهمونـه غـير فهـم محمـد ﷺ وأصحابـه الكـرام؛ فالديـن عندهـم ليـس مـن أجـل كل النـاس، بـل مـن أجلهـم هـم فقـط؛ إنهـم يؤمنـون بالإسـلام بينـما يمارسـون عقيـدة شـعب اللـه المختـار؛ فالإلـه إلههـم، وليـس إلـه العالمـين، وهـم الوطـن والشـعب والتاريـخ، بينـما الآخـرون هـم كفـار قريـش لا شركاء الوطـن!.

7- غير المسلمين: لا للمساواة .. نعم للعدالة

مـن مظاهـر الجهالـة في عصرنـا المطالبـة بالمسـاواة المطلقـة بـين الجميـع، فمـن يطالـب بهـذا لا يفهـم أن «المسـاواة المطلقـة» ضـد «العدالـة».

ولا شـك أن هـذه النظريـة تحتـاج إلى توضيـح، ولا شـك أيضًـا أن لها مسـتويات عديـدة: سياسـية واجتماعيـة واقتصاديـة ودينيـة. وأريـد أن أتوقـف اليـوم عنـد المسـتوى الدينـي فقـط.

فأنـا أفهـم أن هنـاك «مسـاواة» في حريـة العقيـدة، لكـن لا أفهـم كيف أسـاوي بين المسـلم والمسـيحي في كل شيء؟ إن المسـاواة بينهما ضد «العدالة»: ضد العدالة مـع المسـيحي، وضـد العدالـة مـع المسـلم! فقـل لي باللـه عليـك: هـل يسـتوي

الاثنــان في حكــم أكل لحــم الخنزيــر وشرب النبيــذ وفي حكــم تداولهــما؟ وهــل يســتوي الاثنــان في أحــكام الــزواج والطــلاق وســائر الأحــوال الشــخصية؟!

إن « العدالــة» تقتــضي التفرقــة بينهــما في الأحــكام الدينيــة لا المدنيــة، فكيــف نرفــع شــعار «المســاواة المطلقــة» في كل شيء؟.. فالعدالــة تســتوجب التمييــز؛ لأن هنــاك أمــورًا مشــتركة تقتــضي المســاواة، وهنــاك أمــورًا مســتقلة تقتــضي «عــدم المســاواة» تحقيقًــا للعدالــة مــع الطرفــين.

وانطلاقًــا مــن هــذا المبــدأ العــادل أعطــى «الإســلام الذهبــي» لغــير المســلمين الاســتقلال التشريعــي وحــق تنفيــذ قوانينهــم الخاصــة المتعلقــة بالأحكام الشــخصية وإدارة أمورهــم الدينيــة وفقًــا لتشريعاتهــم حتــى لــو كانــت متعارضــة تعارضًــا تامًّــا مــع الشريعــة الإســلامية.

وكان لــكل طائفــة وضعهــا القانــوني المتفــرد، وكانــت الطوائــف مجتمعــات مدنيــة مصغــرة لهــا اســتقلالها الــذاتي داخــل المجتمــع الكبــير الخاضــع للســلطة المدنيــة الإســلامية التــي كانــت لا تتدخــل في شــئون الطوائــف الخاصــة.

والْقاعــدة الْعامّــة - كــما يقــول فقهاء الزمــن الجميل - أنّ اليهود والمســيحيين يتســاوون مــع المســلمين في الْمعامــلات مثــل البيــع والــشراء وأحــكام الإيجــار وســائر التّصرّفــات الْماليّــة. ويجــوز لهــم بيــع الخمــر والخنزيــر عــلى عكــس المســلمين؛ لأنــه مــن أعــز الأمــوال عندهــم عــلى حــد تعبــير الفقهــاء، وقــد أمرنــا أن نتركهــم ومــا يدينــون بــه، يؤيــده قــول عمر رضي اللــه عنــه: «ولهــم بيعها». وأيــده أبــو حنيفــة وابــن مــودود الموصــلي والْجصّــاص مــنْ الْحنفيّــة؛ والْإمــام السّرخْــسيّ في الْمبْســوط، وصرّح به الْكاســانيّ في الْبدائــع. وكلام الْمالكيّة والْحنابلة أيضًــا يــدلّ عــلى صحّــة هــذه الْقاعــدة في المســاواة في المعامــلات الماليــة والمدنيــة

بشكل عام؛ لأنّ اليهود والمسيحيين في المجتمع الإسلامي مِنْ أهْل دار الْإسلام.

لكن هذه «المساواة» لا تتعارض مع «العدالة» في الشئون الدينية؛ فلهم أن يتبعوا أحكام دينهم في الزواج والطلاق والأحوال الشخصية عامة حتى وإن كانت مخالفة لأحكام الإسلام، وقد سجل التاريخ كثيرًا من الوقائع التي تثبت ممارسة هذا الحق - أي اتّباع التشريعات الخاصة بالملة - على أرض الواقع.

وذكر أبو عبيد القاسم في الأموال: «أن الخليفة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين استغرب إعطاء الحق للمجوس في الزواج من بناتهم وأمهاتهم، فأرسل إلى الحسن البصري يسأله: ما بال أقوام من الأئمة قبلنا، أقروا المجوس على نكاح الأمهات والبنات؟ فكتب إليه الحسن قائلًا: أما بعد، فإنما أنت متبع ولست بمبتدع».

يعني عليك أيها الخليفة العادل الالتزام بما درج عليه الأئمة والخلفاء السابقون من إعطائهم حق اتباع قوانينهم الخاصة في الأحوال الشخصية.

وطبعًا أنا لا أورد هذا الاستشهادات دعوة لإباحية ممقوتة تخالف القانون والتقاليد المصرية العريقة، لكن أردت فقط أن أبين أن صدورنا ضاقت وعقولنا تحجرت ادعاءً لورع كاذب. نعم ورع كاذب لأن إمام التابعين وسيدهم حسن البصري لم يَدَّعِه، وكان يملك بجوار القدرة على «العدالة» القدرة على «الشجاعة» لتوجيه حاكم «عادل» أيضًا لكنه خشي أن تكون هناك مخالفة للشرع؛ والجميل أنه لم ينفرد بالقرار بل لجأ إلى الشورى وسأل إمام التابعين وشيخهم؛ فأرشده إلى أن مسلمي الزمن الجميل منذ عصر النبي

وحتـى عـصره سـاروا عـلى درب العدالـة مـع غـير المسـلمين واتسـعت صدورهـم وعقولهـم للآخـر وأحـكام دينـه عـلى الرغـم مـن مخالفتهـا للفطـرة والتقاليـد الإنسـانية المتواتـرة عـبر التاريـخ.

هذه هي «العدالة» يا مسلمي زمننا؛ بعيدًا عن المزايدة والورع الكاذب.

لكـن يجـب أن نعيـد التأكيـد عـلى أن مـن «العدالـة» كذلـك أنـه خـارج دائـرة «العقائـد الدينيـة والأحـوال الشـخصية» ينبغـي المسـاواة أمـام القضـاء والقانـون دون تمييـز عـلى أسـاس الديـن أو اللـون أو الوضـع الاقتصـادي والسـياسي والاجتماعـي أو الجنـس رجـلًا أو امـرأةً، وعـلى الجميـع دون اسـتثناء الالتـزام بقوانـين الدولـة التـي تطبـق عـلى الجميـع بغـير تفرقـة بـين القـوي والضعيـف والمسـلم والمسـيحي. وإذا كانـت «العدالـة» تسـتلزم «عـدم المسـاواة» في الدائـرة الأولى؛ فـإن «العدالـة» تقتـضي «المسـاواة» في الدائـرة الأخـرى الأكـثر اتسـاعًا والتـي تشـمل كل مسـتويات المواطنـة.

وربمـا ينـدهـش البعـض مـن كلامـي، نتيجـة عـدم معرفـة تاريـخ الإسـلام في عصـوره الذهبيـة. فعنـد إعـادة قـراءة العـصر الأمـوي؛ مـاذا نجـد؟

كان لـكل كنيسـة حـق الحكـم الدينـي الـذاتي، ووقـع الأمويـون عقـودًا تثبـت سـلطة البطاركـة؛ الأمـر الـذي سـاهم في إعطـاء القـوة لـكل الطوائـف الكنسـية. ويلاحـظ في العـصر العبـاسي أن بطريـك النسـاطرة امتلـك السـلطة الروحيـة في رئاسـة الطوائـف المسـيحية (النسـاطرة، اليعاقبـة، الـروم، الملكيـين). أمـا الكنيسـة المصريـة فكانـت دومًـا تحـت سـيطرة بطريركهـا الخـاص، وكذلـك الكنيسـة الأرمنيـة. وتمتعـت الكنيسـة المارونيـة دومًـا باسـتقلالها التـام.

وبشكل عام أعطيت الطوائف حق الإدارة الكاملة لشئونها الدينية. يدل على هذا الوثائق التي كان يصدرها الخلفاء العباسيون في هذا الصدد، مثل ما جاء في البراءة التي أعطاها المكتفي الخليفة العباسي (1136 - 1160م) إلى عبد يشوع بطريرك النساطرة (1139 - 1147م).

وسجل التاريخ أنه كان لكل ملة رئيسها المسئول عن شئونها، وكان رؤساء الملل مسئولين أمام الخليفة. وجعل الخلفاء لغير المسلمين هيئات خاصة ترعى شئونهم؛ فأنشأ الأمويون في الأندلس هيئة لهذا الشأن تحت رئاسة ما كان يسمى «كاتب الذمم» الذي كان مكلفًا برعاية غير المسلمين. كما خصص العباسيون كذلك ديوانًا خاصًّا لهم يرعى شئونهم، ولَقب رئيس هذا الديوان «كاتب الجهباذ» (أي الناقد المتفحص العارف بتمييز الأمور).

أين المسلمون في زماننا من زمن الإسلام الجميل؟

8- المسلم مأمور بالدفاع عن المسيحي وكنائسه!

من مآسي زمننا أن بعض المسلمين يعتقدون أنهم أكثر إسلامًا من الإسلام نفسه؛ مثل أولئك الذين يتصرفون على أنهم ملكيون أكثر من الملك! وعندما يحاول أحد أن يصير مسلمًا أكثر من الإسلام تضطرب المعادلة؛ ويصبح لدينا إسلام لا علاقة له بالإسلام الرباني، يصبح لدينا إسلام بشري عاكس لفكر أصحابه بكل تكوينهم الفكري والسياسي، وعاكس لمستوى تعليمهم وثقافتهم.

فإذا كان الإسلام يدعو إلى الحرية، فهؤلاء يعتبرون أن الحرية الوحيدة المتاحة لك هي أن تتفق مع آرائهم. وإذا كان الإسلام يدعو إلى العدل ولو على

أنفســنا والأقربــين، فهــولاء يــرون أن أي أحــد مــن خارجهــم لا يســتحق إلا النبــذ والإقصاء. وإذا كان الإسلام يأمـر بالصـدق مـع الجميـع، سـواء اختلفـوا معنـا في الديـن أو السياســة، فهــؤلاء يمكــن أن يكذبــوا لتحقيــق مصالحهــم. وإذا كان الإســلام يأمــر بالوفـاء بالعهـود مـع غـير المسـلمين مثـل المسـلمين، فـإن هـؤلاء ينقضـون كل عهـد لتحقيـق أغراضهـم. وإذا كان الإسـلام يأمـر بـبر غـير المسـلمين والعـدل معهـم وفيهـم، فـإن هـؤلاء يعتبرونهـم أعـداءً تسـتباح حقوقهـم وتنكـر عضويتهـم في الوطـن.

لقـد نـسي هـؤلاء أن تكريـم اللـه ليـس للمسـلمين فقـط، بل لإنسـانية الإنسـان أيًّـا كان (وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِـي آدَمَ) [الإسراء: 70]، و(مَـن قَتَـلَ نَفْسًـا بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعًـا) [المائـدة: 32]؛ والنفـس هنـا نفـس أي إنسـان بـصرف النظـر عـن دينـه أو حزبـه السـياسي أو مذهبـه العقائـدي، بـل (وَمَـنْ أَحْيَاهَـا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّـاسَ جَمِيعًـا) [المائـدة: 32]، أحيـا أي نفـس كانـت، بـشرط ألا يكـون عليهـا قصـاص بحكـم القضـاء.

لكــن أصحابنــا يــرون هــدر دم النفــس المخالفــة في الديــن أو السياســة أو المذهــب؛ دفاعًــا عــن عصبيــة ممقوتــة، ومزايــدة عــلى العقيــدة.

وإذا كان الإسـلام يعتـبر المسـيحيين واليهـود المسـالمين شركاء في الوطـن؛ ولهـم حريـة الاعتقـاد وإقامـة شـعائرهم؛ فهـولاء يعتبرونهـم جنسًـا دون المسـتوى ومجرد أتبـاع عليهـم أن يحمـدوا ربنـا أنهـم مسـموح لهـم بالحيـاة!.

ولا أدري كيـف يمكـن أن يـأتي هـؤلاء بتلـك الأفـكار مـع أنهـا تتعـارض مـع مـا فهمـه الفقهـاء الكبـار وعملـوا بـه؟! بـل مـع الفقهـاء الـذي يمثلـون مرجعيـات لهـم ولنـا، مثـل شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة (المفـترى عليـه)، والـذي ظُلـم كثـيرًا بسـبب فهمهـم القـاصر لـه.

أتذكر أني قرأت في سيرته التي أعشقها علمًا ومسيرة حياة، أنه حينما تغلب التتار على الشام، وذهب الشيخ ليكلم القائد العسكري التتري "قطلوشاه" في إطلاق الأسرى، فسمح القائد للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين، ورفض أن يسمح له بإطلاق المسيحيين واليهود. فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال: لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى، فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة، فلما رأى إصراره على الدفاع عنهم وتشدده من أجل حريتهم، أطلقهم له.

أريد أن أذهب من هذه المقدمات إلى نتيجة واحدة وهي أن المسيحيين واليهود المصريين شركاء في الوطن، وليس لهم فقط حرية الاعتقاد، بل لهم أيضًا حرية العبادة وإقامة المعابد.

فلا يوجد في القرآن والسنة النبوية أي نص صحيح السند يقيد حرية غير المسلمين في إقامة معابدهم الخاصة. والرائع أن القرآن جعل من أسباب الحرب العادلة والمشروعة حماية دور العبادة لمختلف الطوائف الدينية: النصارى واليهود والصابئين والمسلمين، قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ {22/39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) [الحج: 39 - 40].

وهذا الفهم للآية الكريمة ليس من عندي؛ فقد ذكره الإمام الرازي في مفاتيح الغيب، كما ذكره الطبري والسيوطي وغيرهم.

وهذا الأساس النظري كانت له تجليات في الممارسة .. ومن الوقائع التي

تــدل عــلى هــذا أن النبــي ﷺ مكّــن وفــد نصــارى نجــران مــن صلاتهــم في مسجده إلى قبلتهـم. وتضمـن عهـده لهـم حفـظ أموالهـم وملّتهـم ودور عبادتهـم.

وقـد أعطـى المسـلمون هـذه الحقـوق نفسـها لـكل البـلاد التـي دخلـت تحت سيطرتهم. وعـلى سـبيل المثـال: معاهـدة القـدس بـين المسـلمين والمسـيحيين التـي وقـع عليهـا عمـر بـن الخطـاب والبطريـرك سـوفروينوس عـام 15 هجريًّـا، والتـي رواهـا الطـبري في تاريخـه.

وذكـر أبـو يوسـف أن خالـد بـن الوليـد أعطـى هـذه الحقـوق لأهـل "عانـات"، بـشرط مراعـاة صـلاة المسـلمين، وهـذا أمـر طبيعـي جـدًّا؛ حيـث إن الحريـة تقـف عندمـا تبـدأ حريـة الآخـر.

أمـا فتـاوى المنـع فلـم تكـن مؤثـرة كثـيرًا في الواقـع، فالسـلطة المدنيـة المصريـة (بفتـوى مـن فقيـه مـصر الليـث بـن سـعد) أباحـت للقبـط أن يبنـوا كنائـس في القاهـرة، العاصمـة الجديـدة. كـما سـمح للمسـيحيين أن يؤسسـوا في بعـض المـدن الأخـرى كنائـس وأديـرة جديـدة.

وتـدل الوقائـع التاريخيـة عـلى أنـه بنيـت في مـصر عـدة كنائـس في القـرن الأول الهجـري، مثـل كنيسـة «مـار مرقـص» بالإسـكندرية، وكنيسـة الفسـطاط في حـارة الـروم، كـما سـمح عبـد العزيـز بـن مـروان حـين أنشـأ مدينـة «حلـوان» ببنـاء كنيسـة فيهـا، وسـمح كذلـك لبعـض الأسـاقفة ببنـاء ديريـن. وذكـر المـؤرخ المقريـزي في كتابـه «الخطـط» أمثلـة عديـدة، ثـم ختـم حديثـه بقولـه: «وجميـع كنائـس القاهـرة المذكـورة محدثـة في الإسـلام بـلا خـلاف».

وعليــه فــإن العــصر الدينــي الجديــد مطالــب بمراعــاة حقــوق المســيحيين المصريــين في حريــة العبــادة وإقامــة الكنائــس، عــلى أســاس مبــدأ الحريــة

الذهبي: «إن حرية أي فريق تقف عندما تبدأ حرية الآخر»؛ وفق القوانين المنظمة للمصلحة الوطنية العامة؛ فالقيد هنا ليس إسلاميًّا كما اتضح من نصوص القرآن والسنة، بل قيد وطني محكوم بنظام الدولة الذي يقيس المصالح والمفاسد من أجل حفظ التوازن والسلم الاجتماعي.

9- الإسلام والسينما وحرية الإبداع (1 - 3)

في وسط حالة التراجع العام في الفكر الديني والرياضة والفن، نجد السينما في حالة يُرثى لها، من حيث ضآلة عدد الأفلام المنتجة، ومن حيث القيمة الفنية والإبداعية المتدنية للأفلام القليلة التي يتم إنتاجها، فهي إما «قص ولزق» من أفلام أجنبية مثل ذلك الفيلم الذي أثيرت حوله ضجة مؤخرًا والمأخوذ من فيلم «مالينا» الإيطالي، وإما معبرة عن «الثقافة دون الشعبية» والتي صار لها السيادة، وإما تلخيص وتكثيف لمشاهد « الملاهي الليلية» لكن في ثوب سينمائي.

والغريب أن أمثال هذه العقليات تتحدث عن حرية الإبداع، وهي ليس لها منه أي نصيب، والإبداع لم يطرق بابها يومًا، بل لم تحاول أن تغازله في لحظة ما؛ والأغرب أن أصحابها يتشدقون بالإبداع وهم عاجزون عن المنافسة في أي مهرجان دولي، مثلما تعجز الفرق الرياضية عن شرف التنافس على كأس العالم أو الأولمبياد. نحن لدينا فقط ظواهر صوتية تفوز بجدارة في «مَكلمات» البرامج الفنية والرياضية، وهي نفسها حالة الإخوة الأعداء في المشهد السياسي الذين يجيدون التشاجر حول مصير الشعوب ولا يجيدون إدارة مصنع أو وزارة!.

ويكفـي المنتجـين الدخـلاء الذيـن ليـس لهـم رسـالة إلا رسـالة المـال، مغازلـة الشـباك عـن طريـق مغازلـة الغرائـز، لا باعتبـار ذلـك تعبـيرًا فنيًّـا عـن حالـة إنسـانية، وإنمـا باعتبـاره وسـيلة رخيصـة للاسـتيلاء عـلى بضعـة قـروش مـن جيـوب شـباب عاطـل - بحكـم الظـروف القاهـرة - عـن العمـل وعاطـل عـن الـزواج وعاطـل عـن الإبـداع الفنـي أو السـياسي أو الريـاضي.

وانطلاقًـا مـن الأثـر الضخـم للفـن عمومًـا نشـأت إشـكالية العلاقـة بـين الفـن والأخـلاق، وهـي إشـكالية قديمـة قِـدَم الكتابـات الفلسـفية نفسـها، وقـد أدت إلى الكثـير مـن المشـاكل التـي ظلـت في محـل البحـث حتـى الآن.

ولـن أبـدأ بموقـف الإسـلام مـن الظاهـرة الفنيـة وعلاقتهـا بمنظومـة القيـم، بـل سـأبدأ باسـتعراض بعـض آراء الفلاسـفة الكبـار الذيـن تأسـس موقفهـم مـن الفـن عـلى موقفهـم مـن الأخـلاق. وعـلى سـبيل المثـال كان أفلاطـون أكـثر الفلاسـفة نقـدًا للشـعراء والفنانـين بوجـه عـام. فلقـد ذهـب إلى أن جميـع الشـعراء الكبـار مـن شـعراء الملاحـم والشـعراء الغنائيـين لا يكتبـون قصائدهـم الجميلـة بالفـن، بـل بالهيـام والهـوس؛ فعندمـا يكتـب الشـعراء الغنائيـون أنغامهـم الجميلـة فهـم عنـد أفلاطـون أشـبه مـا يكونـون بالمعربديـن الذيـن يفقـدون عقولهـم! والهُيـام الوحيـد الـذي أقـرَّه أفلاطـون كان هيـام العقـل في حالـة صفائـه مسـتقلًّا عن الشـعور. وعلى ذلـك - مـن وجهـة نظـره - فـإن أي هيـام آخـر مبنـي عـلى التضليـل والخـداع؛ ولذلـك لم تتفـق فكـرة الإلهـام أو الوحـي في الشـعر مـع فلسـفته المثاليـة، ولم تتفـق تعاليـم الشـعراء مـع منظومـة القيـم الأخلاقيـة التـي سـعى إليهـا في مذهبـه الفلسـفي.

وعـبرت نظريـة أفلاطـون الشـهيرة في «عـالم المثـل» عـن ذلـك الموقـف الـذي اتخـذه مـن الفـن والفنانـين. حيـث إن نظريتـه في «المثـل» تعتـبر الأشـياء الخارجيـة

الموجـودة في العـالم المحسـوس لا حقيقـة لهـا، وإنمـا هـي مجـرد تقليـد لعـالم المثـل الحقيقـي؛ ومـن ثـم فـإن الصـورة التـي يرسـمها المصـور أو الشـاعر مـا هـي إلا تقليـد لعـالم الأشـياء المزيـف، وليـس لعـالم المثـل الحقيقـي؛ أي إنهـا «تقليـد للتقليـد» (مثـل أفلامنـا التـي لا تقلـد الحيـاة المعاشـة بـل تقلـد الأفـلام الأجنبيـة التـي تعكـس حيـاة أخـرى غـير حياتنـا)؛ ومـن ثـم فـلا حاجـة لهـا، وذلـك لأن كل شيء لا يمثـل فكـرة لا يسـتحق الوجـود. والشـعر أو الفـن يمثـل «الـشيء» الـذي يمثـل «الفكـرة»؛ ولذلـك فهـو عمـل مزيـف لا ضرورة لـه في المدينـة الفاضلـة التـي كان أفلاطـون يتصورهـا ويسـعى لبنائهـا. وبنـاءً عـلى مـا سـبق فقـد اسـتهجن أفلاطـون الشـعر فلسـفيًّا؛ لأنـه يسـتند إلى الكـذب والوهـم، واسـتهجنه أخلاقيًّـا؛ لأنـه متعـارض مـع القيـم.

وهكـذا نجـد - وهـو أمـر ملفـت للنظـر - أن رؤيـة فيلسـوف في حجـم أفلاطـون أكـثر تشـددًا مـن رؤيـة المتشـددين في الديـن! وهكـذا نجـد أنفسـنا أيضًـا بـين نقيضـين كلاهـما مرفـوض: فـن رخيـص مبتـذل، وفلسـفة تأخـذ موقفًـا متطرفًـا في الإنـكار.

لكـن هنـاك وجهـة نظـر أخـرى طرحهـا الشـاعر والكاتـب الإنجليـزي جـون راسـكن (1819 - 1900م)، وهـو أحـد القائلـين بالمعايـير الخلقيـة في العـصر الفيكتـوري والعـصر الإدواردي، والـذي كان لأفـكاره تأثـير كبـير في فنـون وجماليـات هذيـن العصريـن وفي تطـور الاشـتراكية المسـيحية. فعـلى الرغـم مـن موقفـه المتمسـك بالمعايـير الخلقيـة، فقـد ذهـب إلى نتائـج مناقضـة لموقـف أفلاطـون؛ وإذا كان أفلاطـون قـد اسـتنتج أن الفنـون بطبيعتهـا تتعـارض مـع الأخـلاق؛ ولذلـك نفاهـا مـن دولتـه، فـإن راسـكن وجـد أنهـا بطبيعتهـا الأصليـة

تتفـق مـع الأخـلاق فباركهـا. وذم أفلاطـون الفنـون؛ لأنهـا لاأخلاقيـة، وامتدحهـا راسـكن؛ لأنهـا أخلاقيـة إلى حـد كبـير. وطردهـا الأول مـن مدينتـه الفاضلـة؛ لأنهـا متأصلـة في أوهـام الإحسـاس، ورحـب بهـا الثـاني؛ لأنهـا تنبـع مـن الـذكاء القـدسي العامـل مـن خـلال خيـال الإنسـان (سـكوت جيمـس، صناعـة الأدب).

وإذا كان أفلاطـون حـل إشـكالية العلاقـة بـين الفـن والأخـلاق برفـض الفـن؛ لأن الفـن لاأخلاقـي، فـإن جـون راسـكن رفـع مـن قيمـة الفـن غـير المتعـارض مـع الأخـلاق، ونظـر إلى الأخـلاق بوصفهـا معيـارًا مـن المعايـير الأساسـية التـي تُثمـن عـلى أساسـها الفنـون؛ فـكل مـا هـو فـن يعـد - حسـب تصـوره - مـن أصـل قـدسي، بـل ذهـب إلى مـا هـو أبعـد مـن ذلـك؛ حيـث يـرى أن تـذوق الجـمال ينشـأ مـن الشـعور بالاحـترام والعرفـان بالجميـل والـسرور النابـع مـن إدراك صنعـة الخالـق في الطبيعـة، ولا يعتمـد تـذوق الفـن عنـده عـلى أي مـن الحـواس الخمـس، بـل لا يوجـد أي دور للعقـل في إدراك الفـن؛ لأن الفـن بمـا أنـه إلهـام ومـن أصـل قـدسي فالطريـق إليـه هـو القلـب الـذي ينفـذ إلى القـدرة القدسـية العاملـة في وجـدان الفنـان.

وامتـدادًا لهـذا الاتجـاه كان طبيعيًّـا أن يذهـب تولسـتوي إلى أن الفـن يجـب ألا يتعـارض مـع الديـن. ومـن المنطلـق نفسـه يقـول عـلي عـزت بيجوفيتـش في كتابـه (الإسـلام بـين الـشرق والغـرب): «الفـن رسـالة مقدسـة».

ومـن ثَـمَّ - مـن وجهـة نظـري - نجـد أن رأي التيـارات التـي تطالـب الفـن عمومًـا والسـينما عـلى وجـه الخصـوص بعـدم تجـاوز «السـقف الأخلاقـي» للمجتمـع ليسـت بدعًـا ولا ابتداعًـا ولا تطرفًـا! فهـي متوافقـة مـع رأي مجموعـة مـن كبـار الأدبـاء والفنانـين والفلاسـفة الغربيـين، بـل أفضـل وأعـدل بمراحـل مـن الموقـف المتطـرف الـذي اتخـذه أفلاطـون الفيلسـوف اليونـاني الكبـير!.

10- الإسلام والسينما وحرية الإبداع (2 - 3)

على الرغم من نشأة السينما المصرية في وقت مواكب للسينما العالمية، فإن التطور الذي حدث على المستوى الدولي لم ينعكس على السينما المصرية إبداعًا وابتكارًا في الأدوات واللغة الفنية والرؤية، وإن كان قد انعكس عليها باعتباره نوعًا من التقليد المستمر، مع أنه كان المفترض أن تكون السينما المصرية قد تجاوزت مرحلة التقليد التي كانت ضرورية في البداية؛ فالتقليد شيء إيجابي في بداية أي عمل ناجح، لكن الاستمرار في التقليد - بعد مرور أكثر من مائة عام - يعد علامة سلبية تدل على العجز ووقف النمو.

فالحركة التاريخية للسينما المصرية لم تخضع للتراكم أو النمو التصاعدي، أي إنها لم تنمو مثل نمو الكائن الحي الذي يخضع لمنطق التطور، أو هي ليست مثل البناء الذي يتصاعد نحو الأعلى تدريجيًّا، بل ارتبطت بحركة المجتمع صعودًا وهبوطًا. والخطورة أن منطق تطور الفن غاب؛ وربما من أسباب ذلك أن أكثر صناع أو منتجي السينما في الزمن الأخير ليسوا غالبًا من أهل الفن!.

ولم تعد السينما المصرية في هذه الفترة المضطربة أداة للتسلية، بل أصبحت - مثل برامج التوك شو - تعبيرًا عن حالة «الإثارة العامة»، وأنا لا أقصد الإثارة الجنسية بالذات، بل أقصد حالة الإثارة الفكرية والنفسية والعصبية التي أصبحت دائرة مغلقة ودوامة لا تنتهي سقط فيها الشارع وسقطت فيها منابر الرأي.

ويجب أن يكون الفن محكومًا بوعي أرقى من وعي الشارع، لكن يبدو أن

هـذه النظريـة باتـت مهـددة عندنـا؛ إذ صـارت مقولـة «هـذا مـا يريـده الجمهور» هـي المحركـة لمنتجـي الأفـلام أو لأكثرهـم. والخطـورة أن السـينما في مـصر - عـدا القليـل منهـا - لم تعـد أداة لتوجيـه المجتمـع أو للارتقـاء بغرائزه، مثلـما كان يحدث في المـاضي في كثـير مـن الأفـلام القديمـة التـي لهـا الفضـل في تخفيـف حـدة الـصراع بـين الطبقـات والتقريـب بينهـا، والتـي كانـت تحمـل في معظـم الأحيـان فكـرة الـصراع بـين الخـير والـشر، وطبعًـا كانـت توظفهـا لصالـح الخـير في النهايـة تأكيـدًا لقيـم العدالـة الإلهيـة، وهنـا تلتقـي مـع الديـن في أسـمى معانيـه.

وربمـا كانـت هـذه هـي الأسـباب التـي كانـت تشـعرني بحالـة مـن «التطهـر» بعـد مشـاهدة أي فيلـم سـينمائي جيـد في اللغـة والمضمـون، وربمـا كانـت هـي التـي تعيـد إليّ «الأمـل» بعـد المـرور بأيـة حالـة إحبـاط، وربمـا كانـت هـي السـبب في الشـعور بنـوع مـن «التـوازن النفـسي» الـذي كان يعيـدني إلى مضـمار السـباق مـرة أخـرى بعـد تعـرض لظلـم أو إجحـاف، وربمـا هـي التـي شـكلت بداخـلي مـع الديـن والعقـل «رؤيـة العـالم» باعتبـاره قصـة إلهيـة تكافـح فيهـا قـوى الخـير قـوى الظـلام. وحتـى عندمـا كنـت أذهـب إلى السـينما وأنـا صغـير «للاسـتمتاع»، لم أكـن أدري أنهـا تشـكل بداخـلي مفهـوم الخـير والـشر، ومفهـوم الوطـن، ومكافحـة الـصراع الطبقـي، وإعـادة تكويـن الوعـي بالمـرأة بوصفهـا كائنًـا إنسـانيًّا، وليـس بوصفهـا أنثـى للاسـتهلاك، وتشـكيل عقيـدة البطـل الـذي يكافـح مـن أجـل أسرتـه أو وطنـه أو مـن أجـل تحقيـق العدالـة أو تحقيـق الـذات ضـد عـالم غـير منصـف، وهنـا وجـدت الديـن بوصفـه رحلـة كفـاح في العـالم ضـد «القبـح» بـكل أشـكاله .. الديـن باعتبـاره مفاهيـم تُرسِّـخ قيـم الحـق والخـير والجـمال وتعيـد إلى الإنسـان «نقـاءه العقـلي» و«تصالحـه» مـع ربـه ونفسـه وعالمـه. وهنـا تكمـن الوظيفـة الرئيسـة للفـن: إعـادة التصالـح، وإعـادة اكتشـاف الـذات والعـالم، ثـم تغييرهـما

إلى الأفضـل؛ فالسـينما يجـب ألا تعكـس الواقـع كالمـرآة، بـل يجـب أن تسـاهم في صنعـه، وهـي لا تغـير فقـط وعـي المشـاهد، بـل تغـير أيضًـا مَـنْ يصنعهـا فيتجـاوز ذاتـه ويتحـدى قدراتـه.

إن الصـورة السـينمائية - شـئنا أم أبينـا - هـي أداة توجيـه للسـلوك والأفـكار سـواء بشـكل مباشر أو غـير مبـاشر؛ إنهـا أخطـر مـن الكلـمات المقـروءة، نتيجـة التأثـير غـير المحـدود للصـورة المتحركة. يقـول جـورج بالانديه في كتابـه (في الطريق إلى القـرن الواحـد والعشريـن): «إن الصـورة مألوفـة وقريبـة جـدًّا الآن؛ بحيـث إنهـا لا تكـون معروفـة حقًّـا! إنهـا تفعـل فعلهـا، وفي معظـم الأحيـان يدعهـا كل إنسـان تعمـل ويعـاني مـن آثارهـا». وتـزداد هـذه الخطـورة لأن المشـاهد لا يـدرك تأثـير الصـورة المؤثـر والفاعـل في حياتـه مـن حيـث تعديـل الأفـكار، والسـلوكيات، والمعتقـدات. وهـذا مـا أدركـه تروتسـكي في كتابـه (الثـورة والحيـاة اليوميـة) قائـلًا: «هـذه الوسـيلة التـي بـين أيدينـا هـي أفضـل وسـيلة للدعايـة، سـواء كانـت هـذه الدعايـة تقنيـة، أو ثقافيـة، أو مناهضـة للإدمـان عـلى الكحـول، أو صحيـة، أو سياسـية. إنهـا تيـسر القيـام بدعايـة هـي في متنـاول فهـم الجميـع وجاذبـة لاهتـمام الجميـع، ودعايـة تسـتحوذ عـلى المخيلـة». ولهـذا ذهـب تروتسـكي إلى أن السـينما يمكـن أن تنافـس الديـن في السـيطرة عـلى جمـوع الشـعب، فـكل الأفـلام - كوميديـة أو مأسـوية أو خيـال علمـي أو مطـاردات وعنـف أو رعـب - تحمـل وجهـة نظـر مـا، تحمـل فكـرًا محـددًا، وليسـت خياليـة كـما قـد يدعـي البعـض.

إن السـينما دائمًـا تعكـس وجهـة نظـر مـا، وتحمـل فكـرًا راقيًـا أو فكـرًا إباحيًّـا أو فكـرًا سياسـيًّا أو اجتماعيًّـا صائبًـا أو خاطئًـا. فقـل لي مـاذا تنتـج أو مـاذا

تشاهد، أقل لك من أنت! أما أصحاب نظرية «الفن للفن» عندنا في مصر فهم واهمون ويعيشون خارج التاريخ، أو هم مغالطون كبار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بحثًا عن تبرير لعمل غير مسئول أو زعمًا الدفاع عن حرية إبداع متوهم! إنهم فقط يتحدثون عن الحرية المطلقة دون أن يمارسوا تجربة الإبداع، ودون أن تكون لديهم القدرة عليه، بل دون أن يعرفوا أن هذه الحرية تفرض عليهم واجبات، فلا توجد حرية دون مسئولية، ولا يوجد إبداع دون هدف إنساني.

11- الإسلام والسينما وحرية الإبداع (3-3)

نحن إزاء موقفين متطرفين من السينما: موقف فوضوي متسيب، وموقف متشدد محرم. وكلاهما يعبر عن وجهة نظر ضيقة الأفق، وعقل مغلق؛ فالعقل المغلق ليس سمة للمتشددين في الدين فقط، بل سمة أيضًا للفوضويين الذين يريدون أن يفرضوا رؤيتهم للحياة على الجميع دون مسئولية ودون شعور بالتزام تجاه المجتمع.

وبقدر رفض التطرف في التشدد والتحريم، يكون رفض الإفراط في الإباحية والتحلل من مصفوفة القيم الإنسانية. ولذا لا أعير أي اهتمام للذين يرفعون سقف الحرية إلى درجة الفوضى بحجة إبداع مزعوم ينشرون من خلاله مفاهيم متدنية، وسلوكيات الغواني، وقيم البلطجية، التي تنحط بالمجتمع إلى درك حيواني رخيص يطيح بقيم الرجولة والشهامة ويتعامل مع المرأة باعتبارها سلعة جنسية رخيصة لا تغدو أن تكون أداة لإشباع الرغبات! مثلما لا أعير أي اهتمام لأولئك الذين يحرمون «السينما النظيفة»؛

لأنها مجرد أداة للبهجة البريئة أو لنقل إيقاع الحياة أو لتوصيل رسالة أو للتعبير عن تجربة إنسانية. ولا يمكن القول بتحريمها ما دامت محكومة بالقيم الإنسانية وتسير في ظلال مبدأ «الفن للمجتمع»، بل هي عمل إبداعي يضاف إلى مصفوفة الحضارة، وشكل من أشكال التعبير الفني الجمالي عن العالم الإنساني من منظور خاص.

إن الأصل في الأشياء الإباحة إلا إذا أتى ما يدل على تحريم ذلك الشيء .. هذه قاعدة حاكمة في الحلال والحرام. والعجيب أن المتشددين الذين يزايدون على الدين تجد تفكيرهم محكومًا بقاعدة أخرى تناقض القواعد الأصولية، هي «الأصل في الأشياء التحريم»!

بينما يسع التصور الإسلامي في أصله النقي كل ألوان الإبداع الإنساني ما دامت لا تضر بالمجتمع. لكن عندما ينحرف الفن ليعبر عن رسالة ضارة تؤثر في سلوك الناس وتدفعهم لأي لون من ألوان الشر، هنا يجب التوقف ويجب التوقيف. وليس معنى هذا أن السينما محظور عليها التعبير عن الشر؛ لأن التعبير عن الشر إذا كان من أجل توصيل رسالة إنسانية تتخاصم مع الشر؛ فإنه يكون بلا شك عملًا نبيلًا. أما إذا كان تصوير الشر يهدف إلى نقل حالة من العدوى للمجتمع فإنه يصبح خطأً فادحًا في حق المجتمع.

إن السينما مجرد وسيلة حاملة، والوسيلة في حد ذاتها ليست حرامًا أو حلالًا؛ مثل الكوب يمكن أن يكون حاملًا لخمر أو لماء، ومثل الكهرباء يمكن تستخدمها وسيلةً للصعق أو القتل بغير حق، ويمكن أن تكون وسيلة للإضاءة أو الطاقة النافعة. فالسينما قد تحمل مشاهد رديئة تجعلك تتأثر بأسوأ ما فيها، أو تحمل مشاهد إنسانية رائعة تدخلك في عمق الحياة.

إن الصـورة تقـوم بتكويـن الوعـي، والقصـص هـي أكـثر الألـوان تأثـيراً في مخيلـة الإنسـان، ولذلـك هـي أداة قرآنيـة في إعـادة تشـكيل الوعـي الإنسـاني وفـق مفاهيـم الحـق والخـير والجـمال؛ وليـس معنـى هـذا أن قصـص القـرآن تتحـدث عـن عـالم مثـالي نظيـف ووحيـد دون توصيـف للـشر، بـل إنهـا تدخـل عـالم الـشر بـكل ظلماتـه معـبرة عـما يحـدث بداخلـه مـن قتـل وسرقـة وفواحـش وظلـم وخيانـة، لكـن بلغـة فنيـة تدفـع المتلقـي للانفصـال عنـه لا لتقمصـه أو إعـادة إنتاجـه مـرة أخـرى، وهـذا فـرق جوهـري مـع تلـك القصـص التـي تتعامـل مـع الأحـداث والشـخوص المنحرفـة بلغـة فنيـة تؤثـر في المتلقـي تأثـيراً سـلبيًّا فيخـرج مـن السـينما متعاطفًـا مـع بطـل «هايـف» أو «منحـرف»، أو ليقـوم بتحـرش جماعـي، أو بحالـة نفسـية كارهـة للمجتمـع.

ولـذا فالسـينما شـأنها شـأن كل شيء «حلالهـا حـلال وحرامهـا حـرام». والقـرآن صريـح في الـرد عـلى الذيـن يميلـون لتحريـم أي شيء دون دليـل قاطـع: (قُـلْ مَـنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللـهِ الَّتِـيَ أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالْطَّيِّبَـاتِ مِـنَ الـرِّزْقِ) [الأعـراف: 32]. وهـو أيضًـا صريـح في الـرد عـلى الذيـن يصـدرون عـدوى الأفعـال المشـينة إلى المجتمـع، (قُـلْ إِنَّمَـا حَـرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِـشَ مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَـنَ وَالإِثْـمَ وَالْبَغْـيَ بِغَـيْرِ الْحَـقِّ وَأَن تُشْرِكُـواْ بِاللـهِ مَـا لَـمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطَانًا وَأَن تَقُولُـواْ عَـلَى اللـهِ مَـا لاَ تَعْلَمُـونَ {7/33}) [الأعـراف: 33].

إن السـينما تتمتـع بحـدود واسـعة مـن الحريـة في الرؤيـة الإسـلامية الرحبـة، ولا يشـترط فيهـا أن تعـبر عـن موضوعـات إسـلامية أو دينيـة، بـل يشـترط فقـط أن تكـون خاليـة مـن الرسـائل الضـارة، ولا تـروج لأفـكار هدامـة تؤثـر في سـلامة المجتمـع.

وليـس في هـذه الرؤيـة أي نـوع مـن التعنـت، بالقيـاس إلى الغـرب؛ فهـو لا

يزال يحرم ويدين أي فيلم أو عمل فني أو فكري يحمل وجهة نظر معادية للسامية! إذن أليس الغرب نفسه يضع قيودًا على الأعمال الفنية والفكرية وإن كانت من نوع مختلف؟.

إن الرؤية الإسلامية التي تقيد الفن بمعايير الحق والخير والجمال، لا تعني عدم السماح بالاختلاف السياسي، ولا تعني عدم السماح بالتنوع والتعددية الفكرية والاجتماعية، ولا تعني عدم نقد المجتمع وتطويره، بل تعني فقط عدم تجاوز السقف الأخلاقي العام وعدم تصدير نماذج الشر إلى المجتمع. وفي هذا اتفاق مع تلك النظرية في فلسفة الفن التي تقول إن «الفن ليس للفن بل للمجتمع». أما الحديث عن حيادية الفن، وأنه خارج أُطر ما هو أخلاقي أو غير أخلاقي، فهو وهم كبير؛ لأن قيم الجمال غير منعزلة عن قيم الحق والخير، أو هكذا ينبغي أن تكون.

وفي هذا الإطار تبدو الرؤية الإسلامية الوسطية التي تجعل الفن للمجتمع، ومن ثم تربطه بالخير، ليست بمعزل عن تيار قوي في فلسفة الفن نشأ وترعرع في إطار الفكر الغربي. ومن هنا فإن الحديث عن فوضى الإبداع بلا حدود، إنما هو نوع من الانفلات يروج له أنصار الإثارة من أجل زيادة المكسب المادي وارتفاع حصيلة بيع التذاكر، فعندما تضعف اللغة الفنية، تكون الإثارة هي البديل لجذب جمهور مكبوت.

الفصل السابع

الحاكم الناجح
بين قوانين القرآن وسنن التاريخ

1. ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (1)
2. ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (2)
3. ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (3)
4. ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (4)
5. ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (5)
6. ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (6)

الفصل السابع

الحاكم الناجح

بين قوانين القرآن وسنن التاريخ

1- ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (1)

إن قصص القرآن حقيقية حدثت في زمان ومكان، لكنها قصص لكل العصور، إنها لا تحكي تاريخًا فقط، بل تقدم فلسفة للتاريخ، وتضع أمام القارئ قوانين التاريخ التي لا تخطئ بالتجربة، لتكون منهاجًا لمن يريد أن ينجح سواء كان فردًا أو دولة أو أمة.

لكن المشكلة أننا فقدنا قدرتنا على «القراءة المنتجة»، وفقدنا عقولنا وإرادتنا، فلم نستطع قراءة التاريخ، ولم نستطع قراءة القرآن قراءة فعالة تستفيد من كنوزه التاريخية والإنسانية. نحن نقرأه فقط للحصول على الحسنات من تكرار الألفاظ، لا من أجل الفهم ولا من أجل التقدم ولا من أجل تحويل دفة التاريخ إلى أمتنا!

وفي الأوقات التي يتوافر فيها لبعضنا «الإرادة» لا يتوافر «العقل»؛ ولذا تتحول «الإرادة بلا عقل» إلى إرهاب!

أما «تعمير الأرض»، وهو مفهوم رئيس في القرآن، فهو غائب عن أولويات أكثر المسلمين منذ قرون. وقل مثل ذلك في «الأخذ بالأسباب»: أسباب العلم، وأسباب القدرة، وأسباب التنمية، وأسباب التقدم. وهي كلها مفاهيم غائبة ومغيبة عن أذهان أكثر المسلمين في كل عصور التراجع. واللافت للنظر أن كل تلك المفاهيم الإيجابية الغائبة عن المسلمين أو أكثرهم، كانت هي نفسها المفاهيم الحاكمة للمنهج الحركي عند محمد ﷺ والصحابة والسلف في عصور الازدهار؛ لأنهم كانوا يقرأون القرآن قراءة منتجة للتقدم والحضارة والتنمية، لا للإرهاب والتكفير والتفجير.

إن القرآن كتاب فريد في قراءة التاريخ ومعرفة قوانينه؛ لأنه قبس من الحقيقة. وهو يقدم دروسًا للتقدم. وأريد أن أقف عند قصة من قصصه تقدم لنا دروسًا لا تخطئ في فلسفة التاريخ وقوانينه الأزلية، وهي قصة ذي القرنين، وقد لُقب بهذا اللقب لأنه بلغ قرني الشمس أي مطلعها ومغربها، شرقها وغربها، بلغها حاكمًا عادلًا عالمًا آخذًا بأسباب الدنيا وأسباب العلم. وهذا التفسير لاسمه جاء في رواية عن النبي ﷺ: «سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا - يعني شرقها وغربها». وذكر بعض المفسرين أنه لُقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشًا كأنه يناطح أقرانه.

ولعل أول قانون يقدمه القرآن من قصة ذي القرنين هو: (مهما كانت قدرة القيادة على التخطيط عالية لن تنجح من دون الناس؛ فحجر واحد لا يصنع شرارًا)! فلا بد أن تتحرك الجماهير مع قيادتها يدًا بيد للعمل والإنتاج وتنفيذ المشروعات القومية بصدق وإخلاص ومثابرة.

فهذا الرجل المعجزة «ذو القرنين» لم يستطع أن يصنع شيئًا من دون

عـون النـاس، ألم يقـل ذو القرنين لهم: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) [الكهـف: 95]، وألم يقل لهم: (آتُونِي زُبَـرَ الْحَدِيـدِ حَتَّـى إِذَا سَـاوَى بَـيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَـالَ انفُخُـوا حَتَّى إِذَا جَعَلَـهُ نَارًا قَـالَ آتُـونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْـرًا {18/96}) [الكهف: 96]. وهذا معنـاه تأكيد دور الناس (...أَعِينُونِي... آتُونِي... انفُخُوا... آتُونِي...).

هـذا مـا نسـميه بلغـة الفلسـفة "الديالكتيـك"، أي العلاقـة التفاعليـة بـين طرفـين والتـي تنتـج إمـا شـيئًا إيجابيًّـا أو سـلبيًّا. إن طرفًـا واحـدًا لا يكفـي، وهـذه ليسـت سـنة تاريخيـة فقـط، بـل سـنة كونيـة؛ فالديالكتيـك قانـون إنسـاني وتاريخـي وكـوني؛ ولا أريـد أن أضرب مثـلًا بالذكـورة والأنوثـة التـي أنتجـت البشريـة، ولا بالموجـب والسـالب اللذيـن يصنعـان الكهربـاء، ولا بالهيدروجـين والأكسـجين اللذيـن يصنعـان المـاء.

بـل أريـد أن أتوقـف عنـد فلسـفة التاريـخ؛ فالبطـل وحـده لا يصنـع أمـة، ولا يصنـع عـصرًا ولا تاريخًـا، بـل لا بـد مـن تجـاوب النـاس معـه، أي إن الدخـول إلى عـصر جديـد يسـتلزم حركـة أمـة بأكملهـا، فلسـت مـن الذيـن يؤمنـون بعبـادة الفـرد ولا بقدرتـه عـلى صناعـة التاريـخ وحـده. نعـم البطـل ضروري لتحريـك الأمـة والمضي معهـا إلى الأمـام، أقـول: «المضي معهـا إلى الأمـام»، ولا أقـول «المضي بهـا إلى الأمـام»!

إن أعظـم العظـماء محمـد ﷺ لم يكـن وحـده، بـل كان معـه أصحابـه الكـرام، ألم يقـل «اللهـم أعـز الإسـلام بأحـب هذيـن الرجلـين إليـك؛ بـأبي جهـل أو بعمـر بـن الخطـاب»، وكان أحبهـما إليـه عمـر. (قـال أبـو عيـسى الترمـذي: هـذا حديـث حسـن صحيـح غريـب مـن حديـث ابـن عمـر).

والمسـيح كان معـه الحواريـون، وهكـذا كان الحـال مـع كل الأنبيـاء

المنتصرين، أما الأنبياء الذين تخلى عنهم الناس لم يكن لهم تأثير مثل الأنبياء الذين تحركت معهم الجماهير نحو هدف واحد.

وقل مثل ذلك في الفلاسفة؛ فتأثير سقراط اكتمل بتلاميذه، ولذلك عندما أُعدم سقراط انتصرت فلسفته، وعندما «رُفع» المسيح انتصر دينه، وعندما مات محمد ﷺ، انتشر الإسلام في ربوع العالم خارج شبه الجزيرة العربية.

ماذا أُريد أن أقول من كل هذا؟

أريد أن أقول إنَّ مصر لن تخرج إلى "النهار" إلا إذا تحرك الناس مع القيادة نحو هدف واحد، فمصر لن تتقدم إلى الأمام بالمعونات ولا بالبطل التاريخي وحده، بل بالتفاعل الخلاق بين القيادة والشعب، من خلال خطة إستراتيجية قابلة للتنفيذ، وخطط زمنية تتناسب مع قدراتنا، وعزم لا يلين على تحويل الأمل إلى واقع حي.

2- ذو القرنين.. التمكين والتنمية والإرهاب (2)

إذا أرادت بلادنا أن تنهض، فعليها إصلاح «طرق التفكير»، ونشر الثقافة العلمية، ومحاربة الجهل والخرافة والأسطورة، من خلال برامج فعالة وعملية لنشر الوعي العلمي في الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وقبل كل ذلك «الوعي العلمي بالدين»؛ مما يعني إصلاح التفكير الديني في المؤسسات الدينية والمناهج التعليمية والإعلام. ولا قيمة لذلك دون أن يتغير التفكير الشعبي في الدين عند مختلف الطبقات: الطبقات الدنيا، والطبقات العليا.

إن الـذي صنـع شـخصية ذي القرنـين هـو التفكـير الدينـي الصحيـح، والتفكـير العلمـي المنضبـط، وفي تصـوري لا أجـد فرقًـا بـين النوعـين مـن التفكـير: التفكـير الدينـــي الصحيــح، والتفكـــير العلمـــي المنضبـــط؛ فكلاهـــما يقـــوم عـــلى منطـــق السـببية: (وَآتَيْنَـاهُ مِـن كُلِّ شَيْءٍ سَـبَبًا {18/84} فَأَتْبَـعَ سَـبَبًا {18/85}) [الكهـف: 84 - 85]، وكلاهـما يقـوم عـلى منطـق المصلحـة العامـة: (وَأَمَّـا مَـا يَنفَـعُ النَّـاسَ فَيَمْكُـثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِـكَ يَـضْرِبُ اللـــهُ الأَمْثَـالَ {13/17}) [الرعـد: 17]، وكلاهـما يحـدد طريـق النـصر والتمكـين والتنميـة ومواجهـة الإرهـاب في الأخـذ بأسـباب العلـم والتخطيـط الإسـتراتيجي والقـدرة والتكنولوجيـا.

والأخـذ بتلـك الأسـباب، ليـس معنـاه اسـتهلاك العلـم الـذي يبدعـه الآخـرون، بـل إنتـاج العلـم وتطويـره والبنـاء عليـه، ولا يعنـي اسـتيراد الخطـط المعلبـة مـن مكاتـب أوروبـا، بـل يعنـي التخطيـط الملائـم لحالتنـا وواقعنـا، ولا يعنـي الاسـتقواء بقـوة الغـير، بـل يعنـي القـوة الذاتيـة، ولا يعنـي أيضًـا مجـرد شراء المنتجـات التكنولوجيـة والاسـتمتاع بهـا، بـل يعنـي تصنيـع التكنولوجيـة صناعـة وطنيـة.

وهنـا يكمـن القانـون الثـاني في قصـة ذي القرنـين، وهـو درس الـدروس، ويتمثل في الأخـذ بأسـباب التمكـين والتنميـة ومواجهـة الإرهـاب؛ والقانـون القـرآني هنـا هـو: (وَآتَيْنَـاهُ مِـن كُلِّ شَيْءٍ سَـبَبًا {18/84} فَأَتْبَـعَ سَـبَبًا {18/85}) [الكهـف: 84 - 85].

ومعنـى (وَآتَيْنَـاهُ مِـن كُلِّ شَيْءٍ سَـبَبًا)، قـال المفـسرون: السـبب في أصـل اللغـة عبـارة عـن «الحبـل» ثـم اسـتعير لـكل مـا يتوصـل بـه إلى المقصـود، وهـو يتنـاول: العلـم والقـدرة والآلـة؛ فقولـه: (وَآتَيْنَـاهُ مِـن كُلِّ شَيْءٍ سَـبَبًا)، معنـاه أعطينـاه مـن كل شيء مـن الأمـور التـي يُتوصـل بهـا إلى تحصيـل ذلـك الـشيء. ومعنـى (فَأَتْبَـعَ

سَـبَبًا) أنـه تعـالى أعطـاه مـن كل شيء سـببه فـإذا أراد شـيئًا أتبـع سـببًا يوصلـه إليـه ويقربـه منـه.

لاحـظ هنـا في تفسـير الفخـر الـرازي السـابق والـذي أورده في تفسـيره (مفاتيـح الغيـب)، أنـه يحـدد (السـبب) بثلاثـة أمـور:

1- العلم.

2- القدرة.

3- الآلة (أو التكنولوجية بلغة عصرنا).

وهـذه الأسـباب كانـت أسـباب التمكـين والتنميـة في المـاضي السـحيق، ولا تـزال حتـى اليـوم هـي نفسـها أسـباب التمكـين والتنميـة. ويمكـن أن نضيـف لهـا عنـصرًا مهـمًّا وهو«التخطيط الإسـتراتيجي».

لكـنَّ نفـرًا مـن جهـلاء هـذه الأمـة لا يزالـون يتحركـون في عـوالم الجهـل والخرافـة والأسـطورة، إمـا مسـتعينين بعـوالم الجهـل والسـحر والجـن والدجالـين والمشـعوذين، أو يظنـون أنهـم يمكنهـم أن يغـيروا العـالم بكلـمات جوفـاء أو بمعارك زائفـة عـلى منابـر الإعـلام أو منابـر الوعـظ بالأسـاطير والإسرائيليـات. ويكفيهـم انشـغالهم بالتكفـير والتفجـير؛ فهـم المؤمنـون وهـم أهـل الجنـة وهـم الفرقـة الناجيـة، وهـم الأوصيـاء عـلى الديـن وعـلى النـاس، وهـم القائمـون عـلى تنفيـذ الإرادة الإلهيـة عـلى الأرض!

بأمارة ماذا؟

لا أدري .. فـلا هـم نهضـوا بالأمـة، ولا هـم أهـل ابتـكار أو إبـداع، ولا أحـد منهـم اخـترع أدنى اخـتراع لفائـدة البشريـة، بـل لا أحـد منهـم اسـتطاع أن يديـر

منشأة صغيرة وفق المعايير الدولية. فهم أهل فشل في الماضي وهم حاملو فكر الخوارج القدماء، ينشرون الدمار والتخريب، ولم يسألوا أنفسهم يومًا: إذا كانت النتائج دومًا خاطئة أليس هذا دليلًا على أن المقدمات والوسائل خاطئة، وبالتالي يجب أن نغير المقدمات ونغير الوسائل؟!

إن النتائج الخاطئة تدل على خطأ الفكر الذي يحركها، والفكر السليم دومًا يخرج نتائج جيدة. هذه قاعدة بديهية، وهي متسقة مع العقل السليم والقرآن الكريم. لكنها غائبة عن عقول «خَرِبة» التفكير والمنطق؛ لأنها لا تستحضر في طريقة تفكيرها معيار «النتيجة النهائية» The end result؛ فالعبرة في صواب الفكرة يكمن فيما تؤدي إليه: الثمرات، النتائج، الآثار، الوقائع، الحقائق.

وتثبت صحة سلامة تفكيرنا عندما نجده يعمل works في الواقع ويُؤتي بنتائج عملية مفيدة، (وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ {13/17}) [الرعد: 17].

وإذا كان المرء يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة، سواء لأنه متعصب أو إرهابي أو جاهل، ودومًا تجد فكره وعمله فاشلين في الواقع الحي، ثم يتمسك بهذا الفكر بعد كل هذا الفشل، ولا يتراجع عنه، فاعلم أنه مريض التفكير ومعزول عن الواقع، وهؤلاء هم الذين سماهم القرآن (الضالين) .. وعليك أن تمد الألف ست حركات! لأنهم لم يدركوا أبدًا قانون (وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا {18/84} فَأَتْبَعَ سَبَبًا {18/85}) [الكهف: 84 - 85].

وهذا القانون هو جوهر «التفكير العلمي» الذي يربط ربطًا لزوميًا قويًا بين المقدمات والنتائج .. إنه منطق «السببية»، وهو ضد منطق الخرافة

والأسطورة، وهو منطق العلم ضد منطق الجهل، ومنطق التخطيط ضد منطق التخبط، ومنطق القوة ضد منطق العجز والهزائم المتكررة، ومنطق تكنولوجيا العصر ضد أدوات القرن التاسع عشر.

3- ذو القرنين .. التمكين والتنمية والإرهاب (3)

... القانون الثالث في قصة ذي القرنين هو: «أفضل وسيلة للتمكين السياسي هي تحقيق العدالة».

وهذه سنة تاريخية لم يدركها كثيرون من الذين وصلوا للحكم؛ إذ ظنوا أن التمكين يكون بنشر أهل الثقة أو أهل القطيع في كل أرجاء الدولة ومؤسساتها، فخابت ظنونهم وسقطوا في كل مراحل التاريخ: البعيدة والقريبة. بينما الحاكم الذكي هو الذي يدرك أن الطريق الأفضل للتمكين السياسي هو تحقيق العدالة.

وهذا قانون أكدته تجربة ذي القرنين؛ ولذا استحقت أن يسجلها القرآن العظيم درسًا لكل الحكام في كل زمان ومكان.

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا {18/86} قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا {18/87} وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا {18/88}) [الكهف: 86 - 88].

فالعقاب للظالم والمخطئ، والحسنى والتكريم لمن حسن فكره واستقام عمله. لا ظلم للمواطن الصالح، ولا تهاون مع الظالمين والمفسدين والإرهابيين.

إنـه قانـون لا يخطـئ .. إذا حـدث تمكـين ولم تُنفـذ العدالـة، فسـوف يتحـول التمكـين إلى ركام؛ فالظلـم أيًّـا كان نوعـه ومسـتواه هـو أول أسـباب الثـورات، والعـدل أسـاس الملـك المسـتديم.

وهنـا نرجـع لفيلسـوف الدولـة العربيـة ابـن خلـدون؛ حيـث يذكـر في مقدمتـه الشـهيرة أن أحسـن مـا كُتـب في ذلـك وتداولـه المؤرخـون كتـاب طاهـر ابـن الحسـين لابنـه عبداللـه بـن طاهـر عندمـا ولاه المأمـون الرقـة ومـصر ومـا بينهـما. فكتـب إليـه أبـوه طاهـر كتابـه المشـهور الـذي عهـد إليـه فيـه، ووصـاه بجميـع مـا يحتـاج إليـه في دولتـه وسـلطانه مـن الآداب الدينيـة والخلقيـة، والسياسـة الشرعيـة والملوكيـة، وحثـه عـلى مـكارم الأخـلاق ومحاسـن الشـيم، بمـا لا يسـتغني عنـه ملـك، ولا سُـوقَةٌ (أي عامـة النـاس أو أوسـاطُ النـاس وتطلـق عـلى الواحـد وغـيره). ونـص الكتـاب طويـل، وأكتفـي في هـذا المقـام بمـا قالـه عـن العـدل:

«... واعلـم أن القضـاء مـن اللـه تعـالى بالمـكان الـذي ليـس فوقـه شيء مـن الأمـور، لأنـه ميـزان اللـه الـذي تعـدل عليـه أحـوال النـاس في الأرض. وبإقامـة العـدل في القضـاء والعمـل تصلـح أحـوال الرعيـة وتؤمـن السـبل، وينتصـف المظلـوم، وتأخـذ النـاس حقوقهـم وتحسـن المعيشـة، ويـؤدَّى حـق الطاعـة، ويرزق اللـه العافيـة والسـلامة، ويقيـم الديـن، ويجـري السـنن والشرائـع في مجاريهـا».

نعـم بالعـدل يصلـح حـال الدولـة، وتنصلـح أحـوال النـاس وتتحسـن معيشـتهم، وتصبـح الطـرق آمنـة، ويحصـل النـاس عـلى حقوقهـم، وهنـا يسـتديم الملـك وتسـتقر الدولـة ويأمـن النـاس ويأمـن الحاكـم.

ذات يـوم خطـب الإسـكندر (بعـض المفسريـن يـرى أنـه ذو القرنـين) في جنـده - كـما يذكـر ابـن أبي الحديـد في «شرح نهـج البلاغـة» لعـلي بـن أبي طالـب

رضـي اللــه عنـه: «يـا عبـاد اللـه إنمـا إلهكـم اللـه الـذي في السـماء الـذي نصرنـا بعـد حـين، الـذي يسـقيكم الغيـث عنـد الحاجـة، وإليـه مفزعكـم عنـد الكـرب، واللـه لا يبلغنـي أن اللـه أحـب شـيئًا إلا أحببتـه وعملـت بـه إلى يـوم أجـلي، ولا يبلغنـي أنـه أبغـض شـيئا إلا أبغضتـه وهجرتـه إلى يـوم أجـلي. وقـد أُنبئـت أن اللـه يحـب العـدل في عبـاده ويبغـض الجـور؛ فويـل للظـالم مـن سـوطي وسـيفي، ومـن ظهـر منـه العـدل مـن عُـمالي فليتكـئ في مجلـسي كيـف شـاء، وليتمـنَّ عـليَّ مـا شـاء، فلـن تخطئـه أمنيتـه، واللـه المجـازي كلًّا بعملـه».

نعم أيها الإسكندر .. إن الله يحب العدل في عباده ويبغض الجور.

ما أجمل قولك «فويل للظالم من سوطي وسيفي»!

ومـا أروع قـرارك «ومَـنْ ظهـر منـه العـدل مـن عـمالي، فليتكـئ في مجلـسي كيـف شـاء، وليتمـنَّ عـليَّ مـا شـاء، فلـن تخطئـه أمنيتـه»!

هـل هنـاك تشـجيع عـلى العـدل بمثـل هـذه الروعـة «فليتكـئ في مجلـسي كيـف شـاء»؟.. يجلـس ويتمـدد ويتكـئ بأيـة طريقـة يحبهـا؛ فقـد عـدل؛ وبذلـك حقـق أهـم مقصـد للحكـم، وأهـم غـرض للدولـة، بـل وأهـم وظيفـة لهـا. وهنـا يحـق أن يفـرح الحاكـم الأعـلى للدولـة؛ فقـد ضمـن لحكمـه الاسـتقرار والتمكـين.

وقضيـة العدالـة مـن المطالـب العالميـة للشـعوب، وهـي قاسـم مشـترك بـين شـعوب المـاضي وشـعوب الحـاضر. وهـذا مُـدرَك جيـدًا عنـد ذي القرنـين.

إننـا نديـن بالفضـل لمايـكل والـزر أسـتاذ العلـوم الاجتماعيـة في جامعـة برنسـتون الأمريكيـة، الـذي نـشر في صـدر الثمانينيـات كتابًـا مهـمًّا بعنـوان «ميادیـن العدالـة Spheres Of Justice»، يتنـاول فيـه الدفـاع عـن العدالـة

والتعددية والمساواة، حيث اتجه إلى بحث هذه الظاهرة في ثنايا العلاقة مع المشترك الأخلاقي العام بين شعوب البشرية.

ففي عام 1989م، عام الثورية في أوروبا، خرج الشعب إلى شوارع «براغ» بتشيكوسلوفاكيا حاملًا لافتات وقد كتب على بعضها كلمة «العدالة»، وكُتِبَ عليه بعضها الآخر كلمة «الصدق»، وعبر التليفزيون رأى المشاهدون حول العالم ذلك كله، مع تجاوز الموانع القومية والثقافية والدينية؛ حيث أدركوا تمامًا وبتلقائية ماهية القيم والمعايير العالمية للعدالة والصدق، أي معايير الحد الأدنى المشتركة بين الجنس البشري، التي يطالب بها المتظاهرون هناك «محليًّا» الديكتاتوريةَ الشيوعيةَ المسيطرة آنذاك.

وهذا ما كان يدركه ذو القرنين.

كيف..؟

4- ذو القرنين.. التمكين والتنمية والإرهاب (4)

أدرك ذو القرنين أن العدالة مطلب إنساني عام، وشرط للتمكين عند أي شعب، تستوي في ذلك الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلفة التي لم تلحق بعد بسُلَّم الحضارة والتمدن. (قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا {18/93}) [الكهف: 93]. ومع ذلك أقام فيهم العدالة ولبى مطلبهم على الفور نحو مكافحة الإرهاب.

فذو القرنين لم يطبق العدالة في بلاده فقط مثلما تفعل الدول الغربية، ثم تعيث في الأرض استعمارًا وظلمًا بمعايير مزدوجة، بل طبقها في بلاده التي انطلق منها بعد أن استقر حكمه على قواعد العدالة، وطبقها في أقاصي الأرض من مطلع الشمس إلى مغربها، بصرف النظر عن مدى تقدم هذه الشعوب أو

تخلفها، وبغض النظر عن كونها متعلمة أو جاهلة، مؤهلة أو غير مؤهلة. فالعدالة واجبة بمعيار واحد على كل الأمم، لا بمعايير مزدوجة مثل تلك المعايير التي يطبقها الاستعمار العالمي.

إن قيمة العدالة التي تظاهر من أجلها المصريون، هي ذاتها التي تظاهر من أجلها مواطنو براغ أو غيرهم من شعوب العالم، وقد خرجوا رافعين هذا الشعار لأنهم يريدون ببساطة وضع نهاية للظلم وتطبيق قانون للمساواة والعدل وإيقاف سيطرة وامتيازات نخبة الحزب الحاكم. ولم يفعلوا ذلك دفاعًا عن المساواة النفعية حسب مبدأ الاختلاف لجون رولز، أو أية نظريات فلسفية على غرار نظريات الفضيلة أو التفويض.

وقل مثل هذا في قيمة «الصدق»، فنجد أن مواطني مصر أو براغ أو أية بلد عانت من الخداع والتضليل، لم يخرجوا إلى الشارع دفاعًا عن الأخلاق المثالية أو نظرية الإجماع أو حتى نظرية الاتساق مع الحقيقة، بل ربما لا يعرفون مثل هذه النظريات الفلسفية، بل قد لا يكترثون بها من الأساس. لكن الواقع أن المتظاهرين أرادوا فقط أن يسمعوا تصريحات صادقة من زعمائهم السياسيين، وطالبوا بأن يكون بإمكانهم تصديق ما يقرأون في الصحف وعدم خداعهم والكذب عليهم أكثر من ذلك. وأشار مايكل والزر إلى أن مثل هذه المناسبات أوضحت له ولآخرين أنه كانت هناك علاقة حميمة بين قيمة «العدالة» وقيمة «الصدق» بوصفهما مطالب مشتركة بين الجنس البشري كله.

ويخطئ من يظن أن العدالة في القضاء والقوانين فقط، بل في كل المجالات، ولعل من أهم مستويات العدالة، لا سيما في دولة تريد أن تنهض،

هـو سـيادة مبـدأ «لـكل حسـب عملـه»، لا حسـبه ولا نسـبه، ولا علاقاتـه، ولا غـير ذلـك مـن أسـباب الوصـول اللامشروعـة في المجتمعـات المتخلفـة.

ويسـتلزم مبـدأ «لـكل حسـب عملـه» خلـق بيئـة تنافسـية عادلـة، أي وضـع الضمانـات والتقاليـد التـي تكفـل قواعـد وآليـات ثابتـة للتنافـس لا يمكـن الالتفـاف حولهـا أو القفـز عليهـا. ومـن أهـم هـذه القواعـد المسـاواة، لكنها ليسـت المسـاواة بمعناهـا الآلي، أي المسـاواة الميكانيكيـة التـي تلغـي الفـروق الفرديـة في المواهـب والجهـد، وتجعـل مـن الأفـراد نسـخًا متشـابهة تشـابه الآلات مـن النـوع نفسـه.

إن المسـاواة الميكانيكيـة تسـوي بـين مـن يعملـون ومـن لا يعملـون، ومـن ثـم تحطـم الدافعيـة عنـد المتميزيـن والناشـطين والمخلصـين؛ فلـماذا يعملـون وهـم يتسـاوون مـع الكسـالى والعاجزيـن. ولمـاذا يعملـون وهـم يتسـاوون في الترقيـات والحوافـز مـع الذيـن لا يعملـون، ولمـاذا يتفـانى الموظـف الجديـد النشـط والمتميـز وهـو في كل الأحـوال أقـل في المكتسـبات مـن الموظـف الأقـدم حتـى ولـو كان هـذا الأخـير محـدود الطاقـة والمواهـب والعطـاء؟ ولذا فإن التسلسـل النمطـي للوظائف بحاجـة عاجلـة إلى الإصـلاح؛ حتـى تتحقق العدالـة الضروريـة لعملية التنميـة (وَأَمَّا مَـنْ آمَـنَ وَعَمِـلَ صَالِحًـا فَلَهُ جَـزَاء الْحُسْـنَى وَسَـنَقُولُ لَهُ مِـنْ أَمْرِنَا يُـسْرًا {18/88}) [الكهف: 88]، (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ {99/7}) [الزلزلة: 7].

ولا بـد مـن حمايـة عمليـة التنافـس مـن غـول الاسـتثناءات والوسـائط. فمـن أبلـغ مظاهـر الظلـم - كـما قلنـا مـرارًا - الاسـتثناءات المتواليـة التـي تتحـول بمـرور الوقـت إلى قواعـد. فتتحـول الواسـطة إلى قاعـدة، والكسـل إلى حـق، والرشـوة إلى إكراميـة، والتشـدد مـع البعـض إلى إعـمال للقانـون، والتسـاهل مـع البعـض الآخـر إلى إعـمال لـروح القانـون... ! ومـن أهـم ضمانـات العدالـة أيضًـا وجـود

مؤسسات تحمي الأفراد من القوة الطاغية لبعض الجهات والمجموعات ذات القوة، وتحمي الأفراد من صراعات المصالح التي لا يخلو منها المجتمع أبدًا.

إن البيئة التنافسية العادلة الخاضعة لمنظومة قانونية عادلة سوف تسهم في إيجاد المواطن الكفء، والفعال، والأمين، الذي يطور ذاته باستمرار، ويواصل عطاءه من أجل الترقي. ولذا فإن من شروط خلق بيئة تنافسية عادلة إصلاح القوانين والتشريعات؛ ليوجد قانون عادل يقدم الضمانات الكافية التي تكفل التطابق بين العمل والجزاء عليه، وبين الكفاءة والترقي، وبين الجهد والمكافأة عليه. والمهم هو التنفيذ؛ فقوانين على الورق ولا تُنفذ مثل مطر يسقط في البحر لا يُخرج زرعًا.

وإذا كانت العدالة مطلبًا إنسانيًّا، وواجب مطلق أصيل على الحكام، فإنها لا تتحقق إلا بالناس، فكن أنت العدالة التي تتمناها للناس، ولا تنتظر العدالة من الآخرين وأنت نفسك غير عادل. ومن غير المنطقي أن يطالب شعب بالعدالة وكل فرد فيه غير عادل في نفسه أو أسرته أو عمله. فمجموع عدالة الأفراد يساوي شعبًا عادلًا.

هذه هي معضلة عصرنا!

5- ذو القرنين.. التمكين والتنمية والإرهاب (5)

لا تكفي مجموعة إجراءات استثنائية وقتية لمواجهة الإرهاب، وإنما لا بد من إستراتيجية متكاملة لاقتلاع خطر الإرهاب المتزايد على الحدود، بل والذي تحول إلى مركب عضوي في بنية المجتمع نفسه.

إن «التصدي الحاسم للإرهاب» هو القانون الرابع في قصة ذي القرنين.

يظهر هذا القانون في المشهد الآتي الذي يصوره القرآن تصويرًا فنيًّا محكمًا ودقيقًا ومختصرًا، موضحًا الدوافع، وإرادة الحسم، وقوة العرض المغري، والحل المقترح المناسب للحالة، والاستجابة السريعة، ومعرفة القدرات الذاتية، والوسائل، والخطة، وطريقة تنفيذها، والعلم، والقدرة، وتوظيف أقوى تكنولوجيا العصر الذي يعيشون فيه، والنتيجة التي تحققت بنجاح. كل هذا يقوله القرآن في كلمات معدودة: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا {18/93} قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا {18/94} قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا {18/95} آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا {18/96} فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا {18/97}) [الكهف: 93 - 97].

والسد قد يكون سورًا، أو أي شيء آخر، المهم الحسم ثم الحسم، بقوة، وبإستراتيجية محكمة التخطيط والتنفيذ، وبلا أي تردد، وباستخدام كل وسائل العصر.

وقد أدرك الغرب شيئًا من هذا مع الإرهاب، حيث أعاد تصديره إلينا، ولكنه الآن يخشى أن يتمدد إليه مرة أخرى، فبدأ يأخذ إجراءات احترازية غير عابئ بحقوق الإنسان التي يوجع رأسنا بها ليل نهار في ازدواجية معايير بشعة، وحالة من النفاق السياسي المكشوف! وقد قامت الولايات المتحدة نفسها بإجراءات أكثر تشددًا ضد خطر الإرهاب بعد 9 سبتمبر، ليس داخل أراضيها فقط، بل عبر العالم، واتخذت منه ذريعة لتدمير دول وقتل وتشتيت شعوب. ومؤخرًا بدأت الدنمارك -كما ذكرت صحيفة العرب اللندنية - في

اتخاذ إجراءات إضافية تسمح لمشرعيها في البرلمان باقتراح جملة من القوانين الجديدة التي من شأنها السماح للسلطات بمراقبة وحجز واعتقال «كل من يشتبه فيه أو من تشك السلطات الأمنية في علاقته بالإرهاب». وقامت فرنسا وألمانيا وبريطانيا في تنفيذ إستراتيجيتها لمكافحة الإرهاب، سواء كان ذلك عبر جملة من الاعتقالات الواسعة في صفوف الممولين والمُجنِّدين المشتبه بهم، أو عبر حملات التوعية بالاستعانة بخبراء في المجال النفسي والاجتماعي. وقد أكد الأدميرال بينيللي في حوار له مع إحدى الصحف الإيطالية القريبة من الدوائر الرسمية، أن «إيطاليا سوف تتعامل بكل جدية وحزم مع أي مشتبه بهم أو من تشعر الأجهزة الأمنية أن له علاقة بالإرهاب». ويوجد بند في مقترح القانون المعروض للنقاش في البرلمان الدنماركي يتحدث عن «مصادرة جواز السفر في حالة شك السلطات في علاقة أي مسافر بالإرهاب».

إن إرهاب يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ليس حالة حدثت وانتهت، بل هو متكرر في كل عصر مع اختلاف الأشخاص والأماكن، لكن الفكر في كل مرة واحد؛ إنه الفكر الجامد المتحجر الذي ينتجه العقل المغلق وتحركه غريزة القطيع! ذلك الفكر الذي يقسم المجتمع الواحد إلى أبيض وأسود، دار حرب ودار سلام، فكر «الأنا وحدي» الذي يناقض السنن الإلهية في الكون والمجتمع والتاريخ، تلك السنن التي تتجلى فيها القدرة الإلهية على تنوع الألسن والألوان والأقوام وأنماط الحياة وطرق التفكير. إنه الفكر الإرهابي الذي يريد العالم لونًا واحدًا! الفكر الإرهابي الذي يريد أن يحيا هو ويموت الآخرون، ويريد أن يحكم وإلا فالبديل هو الدمار!.

ودرس القرآن الخالد في مواجهة الإرهاب حسب قصة ذي القرنين،

هـو اسـتخدام القـوة الحاسـمة للقضـاء عـلى الإرهـاب، والقـوة مرتبطـة بالعلـم والتخطيـط وامتـلاك القـدرة عـلى توظيـف الحديـد. وظهـرت كل تلـك العنـاصر مـع ذي القرنـين في صناعـة سـد مـن الحديـد لإقصـاء الإرهابيـين، أمـا في عصرنـا فالحديـد لم ينتـهِ زمانـه بعـد، فهـو حـاضر في كل أنـواع السـلاح وقـد يحـضر في شـكل سـور أو حواجـز. و«المؤمـن القـوي خـيرٌ وأحـب إلى اللـه مـن المؤمـن الضعيـف وفي كل خـير. احـرص عـلى مـا ينفعـك واسـتعن باللـه ولا تعجـز...» (رواه مسـلم في صحيحـه). ولا حـرج عـلى الإطـلاق في الاسـتعانة بخـبراء دوليـين، فهـؤلاء القـوم الذيـن (لَّا يَـكَادُونَ يَفْقَهُـونَ قَـوْلًا)، عندمـا عجـزوا عـن مواجهـة إرهـاب يأجـوج ومأجـوج اسـتعانوا بـذي القرنـين صاحـب العلـم والقـوة والتخطيـط.

ومـرة أخـرى ذو القرنـين لم يكـن وحـده بـل كان معـه علـماء وصنـاع يجيـدون توظيـف الحديـد. يقـول ابـن عاشـور في تفسـيره (التحريـر والتنويـر): «إنـه كان معـه قـوم أهـل صناعـة متقنـة في الحديـد والبنـاء»، وهنـا دور العلـم ودور العلماء ودور رجـال الإدارة في عصرنـا مـن أجـل «صناعـة متقنـة في الحديـد والبنـاء»، سـواء مـن أجـل التنميـة أو مـن أجـل مكافحـة الإرهـاب.

والدولـة والعلـماء لـن ينجحـوا مـن دون النـاس، مـن دون المجتمـع، مـن دون المواطـن، فـلا بـد مـن تضافـر الجميـع ضـد الإرهـاب مـن خـلال منظومـة محكمـة المعـالم، واضحـة الخطـوات، تحـدد دور كل طـرف ومسـئولياته، وتسـمح بالمبـادرة. والمواطـن عليـه دور كبـير في التوعيـة وفي الحصـار وسـد المنافـذ والثغـرات، كل حسـب قدرتـه وكل حسـب علمـه.

هـذا هـو القصـص القـرآني الحـق في فلسـفة التاريـخ والحكـم والحـرب عـلى الإرهـاب.

6- ذو القرنين.. التمكين والتنمية والإرهاب (6)

القانون الخامس من قصة ذي القرنين هو «ضرورة ظهور الإرادة عند الناس للانتقال من الضعف إلى التمكين، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الإرهاب إلى الأمن»، انظر قوله تعالى:

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا {18/94}) [الكهف: 94]. وهذا معناه أن لديهم «الرغبة»، لكن الرغبة وحدها لا تكفي؛ إذ لا بد من وجود إرادة قوية تحولها إلى فعل، وفعل قوي؛ ولذلك قال: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ). وهذه هي الإرادة الفاعلة التي تحرك الشعب للخروج من أزمته مهما كانت كبيرة، ومهما كان الشعب ضعيفًا؛ فالإرادة الفاعلة تجعل للقدمين جناحين كما يقول الألمان. وقد قيل لنابليون بونابرت يومًا: إن جبال الألب شاهقة تمنع تقدمك، فقال: يجب أن تزول من الأرض!.

والإرادة ليس معناها النية، بل معناها تحول النية إلى فعل. فلا يكفي أن تكون لدينا «الرغبة»، بل لا بد أن تتحول الرغبة أو النية إلى إرادة للبحث عن الأسباب الموصلة إلى الهدف، ووضع الخطة، ثم تحويل الخطة إلى أفعال قابلة للقياس والتقويم.

إن الإرادة بلا تفكير مجرد قطة عمياء في غرفة مظلمة، وكل شعب يملك الإرادة ولا يملك التفكير المنظم لا يعدو أن يكون مجموعة من الهمج. يقول آرثر شوبنهاور: «السوقيَّة نتاج الإرادة حين يغيب الذكاء». فالتفكير هو الذي يحول الإرادة من أداة للفوضى إلى أداة لصنع النصر، و«أنت في الطريق

الصحيح ما دمتَ تفكر .. سواء حققت ما تريد أم لم تحققه»، هكذا قال هنري فورد.

والإرادة تعني أنه لا يوجد مصير محتوم ونهاية واحدة، بل توجد خيارات مفتوحة، سواء أمام الفرد أو الدولة؛ فالإنسان يصنع شخصيته، والدولة تصنع هويتها، والإرادة الفاعلة هي نقطة البداية الحاسمة نحو السير قُدمًا نحو «ما يجب فعله» لا نحو «ما نرتاح أو نلتذ بفعله». وإذا ما أخطأنا نتعلم الدرس ونعدل من إستراتيجيتنا لإتمام الخطوات والمهام والخطط والاقتراب من تحقيق الهدف تلو الهدف لبلوغ الأهداف النهائية.

إن «إرادة النصر» على التخلف أو الخصم أو الإرهاب نقطة فاصلة لا بد من وجودها عند الشعب والقيادة، ولا بد أن يسبقها «إرادة النصر على الذات»، وتقتضي الإرادة العاقلة تحرك الناس في ديالكتيك (تفاعل خلاق) مع القيادة نحو التنمية والقضاء على الإرهاب، وهنا أحد أسرار النجاح وأسرار الفشل؛ فالصين أو اليابان أو أمريكا أو روسيا أو غيرها لم تتقدم إلا بإرادة تاريخية وقيادة تاريخية وشعب تاريخي في توليفة متجانسة. وبلغة كرة القدم إن المدرب العالمي وحده لا يصنع فوزًا، وقد جربنا ذلك مرارًا وتكرارًا، والفريق المكون من لاعبين مهرة من دون مدرب ممتاز لا يصنع فوزًا! وإذا وُجد المدرب والفريق ولا توجد «إرادة النصر»؛ فالهزيمة هي المصير المحتوم.

«إن من يصمم على الانتصار يقترب جدًّا من النصر»، هذا ما قاله طاغور، لكن نزيد عليه أن الإرادة لا بد لها من عقل يوجهها، كما لا بد من تخطيط يحكم عملها، وإلا ضلت الطريق نحو الفوضى.

هـذا مـا يحـدث في عـالم كـرة القـدم، وهـذا مـا يحـدث في عـالم السياسـة، لا فـرق .. الـدرس واحـد إذا أراد الشـعب الحيـاة.

إن قانـون الإرادة قانـون أزلي يحكـم التاريـخ، وهـو ليـس قانونـًا للمؤمنـين فقـط، بـل قانونـًا لـكل النـاس والأفـراد والأمـم، وهـو قانـون كـوني إلهـي. وكل الأمـم التـي تقدمـت أخـذت بـه، وكل الأمـم التـي تأخـرت أو انهزمـت لم تـسر عليـه أو تهاونـت في تطبيقـه أو لم تحـاول الحفـاظ عـلى الاندفـاع والحـماس الـذي بـدأت بـه.

إن قصـة ذي القرنـين ليسـت قصـة عابـرة، وهـي ليسـت قصتـه فقـط بـل قصـة شـعب تلاحـم معـه نحـو هـدف. إنهـا قصـة أسـباب وأخـذ بالأسـباب حسـب بديهيـات القوانـين الطبيعيـة التـي جعـل اللـه الطبيعـة تعمـل لهـا، وحسـب قوانـين التاريـخ في علـو الدولـة وانتصـار الشـعوب وازدهـار الحضارات. إنهـا قصـة تخطيـط وتفكـير، قصـة مشـقة وكفـاح، قصـة عـدل وعدالـة، قصـة إرادة القـوة.

وتنتهـي القصـة لكنهـا تتكـرر مـن خـلال القوانـين التـي تركتهـا لـكل شـعب أو قائـد يريـد تحقيـق ذات النتائـج التـي حققهـا ذو القرنـين:

1. مهـما كانـت قـدرة القيـادة عـلى التخطيـط عاليـة لـن تنجـح مـن دون النـاس؛ فحجـر واحـد لا يصنـع شرارًا.
2. الأخذ بأسباب التمكين والتنمية ومواجهة الإرهاب.
3. أفضل وسيلة للتمكين السياسي هي تحقيق العدالة.
4. التصدي الحاسم للإرهاب.

5. ضرورة ظهور الإرادة عند الناس للانتقال من الضعف إلى التمكين، ومن التخلف إلى التقدم، ومن الإرهاب إلى الأمن.

ولا يهم مَنْ هو ذو القرنين، ولا ما هي الشعوب التي تلاحمت معه، ولا مَنْ هم يأجوج ومأجوج؛ بل المهم هو «التيمة المتكررة» في التاريخ و«القوانين الثابتة» التي تصنع التمكين والتنمية، وتحقق العدالة والأمن، وتقضي على إرهاب يأجوج ومأجوج اللذين يقومان بالوظيفة نفسها في كل عصر حتى ولو اختلفت الأسماء والأيديولوجيات.

إن قصص القرآن هي عمق التاريخ وحكمته، وهي القصص الحق ضد قصص مشايخ وجماعات الغفلة والأسطورة والتكفير! وضد قصص المهادنين والمنافقين وأصحاب الأيدي المرتعشة من أساتذة الكسل الوظيفي، وتعطيل مصالح الناس، وإطلاق الشائعات، والكذب، والمماطلة!

فهل نكون مثل شعب ذي القرنين؟ وهل نجعل شعار مصر شعار ولاية كنساس..؟

«إلى النجوم من خلال المشقة»

كلمة أخيرة

ماذا يجب أن نفعل؟

- المهمة العاجلة هي العمل على تغيير «ماكينة التفكير» عند الناس؛ لأن بنية العقل المسلم المعاصر تنطوي على إشكاليات ضخمة تجعله بعيدًا عن طرق التفكير الصحيحة سواء في العلم أو الدين أو الحياة اليومية. والمسألة هنا لا تتعلق فقط بالعلم وطرق إنتاجه، بل تتعلق بضرورة تغيير «طرق تفكير الناس» في الحياة اليومية وفي العمل والمجتمع والسياسة، ومن ثم يجب فض الانفصام بين العلم الذي يُدرس في الكتب وطرق تفكير رجل الشارع والمشتغل بالدين أو الإعلام أو غيره من منابر الرأي والتعليم والثقافة.

- تجديد فهم المسلمين للدين، عن طريق ثورة في التعليم والإعلام، حتى تحل الرؤية العلمية للدين والعالم محل الرؤية اللاهوتية والسحرية القائمة على النقل والحفظ والاتباع الأعمى للذين وضعوا أنفسهم وسطاء بين الإنسان والله، وبين المسلم والقرآن، وبين الأمة ورسولها الكريم.

- نوعية جديدة من التعليم تقدم أسلوب حياة وطريقة عمل .. نوعية جديدة تعتمد على التعلم بدل التعليم، والبحث بدل النقل، والحوار بدل الاستماع، والقدرة على الاختلاف بدل التسليم المطلق بالأفكار السائدة.

- طرق تدريس جديدة قائمة على التربية الحوارية Dialogical Pedagogy، والتي تهدف إلى تخريج شخصية حرة واعية قادرة على الحوار، وغير متعالية عليه؛ مما ينشأ عنه النمو في تكوين المواقف والآراء الجديدة.

وهذا هو مقصد باولو فريري Paulo Freire من كتابه الشهير «التعليم من أجل الوعي النقدي Education for critical consciousness»؛ حيث «التعليم الحواري» في مقابل «التعليم البنكي» الذي يقوم فيه المعلم بإيداع المعلومات في ذهن الطالب، ومن شأن ذلك التعليم البنكي تكريس «الوضع القائم»... في حين ينبغي أن يكون «التعليم ممارسة للحرية Education: The Practice of Freedom»، وهذا عنوان كتاب آخر لباولو فريري يؤكد فيه أن الحوار له أساس كياني يخلق إمكانية في الإنسان ليتناقش ويعيد تشكيل العناصر الحقيقية لهويته، وهكذا يساهم في تغيير العالم.

- التوسع في تعليم الفنون، فروح السوق والتنمية ينبغي ألا تنسينا «البعد الثالث» في الإنسان وهو القلب بوصفه الميدان الخصب للخيال والوجدان اللذين من دونهما لن يستطيع الإنسان أن يعيش من أجل المستقبل. وتعليم الفنون وممارستها وتذوقها يقلصان قابلية العقل للإرهاب.

- إزاحة كل «المرجعيات الوهمية» التي تكونت في قاع تراثٍ صُنع لغير عصرنا. ومن دون هذا لن نستطيع صناعة تاريخ جديد نخرج فيه من هذه الدائرة المقيتة لكهنوت صنعه بشر بعد اكتمال الدين، وتلقفه مقلدون أصحاب عقول مغلقة ونفوس ضيقة لا تستوعب رحابة العالم ولا رحابة الدين.

- تكوين «مرجعيات جديدة» في فقه جديد، وتفسير جديد، وعلم حديث جديد. ولن يحدث هذا من دون تعدد وتنوع مصادر المعرفة. إن

التجديد من داخل العلوم الشرعية غير ممكن؛ لأنه سوف يجعلنا نقع في حالة من الاجترار الذاتي، وهو ما حدث بالفعل؛ فكل محاولات التجديد من الداخل لا تزال تعاني حالة اجترار؛ ومن ثم نعود دومًا إلى نقطة الصفر، ولا تزال الدائرة مغلقة. ولذا من الضروري فتح الدائرة لتسمح بالدخول لعناصر جديدة حتى تتفاعل العناصر القديمة مع العناصر الجديدة لتنتج مركبًا جديدًا. وبلغة أخرى «إن حجرًا واحدًا لا يصنع شرارًا»!

- المواجهة الشاملة: فالإرهاب لا يحل فقط أمنيًا وعسكريًا، بل لا بد من الحل الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي والسياسي. والتأكيد على أن القوة تواجه بالقوة (الإرهابي المتمترس)، والفكر يواجه بالفكر (الإرهابي الطارئ).

- التحول من مرحلة «الوعظ والإدهاش» إلى مرحلة «الفكر والتفكر»، ومن مرحلة التفكير بـ «السحر والمعجزات» إلى التفكير بـ «التجربة والبرهان».

- تكوين خطاب ديني جديد، وليس تجديد الخطاب الديني؛ لأن تجديد الخطاب الديني عملية أشبه ما تكون بترميم بناء قديم، والأجدى هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة وتهجينها بلغة ومفردات العلوم الاجتماعية والإنسانية وفق متغيرات العصر وطبيعة التحديات التي تواجه الأمة، ونشر (وممارسة) مفاهيم التنوع والتعددية وقبول الآخر، وإعداد كوادر واعية بصحيح الدين لا فقط بدراسة العلوم الشرعية، بل بدراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

- ضبط الخريطة الإعلامية حتى يصبح الإعلام هو إعلام النقد البناء ويعكس الواقع كاملًا وليس جزءًا منه. ولا يَكتفي بنقد ما هو كائن، بل

يقـدم أيضًـا تصـورًا علميًّـا لمـا ينبغـي أن يكـون. مـع ضرورة العمـل عـلى تغيـير لغـة الخطـاب الإعلامـي.

- إعــادة كتابــة التاريــخ وإبــراز تاريــخ العلــم والفــن والثقافــة والأدب؛ فتاريخنـا المقـروء هـو تاريـخ الحـروب والغـزوات فقـط، بينـما تاريخنـا الحقيقـي أوسـع مـن ذلـك بكثـير.

- استعادة الإسلام المنسي:

- الإسـلام (قرآنًـا ورسـولًا) يقـدم نموذجًـا إنسـانيًّا عالميًّـا للديـن الـذي يلائـم الطبيعـة الإنسـانية.

- يعترف بالتنوع الكوني والإنساني.

- يعتبر التعددية سنة إلهية، ويميز بوضوح بين البشري والإلهي.

- وهو في الأساس جاء رحمة للعالمين وليس لبعض المسلمين فقط.

ومـن مقاصـده الكـبرى تحقيـق العدالـة الاجتماعيـة والحفـاظ عـلى الأوطـان ومصالـح النـاس .. كل النـاس:

1- حياتهم. 2- عقولهم. 3- دينهم.

4- أموالهم. 5- أعراضهم.

وتسـمى هـذه المصالـح والحقـوق الخمسـة في «علـم أصـول الفقـه» بالضروريـات الخمـس، وبمقاصـد الشريعـة، وهـي الأمـور التـي تظهـر مـن جميـع أحـكام الديـن في أصلـه النقـي. ويجـب توجيـه النـاس للتفكـير فيهـا والتركيـز عليهـا وعـلى وسـائل تحقيقهـا وليـس عـلى الهوامـش ومظاهـر التديـن الزائـف الـذي يعيـش فيـه أهـل عصرنـا.





د. محمد عثمان الخشت

نحو تأسيس عصر ديني جديد

يسعى أستاذ فلسفة الأديان د. محمد عثمان الخشت في هذا الكتاب إلى تجاوز "عصر الجمود الديني" الذي طال أكثر من اللازم في تاريخ أمتنا؛ و ذلك من أجل تكوين خطاب دينى من نوع مختلف وتأسيس عصر دينى جديد ، ويرفض د. الخشت تجديد الخطاب الديني التقليدي؛ لأن تجديد الخطاب الديني عملية أشبه ما تكون بترميم بناء قديم، والأجدى من ذلك هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة إذا أردنا أن نلج أبواب عصر ديني جديد.

ويدعو فيلسوفنا الكبير إلى العودة إلى "الإسلام النقي المنسي"، لا الإسلام المزيف الذي نعيشه اليوم بسبب الجماعات الإرهابية ومجتمعات التخلف الحضاري. ولا يتسنى ذلك إلا بتخليص الاسلام من "الموروثات الاجتماعية" ، و"الرؤية الأحادية للإسلام"، فالنظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة وضيقة تزيف الإسلام، ولذا من الفرائض الواجبة توجيه النقد الشامل لكل التيارات أحادية النظرة، سواء كانت إرهابية أو غير إرهابية.

ويتبنى الكتاب أن المشكلة ليست في الإسلام، بل في عقول المسلمين وحالة الجمود الفقهي والفكري التي يعيشون فيها منذ أكثر من سبعة قرون. لقد اختلط المقدس بالبشرى في التراث الإسلامي، واضطربت المرجعيات وأساليب الاستدلال.

لذا من المستحيل "تأسيس خطاب ديني جديد" دون تفكيك العقل الديني التقليدي وتحليله للتمييز بين المقدس والبشري في الإسلام، ويتطلب ذلك أيضا نقد العقل النقلي، وفك جمود الفكر الإنساني الديني المتصلب والمتقنع بأقنعة دينية؛ حتى يمكن كشفه أمام نفسه وأمام العالم. وهذه بعض من مقدمات عديدة من أجل تكوين خطاب ديني جديد يتراجع فيه لاهوت العصور الوسطى الذي انتقل إلى واقعنا المعاصر،والذى يحتكر فيه المتعصبون الحقيقة الواحدة والنهائية.

د. عمرو شريف

Design: A.N 01148745162



9789776519299

NEW BOOK